موجز في تاريخ
دويلات المشرق الإسلامي



د/ أحمد محمد عدوان

دار عالم الكتب للنشر والتوزيع

موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي

تأليف

د/ أحمد محمد محمد عدوان

جامعة الملك سعود - كلية الآداب

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



دار عالم الكتب للنشر والتوزيع
العليا - الشارع العام - ت ٤٦٣١٣٣٦ / ٤٦٣١٧٢٢ / ٤٦٥١٦٨٩
ص.ب ٦٤٦٠ الرياض ١١٤٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد ..

فمن المعروف أن أبناءنا من طلاب ودارسين يلمون بقدر لابأس به عن تاريخ الدول والشعوب الاسلامية في منطقتنا التي نعيش على أرضها أو التي تجاورنا مباشرة.

واستكمالاً لهذا القدر من المعلومات فقد هدفت من إيراد الفصول التالية إطلاع المهتمين وبشكل يبتعد عن التفاصيل على تاريخ بعض دول مشرقنا الاسلامي غير العربية عرقاً ولساناً ، وهي التي ساهمت بدور حيوي وفعال في بناء حضارتنا الاسلامية المجيدة.

وسيلاحظ القارئ لهذه الدراسة أنها تضمنت لمحات حضارية سريعة لبعض هذه الدول اقتضتها ظروف البحث.

وقد فرضت طبيعة الموضوع الكيفية التي سرت عليها لاخراج هذه الدراسة.

وعلى كل حال فأنا على يقين أن الخوض في موضوع كهذا لا يسلم من نقص، وقد لا يبرأ من خطأ، فإذا كان ذلك كذلك، فلعل اخطائي - إن وجدت - تكون حافزاً للتصحيح والتوجيه، وبذلك تكون الفائدة المرجوة أكبر من الخطأ.

والله أسأل أن يوفق الجميع لخدمة الاسلام والمسلمين ..

د/ أحمد محمد عدوان

مظاهر ضعف الخلافة العباسية

١ - نفوذ الاتراك وضعف هيبة الخلافة

أكثر الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) من شراء الاتراك قبل تولية الخلافة، وعندما أصبح خليفة زاد من عملية الشراء حتى أصبح هؤلاء القوة الرئيسية في جيشه، وساندوا الخلافة وشدوا من أزرها ووقفوا الى جانبها في كثير من المواقف الصعبة التي مرت بها[١]، فكانوا عصب الجيش الذي توجه الى عمورية وحققوا انتصاراً رائعاً على الدولة البيزنطية ولعبوا دوراً هاماً في ضرب حركة بابك الخرمي واضعافها.

وبمرور الوقت قويت شوكة هؤلاء واشتد بأسهم وزاد نفوذهم وسلطانهم[٢] حتي أن البعض منهم كان يتطلع الى تكوين دولة له، وأوضح دليل على ذلك حركة الافشين التي تكشفت ابعادها وحوكم وثبتت ادانته، وخاصة بعد القبض على المازيار الذي كان وإياه على اتصال وتعاون ضد الخلافة، وقد شعر الخليفة المعتصم بخطورة مطامع الاتراك وتطلعاتهم بدليل أنه أفشى بهذه المشاعر الى أحد المقربين له، الا أن هذه المشاعر والاحساسات جاءت بعد فوات الأوان، فقد أصبح الاتراك قوة لا يستهان بها وليس من السهولة أن يتخلص منها، فتبوأت المناصب الكبرى في الدولة وتصرفت في مجريات الأمور صغيرها وكبيرها، حتى أن الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) عين اشناس أحد قادتهم سلطاناً. وهذه أول مرة استخلف فيها خليفة سلطاناً[٣]، وفي عهد الخليفة المتوكل بلغت سلطة ايتاخ واشناس ذروتها وكذلك بعض القادة الاتراك الآخرين. الأمر الذي اغضب الخليفة المتوكل وضاقت به الارض بما رحبت وتأثرت نفسيته وأدرك أنه لايستطيع الاجتماع وإياهم في مدينة واحدة فقرر الرحيل الى دمشق واتخاذها عاصمة له ونقل الدواوين اليها[٤] علّه يجد هناك من ينصره، لكن الخليفة لم يتمكن من البقاء هناك طويلاً بسبب رفض الاتراك لهذه الخطوة ودبروا مؤامرة لاغتياله هناك، هذا بالاضافة الى ان جو دمشق على مايبدو لم يكن ملائماً له، فاضطر للعودة الى سامراء[٥]، وظل طوال خمسة عشر عاماً يحاول الحفاظ على هيبة الخلافة والحد من نفوذ الاتراك الى أن دفع حياته ثمناً لموقفه.[٦]

بمقتل الخليفة المتوكل استولى الاتراك كما يقرر صاحب الفخري «على المملكة

واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا ابقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه». وعندما تولى المنتصر الخلافة لمدة ستة أشهر، بعد مقتل والده، شعر هو الآخر بوطأتهم وتذمر منهم، وكان يسميهم قتلة الخلفاء[٧]، لكنه لا يستطيع أن يتصرف دون استشارتهم في معظم الاحوال، كما انه لايستطيع أن يرفض لهم طلباً أو رغبة، فهم الذين نصبوه على عرش الخلافة وهم الذين اجبروه على خلع أخويه المستعين والمعتز من ولاية العهد[٨] حتى يتركوا لأنفسهم الحرية في اختيار من يرون أن مصلحتهم في استخلافه، وعندما شعر الاتراك بأن الخليفة أخذ يتغير عليهم[٩] تخلصوا منه قبل أن تمضي ستة أشهر على خلافته فجاء بعده المستعين الذي حاول بدوره أن يحد من نفوذهم لكنه عجز فاضطر الى الهروب الى بغداد، وعندما حاولوا اعادته الى سامراء رفض ووبخهم قائلاً: «أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم، الم ترفعوا اليّ في اولادكم فألحقتهم بكم، وفي بناتكم ... وكل هذا قد أجبتكم اليه وأدررت لهم الارزاق، حتى سكبت لكم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها ... كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم، وانتم تزدادون بغياً وفساداً وتهديداً». وبعد مشاورات بين الطرفين رفض الخليفة العودة، وكان يتخذ من دار محمد بن عبدالله بن طاهر مقراً له(١٠).

وعندئذ قام الاتراك باخراج المعتز من سجنه وبايعوه، فاندلعت الحرب الاهلية، وكثرت المشاكل وعانت البلاد من ذلك الكثير، ويذكر صاحب الفخري «وكانت ايام المستعين أيام فتن وحروب وخروج وخوارج»[١١]. وقد حسمت هذه الحروب لصالح الاتراك فعزلوا المستعين وعينوا بدله المعتز عام ٢٥٥هـ ولم يكن هذا بأحسن حظ من سابقيه لأنه سرعان ما اصطدم بهم فقتلوه بعد أن عذبوه[١٢] وعينوا بدله محمد بن الواثق الذي لقب بالمهدي وكان رجلاً تقياً ورعاً وصاحب حزم وعزم، فهو يرى بأم عينيه مصرع الخلفاء الواحد تلو الآخر والفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان فاستشرى الفساد وانعدم الأمن.

وسط هذه الأجواء بدأ المهدي خلافته، وكانت لديه رغبة في الاصلاح، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأظهر العدل وأخذ يدقق في الاشراف على الدواوين حتى أنه عاقب بعض الرؤساء الذين أهملوا وظائفهم[١٣]، وكان ينظر في المظالم بنفسه، وحبذا لو كان هذا الرجل في غير هذا الوقت، لقد ظهر في زمان غير زمانه واتسع فيه الخرق على الراقع، فالاتراك لا يرتاحون لرجل هذه صفاته، خاصة وانه تمكن من إثارة الجند ضد قادتهم، فأدركوا خطورة

الموقف وعادوا الى تآلفهم وكونوا عصبة ضد الخليفة وتآمروا عليه، ويذكر الطبري أن الخليفة المهدي لما علم بتآمرهم «خرج الى مجلسه متقلداً سيفاً، وقد لبس ثياباً نظافاً وتطيب، ثم أمر بادخالهم اليه .. فقال لهم .. إنه بلغني ما أنتم عليه من أمري ولست كمن تقدمني .. فوالله ما خرجت اليكم إلا وأنا متحنط، وقد أوصيت الى أخي بولدي وهذا سيفي، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي، والله لئن سقطت مني شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم، أما دين ؟ أما حياء ؟ كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله ... سوأة لكم»[١٤] ورغم هذا الموقف الجريء إلا أن مصيره كان القتل وعينوا مكانه احمد بن المتوكل الذي لقب بالمعتمد[١٥] ٢٥٦ - ٢٧٠هـ وقد حاول الخليفة الجديد أن يوقف الانهيار الذي تسرب الى قلب الخلافة وأن يحاصر المشاكل التي غرقت في بحرها، وكان نجاح المعتمد نجاحاص محدوداً لأن تيار الانحدار كان أقوى وأشد، فانجرفت البلاد نحو اللامركزية حيث تمكن بعض الامراء من ولاة الاقاليم من اعلان انفصالهم عن الدولة العباسية انفصالاً كلياً وظل البعض مرتبطاً بها ارتباطاً اسمياً كما سيتضح فيما بعد.

٢ - نجاح اللامركزية

المعروف أن خلفاء العصر الاول كانوا مصدر جميع السلطات ومنبع القوة السياسية والعسكرية، يجبى اليهم الخراج، وتضرب السكه باسمهم، فسيطروا على مقاليد الامور في عاصمة البلاد وخارجها، والدليل على ذلك أن الخليفة الاول اسند المناصب العليا لأهل بيته أو لمن وقف الى جانب دعوتهم، فكان منهم الولاة وقادة الجيوش وأشركهم في ادارة البلاد، كل ذلك تدعيماً لسلطته، كما أنه رسم سياسة التخلص من الاتباع الذين يخشى بأسهم أو يشك في اخلاصهم، والمنصور ايضاً كان يحرص على تلقي الاخبار يومياً من مختلف الولايات سواء عن الاحوال العامة أو حتى عن سيرة الولاة والعمال، كما أن اختياره لعاصمة الدولة يدل على تفكيره في الحفاظ على مركزية السلطة، فاختارها في مكان وسط يحقق له سرعة الاتصال بالولايات الشرقية والولايات الغربية على السواء، وهكذا سار بقية خلفاء ذلك العصر، فطبقوا مبدأ المركزية ونجحوا في ذلك بشكل واضح لكن الامور تغيرت في العصر الثاني كما أشرنا قبل قليل حيث فقدت الخلافة هيبتها وتطاولت عليها العناصر الطامعة التي نجحت فعلاً في خلق كيانات أو دويلات مستقلة انفصلت عن الخلافة، ويبدو أن سبب نجاح هذه العناصر في تحقيق مآربها يعود الى :

١- أن هذه العناصر استغلت تطبيق مبدأ المساواة الذي تنادي به عقيدتنا الاسلامية السمحاء، وقد طبق هذا المبدأ في عصر النبوة والخلافة الراشدة، كما حاول الأمويون تطبيقه قدر جهدهم، وفي العصر العباسي بذلت محاولة لتطبيقه فكانت ناجحة الى حد ملحوظ حيث تبوأت العناصر الفارسية مركز الصدارة في الوظائف الحكومية وتغلبت في ذلك على العناصر العربية، وقد كان هذا حافزاً لبقية العناصر الاخرى أن تطالب بمساواتها بالفرس، ومما ساعد على بروز هذه الظاهرة أن الدولة قد فتحت الباب على مصراعيه أمام مثقفي هذه العناصر للتعبير عن رأيها، وكان يشتم من خلال تلك الآراء أحياناً رائحة الانتماء الاقليمي أو العرقي والتعصب له، وقد تولد عن هذا التوجه إحساساً بالاستقلال المعنوي لهذه الفئة أو تلك وقد تطور هذا الاستقلال المعنوي مع مرور الزمن الى استقلال حقيقي أعلن في مشرق العالم الاسلامي ومغربه، واضطرت الخلافة أن تتعامل مع هذه الحقائق والمعطيات الجديدة كأمر واقع.

٢- إن عناصر كثيرة في المشرق الاسلامي لازالت على ديانتها القديمة وقد رضيت بدفع الجزية للمسلمين، كما أن مناطق شاسعة ظلت على الوثنية كشبه الجزيرة الهندية، فكانت هذه وتلك تقاوم المد الاسلامي بكل مالديها من امكانيات، وتمد حركات المعارضة بما يلزمها وأوضح مثال على ذلك هو موقف الديلم الوثنيين الذين وقفوا الى جانب الحركة الزيدية ضد الخلافة العباسية وهذا ينطبق أيضاً على بعض الفئات التي دخلت الاسلام اكتساباً لا احتساباً، وحاربت الدولة الاسلامية لأن مصالحها قد تأثرت عندما طبقت الشريعة الاسلامية في مناطقهم.

٣- سوء الادارة التي طبقها بعض الحكام والولاة في ولاياتهم كما حدث من قبل ولاة الطاهريين في منطقتي كلار وشالوس المجاورتين لبلاد الديلم، إذ تذمر الاهالي من تسلط الولاة وسوء تصرفهم وطغيانهم وجبروتهم في جمع الضرائب التي كانت تصل الى ثلاث مرات في العام الواحد، فالاهالي هنا وهناك ممن يعيشون في نفس هذه الظروف باتوا يتطلعون بل يتمنون الخلاص من هذه الأوضاع السيئة بغض النظر عن هوية المخلص المنقذ.

٤- عندما اتسع نفوذ الاتراك في العصر العباسي الثاني وزاد تسلطهم وعين الخلفاء بعضهم ولاة لبعض الاقاليم صار هؤلاء الولاة يفضلون البقاء قريباً من بلاط الخليفة ويرسلون من ينوب عنهم في ادارة ولاياتهم الأمر الذي أطمع بعض هؤلاء الولاة الى اعلان استقلالهم، مستغلين ضعف السلطة المركزية في بغداد.

هذه الظروف مجتمعة وفرت الجو الملائم والارضية المناسبة لنجاح حركة الامركزية التي كانت تعني انفلات زمام الحكم وضعف السلطة وارتخاء قبضتها على الولاة والعمال.

٣ - الثورات المحلية

من مظاهر ضعف الخلافة ايضاً تلك الثورات والفتن المتعددة التي اندلعت في أكثر من مكان كثورة الزنج والقرامطة وثورات الخوارج والعلويين، وسنكتفي بدراسة شريحة واحدة من هذه الشرائح ليتضح لنا من خلالها حالة الضعف التي انتابت الخلافة.

ثورة الزنج :-

اندلعت هذه الثورة في سهول البصرة حيث يعيش آلاف مؤلفة من العبيد الذين جلبوا من افريقيا الشرقية للعمل في كسح السباخ هناك من أجل استصلاح الاراضي، وقد عمل هؤلاء في ظروف قاسية، فالمنطقة التي يعملون فيها مغطاة بالمستنقعات والانهار، فالرطوبة قاتلة والقذارة والاوبئة منتشرة[١٦]، ورغم هذه الظروف فإن ما يتقاضونه من أجور كان تافهاً الى أبعد الحدود فهو لايزيد عن قليل من الطحين والتمر والسويق[١٧].

هكذا عاش هؤلاء في ظروف اقتصادية واجتماعية ونفسية سيئة، بالاضافة الى ما كانوا يعانونه من غربة وعزلة.

أدرك علي بن محمد صاحب الزنج هذه الاوضاع وأخذ يبذل لهم الوعود لتخليصهم من هذه المآسي المروعة ويعدهم بحياة أفضل، وانهم سيحررون ويصبحون ملاكاً للأرض التي

يعملون فيها، لأن العناية الالهية قد أرسلته حسب ادعائه[١٨] وصاحب الزنج هذا على رأي بعض المصادر يرجع الى أصل فارسي من قرية ورزنين إحدى قرى الري إلا أن هناك اتجاهاً أخر يرى أنه يعود الى أصول عربية، خاصة وانه لم يكن يتكلم الفارسية، ثم انه لم يكن من بين اتباعه أي رجل فارسي، ومعنى هذا أننا لانستطيع أن نقطع برأي حاسم في نسبه[١٩].

عاش علي بن محمد في سامراء عاصمة الخلافة فترة من الزمن ثم رحل الى البحرين عام ٢٤٩هـ وأخذ يدعو الناس في مدينة هجر الامر الذي أدى الى انقسام الناس هناك الى فريقين أحدهما معه والآخر ضده فخاف على نفسه وهرب الى مدينة الاحساء، ولم يجد قبولاً لدى الاهالي هناك فاضطر الى الرحيل الى البادية وأخذ يتنقل بين احياء العرب، الا انه لم يتمكن من فرض سيطرته هناك فترك البادية الى البصرة عام ٢٥٤هـ مع بعض أصحابه، الا أن والي البصرة محمد بن رجاء حاول القبض عليه في العام التالي لوصوله الا أن هذا تمكن من ترك البصرة الى بغداد.

وهكذا لم يجد علي بن محمد أرضاً صلبة يقف عليها أو أنصاراً يمكن الاعتماد عليهم، وانطلاقاً من هذه الحقيقة أخذ يتطلع الى تلك الآلاف المؤلفة التي تعمل في كسح السباخ في منطقة البصرة، وأخذ يدرس أحوالهم عن كثب، وهل يمكن الاعتماد عليهم، وهل يمكن أن يكسب ثقتهم ؟.

وجد علي بن محمد ضالته في هؤلاء الذين سبق وأن ذكرنا انهم يعيشون في اوضاع يتمنون الخلاص منها ويتوقون الى تحسين أوضاعهم، فأرسل بعض رجاله الى منطقتهم يبثون الدعوة له ويحاولون اغرائهم بتقديم الوعود بتخليصهم وتحسين أوضاعهم. وقد ادعى صاحب الزنج أنه ينتسب الى البيت العلوي إدراكاً منه أن الناس كانوا يتعاطفون مع آل البيت ولهم في نفوسهم مكانة عالية، كما أنه ادعى العلم بالغيب وانتحل النبوة والرسالة[٢٠]، واذا صدقت هذه الرواية فإن ذلك سيؤدي الى نفور الناس منه وعدم تأييده اللهم عدا أولئك المتضررين من حياتهم القاسية والتي يتمنون الخلاص منها. وعلى كل حال نشط رجاله في الدعوة له وكتب على لوائه «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله» كما أنه سك له عملة ذهبية خاصة كتب عليها «ومن لم يحكم بما أنزل

الله فأولئك هم الكافرون».

هذه هي الشعارات التي رفعها علي بن محمد ليكسب بها تأييد الزنوج الذين أخذوا يتوافدون عليه، وانضم الى هذه الحركة بعض الجنود السود في جيش الخلافة وبعض الاعراب الساخطين وبعض من أهالي القرى حول مدينة البصرة.

وفي يوم ٢٦ رمضان عام ٢٥٥هـ القى في أتباعه خطبة حماسية فمناهم ووعدهم أن يقودهم ... ويملكهم الاموال وأكد لهم اخلاصه وعطفه عليهم.[٢١]

العمليات العسكرية لثورة الزنج

بدأها علي بن محمد بشن غارات خاطفة على القرى المجاورة للبصرة، ثم خاض معركة رهيبة مع البصريين فهزموه في ذي القعدة عام ٢٥٥هـ / ٨٦٩م، إلا أنه واصل القتال فحول الهزيمة الى نصر، وفي عام ٢٥٦هـ هاجم الزنج الابله وكانت دورها من الخشب فاقتحموها ونهبوها وأحرقوها[٢٢]، خاف الناس وارتعدت فرائصهم من هذه الاعمال التي سببت ردة فعل عنيفة ضد الثورة وقادتها. تمكن الزنج من الدخول الى مدينة عبادان وأخذوا يسلبون وينهبون، وأطلقوا سراح من بها من العبيد، ثم تقدموا في نفس السنة ودخلوا الى الاهواز[٢٣] التي دفعت ثمن الهزيمة وذاقت مرارتها، وهكذا دب الرعب والفزع في نفوس الاهالي الذين أخذوا يستغيثون بالخلافة ولامغيث لأن الخلافة كانت كما أشرنا تعاني من ضعف شديد، وفي عام ٢٥٧هـ هاجم الزنج مدينة البصرة أثناء صلاة الجمعة من ثلاث جهات فقتلوا وسلبوا ونهبوا ثم انسحبوا، وقد سهل انسحابهم لقوات الخلافة أن تدخل البصرة الا انها هوجمت مرة أخرى من قبل الزنج وهزمت قوات الخلافة هزيمة مرة[٢٤].

في ظل هذه الاحداث المروعة تسلم الامير الموفق قيادة الحملة بنفسه الى البصرة واصطدم مع الزنج في جماد أول عام ٢٥٨هـ الا أنه لم يوفق.

اضطرب الأمر من بغداد، فاستغل الزنج هذه الفرصة وهاجموا الاهواز مستغلين انشغال الخلافة بأمر الصفاريين، وكذلك هاجموا مدينة واسط وغيرها من القرى والمدن حتى

أصبحوا على مشارف بغداد، وتصادف في هذه المرحلة من الصراع أن بدأت الخلافة مرحلة من الانتعاش حاولت فيها اعادة سطوتها وفرض سيطرتها على مجريات الأمور، وذلك بعد تخلصها من خطر الصفاريين خاصة بعد هزيمة يعقوب بن ليث ووفاته.

تولى الموفق بنفسه أمر اخماد ثورة الزنج[٢٥] وكان إذ ذاك هو صاحب الكلمة المسموعة في الدولة وبدأ مهمته الجديدة بارسال حملة صوب البصرة بقيادة ابنه ابوالعباس، وتمكنت هذه الحملة من انزال هزيمة مروعة بصاحب الزنج في عام ٢٦٦هـ[٢٦]، الا ان صاحب الزنج أخذ يجمع قواته ويعيد تنظيمها لمهاجمة قوات الخلافة، وعلم الموفق بنوايا صاحب الزنج، فأعد حملة عسكرية ثانية تولى قيادتها بنفسه في عام ٢٦٧هـ وتوجه بها جنوباً، فالتحمت قواته مع قوات ابنه العباس وسارا معاً لمهاجمة حصن الزنج الشمالي، فاستولوا على الحصن وحرروا من فيه من المسلمين، ثم بدأت الاستعدادات للزحف على الحصن الثاني وهو مدينة المنصورة فدخلوها رغم حصانتها، وحرروا من بها من المسلمين وأخذ الموفق يتتبع الزنج ويطاردهم، ويحسن اليهم عندما يقعوا في الأسر، وذلك ليبعدهم عن صاحبهم، ثم سار الموفق الى الأهواز وافتتحها، ولم يبق أمامه الا المختارة وهي عاصمة الثورة وحصنها بل ومعقلها الاخير. أرسل الموفق رسالة الى صاحب الزنج يدعوه فيها الى التوبة والكف عن القتال ...

«وانه إن دخل في جماعة المسلمين محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له الحظ الجزيل في دنياه»[٢٧]. لكن رسالة الموفق لم تجد قبولاً لدى صاحب الزنج، فبدأ الموفق يضرب حصاراً قوياً حول مدينة المختارة واستمر الحصار فترة من الزمن، حدث خلالها اتصال بين الموفق وبعض قادة الزنج، فاستمال بعضهم وأحسن اليهم، فرغبوا في الامان وتنافسوا فيه[٢٨] وأقام الموفق له مدينة قريبة من المختارة الأمر الذي فت في عضد الزنج الذين احتاروا في أمرهم بعد أن ضرب عليهم الموفق ايضاً حصاراً اقتصادياً ومنع وصول اي امتدادات لهم ويذكر الطبري :

«فلم يكن للزنج سبيل الى بر ولا الى بحر فضاقت عليهم المذاهب واشتد عليهم الحصاروفشل صاحب الزنج في إختراق الحصار الاقتصادي»[٢٩] ويستطرد الطبري قائلاً :
«جعل الزنج يهربون في كل وجه ويخرجون الى الموفق طالبين الامان واضطر رجال الزنج ان يتفرقوا في القرى والمدن وحول الانهار النائية عن عسكرهم. طلباً للقوت، فأمر الموفق رجاله

بمطاردتهم.(٣٠)

بدأ الموفق هجومه في ذي القعدة عام ٢٦٧هـ / ٨٨١م بعد أن تأكد من ضعف الحال الذي أصبحت عليه حركة الزنج والاحباط الذي ألم بقادتها وأفرادها. كان الهجوم على مراحل استهدفت في البداية هدم الاسوار وتخريب خنادق المدينة وقناطرها، والعمل على كسب عدد أكبر من قادة صاحب الزنج، وعندما تيقن الموفق أن الخور والانهيار أصاب صميم الثورة الزنجية، تقدم بقواته واقتحم المختارة في عام ٢٧٠هـ / ٨٨٣م وفرق قوة الزنج وقتل زعيمهم.

وهكذا تنتهي هذه الثورة بعد أن دوخت الخلافة وأرهقتها واستنزفت قوتها البشرية وهزت هيبتها أمام الدول، وأضعفت من مكانتها السياسية الأمر الذي شجع الولاة والمغامرين أن يتطلعوا الى استغلال هذه الظروف ليقووا أنفسهم ويعلنوا استقلالهم بولاياتهم، فاذا اضفنا الى ما سبق الضرر الاقتصادي الذي نجم عن تفجر الثورة واستمرارها لمدة خمسة عشر عاماً، حيث شلت خلالها عجلة الانتاج فعطلت الزراعة، ولحق بالفلاحين أذى فادحاً يورده ابو الفدا «وكان الناس في البلاد التي تحت حكم الخليفة في شدة عظيمة بسبب تغلب القواد والأجناد على الأمر لقلة خوفهم وأمنهم من الانكار على ما يفعلونه، لانشغال الموفق بقتال صاحب الزنج ولعجز الخليفة المعتمد واشتغاله بتدبير المملكة»

هذا بالاضافة الى تعطيل حركة التجارة الذي نجم عن انتشار الفوضى وعدم الاستقرار والذي أدى بدوره الى تعطيل حركة المواصلات النهرية وتعطلت الحياة في ميناء البصرة التي ترد اليها السفن من الهند وسيلان وسومطرة والصين هذا الخط البحري الذي يصل الى البصره عبر المحيط الهندي والبحر الاحمر ويتفرع منه خط يذهب الى افريقية الشرقية، وعلى العموم فقد عطلت الحياة الاقتصادية في مرفأ هام من المرافئ التي كانت بؤرة من بؤر النشاط في ميدان التجارة العالمية.

الظروف التي ساعدت الثورة على النجاح*

إن المتتبع لتحركات الثورة يلاحظ أن مجموعة من العوامل والظروف قد ساعدتها

على تحقيق مزيد من الانتصارات وهذه هي أهم الظروف :

١- عدم اهتمام حكومة بغداد بأمر ثورة الزنج نظراً لكثرة ما تواجهه من مشاكل في الداخل والخارج ففي الداخل لاحظنا أن الخليفة كان مسلوب الارادة والسلطة، وقادة الاتراك يتحكمون في ادارة البلاد رغم ما بينهم من صراع وتنافس، أما في الخارج فهناك العديد من حركات التمرد، فإلى جانب ثورة الزنج كانت هناك الحركة الصفارية في سجستان والزيدية في طبرستان.

٢- ازدياد التوتر بين الخلافة ووالي مصر احمد بن طولون فلم ينجح الموفق في كسب ابن طولون بل زادت هوة الخلاف بينهما حتى أن ابن طولون حرك قواته صوب سوريا ودخلها في عام ٦٤ - ٢٦٥هـ، وكذلك حاول ابن طولون اغراء الخليفة المعتمد بترك بغداد والذهاب معه الى القاهرة لكن المحاولة فشلت.

٣- القدرة والكفاءة التي كان يتمتع بها قادة الثورة الذين يساعدون علي بن محمد وأخلصوا له فما كانوا يقطعون أمراً دون علمه.

٤- دقة النظام الذي قامت عليه الحركة في أول أمرها، وصرامة الأوامر وشدتها كانا عاملين للضبط وسيادة القانون بين رجالات الثورة وقد اعتمدت الثورة الى حد كبير على نظام الكمائن التي كانت تقوم بمفاجأة العدو وانزال الهزيمة به، بالاضافة الى انها كانت تقوم بعمليات رصد واستطلاع لتحركات العدو الذي كان يفاجأ في معظم الأحيان.

٥- روح التضحية والشجاعة التي أبداها صاحب الزنج ورجاله وحماستهم وتصميمهم على التخلص من أوضاعهم السيئة.

٦- وهنا ينطبق القول السائر «أهل مكة أدرى بشعابها» فالزنج يحاربون على أرض يعرفون سهولها ووديانها، وانهارها وجداولها وقنواتها ومستنقعاتها، فمكنتهم هذه الطبيعة من نصب الكمائن بسهولة، وخلقت صعوبة أمام المهاجمين الذين كانوا يعجزون

عن ملاحقة الزنج احياناً وسط هذه المستنقعات.

٧- مناعة مدينة المختارة عاصمة الثورة، إذ كانت محصنة تحصيناً قوياً بالاضافة الى احاطتها بالأنهار والخنادق والأسوار مع توفر سبل الحياة وسهولة الاتصالات في داخلها.

ظروف فشل الثورة

١- عدم وجود برنامج واضح لحركة الزنج يعمل اتباعها على نشره أو الدفاع عنه، اللهم الا ماجاء في خطب زعيم الثورة الذي ركز في أقواله على تخليص الزنج من أوضاعهم السيئة، ويريد أن يرفع من أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ولكن ليس هناك برنامج ينظم العلاقة بين الزنوج وبعضهم البعض وبينهم وبين بقية أنصارهم.

٢- لم تنجح ثورة الزنج في استقطاب جماعات كثيرة حولها، ولذلك ظلت محدودة العدد غير متجددة، حتى الأعراب الذين استقطبتهم كانوا يهدفون من وراء انضمامهم الى ثورة الزنج الى مكاسب مادية واستفاد منهم الزنج في مدهم لهم بالمؤن والدواب، كذلك فإن عناصر زنجية كثيرة في بغداد وغيرها لم تنضم للثورة.

٣- عدم تعاون الزنج مع غيرهم من المعارضين للخلافة مثل الحركة الصفارية والزيدية والخوارج في الموصل، بل العكس هو الذي حدث إذ اتهمهم الصفاريون بالكفر.

٤- قيادة الموفق الحرب ضدهم أثار الرعب في نفوسهم لما عرف عنه من شجاعة وجسارة وحسن سياسة وتدبر، وكان يحاربهم بنفس أساليبهم، إذ أقام الكثير من الكمائن وبث عيونه في ربوعهم فكانوا يزودونه بكل ما يحتاج اليه من أخبار.

٥- نجح الموفق في ضرب حصار شامل على منطقة الزنج، الأمر الذي منع وصول

الامدادات اليهم، بالاضافة الى تمكنه من حرق بيادر هائلة للزنج، الأمر الذي فت في عضدهم إذ يذكر الطبري «وكان احراق ذلك من أقوى الأشياء التي ساعدت ادخال الضعف على الفاسق وأصحابه، إذ لم يكن لهم معول في قوتهم غيره.»

٤ - الأوضاع المالية

إن الدارس للظواهر السابقة لابد وأن يتوقع أن تكون الأوضاع المالية ليست أحسن حظاً من سابقتها، فقد تأثرت هي الأخرى بالأحداث والظروف التي عاشتها الدولة، ولم تعد ميزانيتها مستقرة أو منتظمة أو حتى كافية وذلك لتوفر الظروف التالية :

١- الحروب والفتن الأهلية :

تفجرت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون ابناء الخليفة هارون الرشيد فتكبدت الدولة خسائر فادحة بسبب النفقات الهائلة التي دفعت لتجهيز الجيوش لكلا الطرفين، هذا بالاضافة الى تعطيل الطاقة الانتاجية في مختلف الميادين حيث شغلت الأيدي العاملة في هذه الأحداث وكذلك أحداث الفتن المحلية الأخرى كثورة الزنج وثورة بابك الخرمي وحركة المازيار بن قارن وتحركات الخوارج.

٢- لم يعد ارسال الأموال الى خزانة الدولة منتظماً بسبب الحركات الانفصالية في كثير من مناطق الدولة حيث أصبحت هذه المناطق تمتص الكثير من الأموال لمصالحها الداخلية، ولا ترسل إلا جزءاً من فائضها، هذا اذا كانت هذه المنطقة أو تلك لازالت تحافظ على علاقتها بالخلافة، أما بالنسبة لبعض المناطق التي استقلت فعلاً ولا يربطها بالخلافة رابطة فقد امتنعت عن ارسال الاموال نهائياً الأمر الذي أثر على مستوى دخل الدولة ومصروفاتها.

٣- المصروفات والهدايا والهبات التي كان يدفعها الخلفاء كانت كثيرة ومكلفة، فالخليفة المعتصم مثلاً يكثر من الأتراك وينفق على شرائهم الأموال الطائلة «وألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية،[٣١] وبنى لهم مدينة سامراء التي ضاهت بغداد في

فخامتها واتساعها، فدفعت الدولة في ذلك الكثير من الأموال، أما عن المتوكل فيذكر المسعودي «لم تكن النفقات في عصر من العصور ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل، ويقال أنه أنفق على قصوره - الجوسق والهاروني والجعفري - أكثر من مائة ألف ألف درهم، هذا مع كثرة الموالي والجند، وإدرار العطاء لهم، وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات ولايعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل الا وقد حظي في دولته وسعد بأيامه ووصل اليه نصيب وافر من ماله.»(٣٢)

٤- تعرض خزانة الدولة للسلب والنهب والابتزاز من قبل الأمراء والقادة الذين تسلطوا على الدولة، ففي عهد الخليفة المستعين مثلاً أخذ القائد شاهك الخادم والقائد أتامش ما في خزانة الدولة من أموال، حتى أن الجند عندما طالبوه برواتبهم لم يجد ما يقدمه لهم غير التراب إذ صرخ فيهم أحد رجالات القصر من الأتراك واسمه وصيف «خذوا تراباً وهل عندنا مال»(٣٣) وكذلك الحال مع الخليفة المعتز الذي اعتذر للأتراك عن دفع المرتبات قائلاً : «ليس في الخزائن شيء».

٥- [illegible]ن مظاهر عدم الاستقرار المالي في هذه الفترة اتساع نطاق التقبل أو الضمان - [illegible]لتزام - رغم معارضة الفقهاء له لتناقضه ومبادئ الشريعة الاسلامية، وحمل عليه ابو [illegible] بشدة لأنه يؤدي الى ظلم الفلاحين، وعندما سيطر الأتراك على الدولة أصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا مبلغاً من المال الى خزانة الدولة.

هذه صورة سريعة لأهم الظروف والعوامل التي أدت الى اضطراب الأوضاع المالية وافتقار خزانة الدولة لدرجة باتت معها عاجزة عن سد نفقاتها في مختلف الميادين، الأمر الذي دفعها الى البحث عن الأموال بمختلف الوسائل وربما اسهلها، فلجأت الى مصادرة الأموال والممتلكات الخاصة ببعض رجالات الدولة البارزين ممن اتهموا بالاثراء غير المشروع عن طريق استغلال مراكزهم، أو توجيه تهمة للبعض منهم ومصادرته رغم احتمال براءته. وفي هذا المجال صادر الخليفة المعتصم وزيره الفضل بن مروان الذي أخذ منه ما يقرب من الف الف دينار، وأخذ أثاثاً وآنية بنفس المقدار(٣٤)، أما الخليفة الواثق فقد صادر كتابه أحمد بن المدبر، وإحمد بن اسرائيل كما صادر سليمان بن وهب كاتب القائد التركي ايتاخ الذي دفع اربعمائة الف دينار(٣٥)، أما الخليفة المتوكل فقد بدأ عهده بمصادرة وزيره محمد بن عبدالملك. وفي هذه المناسبة يذكر المسعودي «.... وقبض أمواله وجميع ما كان له سواء

في بغداد أو سامراء.»[٣٦] وقد ذكر الطبري هذه الحادثة «.... ووجه راشداً المغربي الى بغداد في قبض ما هناك من أموال وخدم، وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه وضياع أهل بيته، حيث كانت، فأما ما كان بسامراء فحمل الى خزائن مرو ... وكان جميع ما قبض له من قيمة تسعين الف دينار، كذلك غضب المتوكل على عمر بن فرج فصادر أمواله وضياعه ومتاعه وعذبه وسجنه واضطهد أسرته، ثم صالحه على عشرة ملايين درهم مقابل رد ضياع الأهواز فقط دون سائر الأموال والضياع فوافق عمر بن فرج حتى يتخلص من السجن[٣٨]. هذا وقد صادر المتوكل الكثير من الوزراء والكتاب أمثال ابو الوزير الذي أخذ منه حوالي مائتي الف دينار[٣٩] وكذلك اولاد أحمد بن ابي داود، كذلك صادر طبيبه بختشيشوع وسجنه[٤٠]، وفي أيام المعتز كبس الاتراك الوزير احمد بن اسرائيل وأخذوا أمواله. هذا وقد صادر الموفق سليمان بن وهب وابنه عبدالله وأخذ ماليهما من عقارات ثم صالحهما على مبلغ تسعمائة الف دينار .. وهكذا.

وخلاصة القول أن المصادرة عمت الوزراء والكتاب والعمال حتى أن الدولة أنشأت ديواناً خاصاً سمته ديوان المصادرة، ومن الجدير بالذكر أن المصادرات تدل دلالة واضحة على ما وصلت الأحوال من فساد في ادارة الدولة، فانتشرت الرشوة، وعمت الفوضى مؤسسات الدولة ووصل الى المراكز العليا من لا يستحقونها، وانعدمت الثقة بين الدولة وكبار موظفيها الذين أصبحوا يخشون ما يخبئه لهم الغد، فارتبكوا في تصرفاتهم وشكوا في كل من حولهم حتى أن رأس الدولة لم يجد من وسيلة لاسترداد أموال الدولة الا بالمصادرة أو الحبس أو التعذيب ودلت الأحداث السابقة أن المصادرات أحياناً لم تكن جزاءً لخيانة، وإنما كانت غرضاً لذاتها أي طريقة للحصول على الأموال من الأثرياء وكبار رجال الدولة، والى جانب ما في هذه الممارسات من ظلم وطغيان، فإنه يدل على مدى الارتباك والقلق المالي الذي وقعت فيه الدولة التي لم تعد قادرة على مواجهة الثورات والفتن التي تفجرت في ربوع البلاد وهددت كيان الدولة وأطاحت بهيبتها في كثير من المناطق.

الحواشي

١- J. J Saunders : A history of medieval Islam p 120 London 1955

٢- 106 - 142

٣- السيوطي: الخلفاء ص ٢٤٠ ط ١٣٧١-١٩٥٢

٤- اليعقوبي: تاريخه ٢/٤٩١ ط دار صادر بيروت

٥- الطبري: تاريخ الرسل ١٢/١٤٣٥ دار الفكر ١٣٩٩ + ط بيروت

المسعودي: مروج الذهب ٤/١١٥ ط ١٣٧٧

٦- Saunders p 107

٧- السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٥٧

٨- ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٧/٣٨-٣٩ بيروت ١٩٦٥

٩- السيوطي: مرجع سابق ص ٣٥٦

١٠- ابن الاثير: مرجع سابق ٧/٤٤

١١- الريس: الخراج ص ٤٧١

١٢- ابن الاثير: مرجع سابق ٧/٦٨-٧٠

السيوطي: مرجع سابق ٣٥٩

١٣- المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٣٦٦ ط بيروت ١٩٦٥

١٤- الطبري : مرجع سابق ١١/١٩٤

١٥- نفس المصدر: ص ٢٠٣-٢١٠ وانظر Saunders p. 120-121

١٦- احمد علبي: ثورة الزنج ص ٧٩

١٧- الطبري: مصدر سابق ١١/١٧٦

١٨- نفس المصدر: ص ١٧٧

١٩- احمد علبي: ثورة الزنج ص ١٨

٢٠- السيوطي: مصدر سابق ٣٦٣

٢١- الطبري: مصدر سابق ١١/١٧٦-١٧٧

٢٢- الطبري: مصدر سابق ١١/٢١٣

ابن الاثير: الكامل ٧/٢٣٦

٢٣- نفس المصدر ٢٣٧

٢٤- نفس المصدر ٢٤٥ - الطبري: مصدر سابق ١١/٢٢٢

٢٥- ابن الاثير: مصدر سابق ص ٢٥٢

٢٦- الطبري: مصدر سابق ص ٢٦٠-٢٦١

٢٧- نفس المصدر ٢٧٥-٢٧٦

٢٨- نفس المصدر ص ٢٧٦

٢٩- نفس المصدر ٢٨٤-٢٨٥

٣٠- نفس المصدر ٢٩٢-٢٩٣

٣١- المسعودي: مروج الذهب ٢/٣٤٦

٣٢- نفس المصدر ٣٩٤

٣٣- الطبري: مصدر سابق ١١/١٥٤ - الريس: نفس المصدر ٤٧٢-٤٧٥

٣٤- الريس: نفس المصدر ٤٥٦-٤٥٧

٣٥- نفس المصدر ٤٥٩

٣٦- المسعودي: مروج الذهب ٤/٨٨

٣٧- الطبري: ٧/٣٤٥-٣٤٦

٣٨- نفس المصدر ص ٣٤٧

٣٩- الريس: نفس المصدر ٤٦١

٤٠- الطبري: نفس المصدر ١١/٣٥٦

* بصفة عامة أنظر احمد علبي: ثورة الزنج.

الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩هـ

تعرضنا في الفصل السابق لأهم مظاهر ضعف الخلافة العباسية والتي ساعدت بالتالي على تهيئة الظروف لحكام الاقاليم أو امراء المناطق لاعلان استقلالهم وانفصالهم عن الخلافة العباسية في مشرق العالم الاسلامي ومغربه، ويهمنا في هذه الدراسة تلك الدويلات التي قامت في منطقة المشرق الاسلامي، ويأتي في مقدمتها الدولة الطاهرية.

صعود الاسرة الطاهرية

بدأ نجم الاسرة الطاهرية في الظهور على مسرح الاحداث السياسية في منطقة المشرق الاسلامي منذ الأيام الأولى لبداية الدعوة العباسية، حيث التحقوا بها وشاركوا في انجاحها[١]. فطلحة بن زريق كان على قمة التنظيم العباسي في خراسان، إذ أنه تولى مكاتبة امام الدعوة العباسية في مقره السري في بلدة الحميمه، وكان يقوم بقراءة كتب الامام الى رجال الدعوة في خراسان، أما أخوه مصعب بن زريق جد طاهر فقد عمل كاتباً لسليمان بن كثير كبير الدعاة[٢] في خراسان، ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بشخصية قوية، ويغلب عليهما الرزانة والهدوء والتعقل، لكن طموحاتهم كانت كبيرة ومع ذلك فلم يزجوا بأنفسهم في ذلك الصراع الذي تفجر بين سليمان بن كثير وابومسلم الخراساني، بل عملا ما في وسعهما على اصلاح ذات البين بين الفريقين المتصارعين حرصاً منهما على الاحتفاظ بوحدة التنظيم الخاص بالدعوة خاصة وانها كانت لاتزال في مرحلتها السرية، وقد ظلا على هذا الموقف المتزن حتى بعد نجاح الثورة العباسية، حيث اسند لهما ابومسلم ولاية هراة وبوشنج[٣].

أما عن نسب الطاهريين فالآراء مختلفة حول هذه القضية فمؤرخو الفرس يرون أن نسب هذه الأسرة يعود الى ملوك الفرس القدامى، كذلك حاول المؤرخون الأفغان أن يرجعوه الى النسب الافغاني، وعلى العموم فالقضية الواضحة في هذا الأمر أن الطاهريين كانوا فرساً بغض النظر عما اذا كانوا ايرانيين أو افغان[٤]، وقد سميت الدولة بهذا الاسم نسبة

الى مؤسسها طاهر بن الحسين الذي ولد في مدينة بوشنج عام ١٥٩هـ / ٧٧٥م احدى مدن خراسان، وكانت تحت حكم الطاهريين إذ تولاها طلحة بن زريق نيابة عن ابي مسلم، وظل يحكمها بعد مقتله عام ١٣٦هـ كما تولاها ايضاً الحسين بن مصعب والد طاهر كنائب عن المأمون أثناء فترة امارته على خراسان(٥)، وقد شب طاهر في أسرة تمرست في شئون الحكم والادارة وأخذت شخصيته في الظهور تدريجياً، ففي أثناء فترة ولاية علي بن عيسى على خراسان كان طاهر من المعارضين له بسبب سياسته التي تتسم بالظلم والقسوة، الأمر الذي دفع علي بن عيسى على نفي طاهر الى سارية(٦)، وقد بدأت شخصية طاهر في الظهور بشكل واضح أثناء الحرب التي اندلعت بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون، فقد استدعى المأمون طاهر بن الحسين وكان ينوب عنه في مدينة الري وكلفه بقيادة قواته المتوجهة غرباً ضد أخيه الأمين(٧)، وفي نفس الوقت كان الخليفة الأمين قد أسند قيادة قواته الى علي بن عيسى، ولكن شتان ما بين القيادتين فعلي بن عيسى كان مكروهاً من أهالي خراسان منذ ولايته عليهم أيام الخليفة هارون الرشيد، وكان مجرد ذكر اسمه يدفع الأهالي هناك أن يقفوا ضده وقفة رجل واحد حتى يمنعوه من العودة الى خراسان ثانية فيعيد ممارساته التي كانت تتسم بالظلم والعدوان، هذا بالاضافة الى أن ابن عيسى هذا قد استهان بعدوه وأظهر عدم المبالاة لدرجة انه رفض ارسال من يستكشف له امر قوات طاهر، وعلى الجانب الآخر فإن طاهر يتخذ من مدينة الري قاعدة له لينطلق منها، وكان طاهر معروفاً بحذره وحرصه فأخذ يعد للأمر عدته، وأقام التحصينات، ووضع دراسة شاملة للموقف، وفرض ترتيبات أمنية مشددة على القادمين من بغداد حتى لا تتسرب عن جيشه أية معلومات، بالاضافة الى أنه أرسل العيون الى قلب معسكرات عدوه، واتصل ببعض قيادات علي بن عيسى واستمالها ولزيادة ارباك العدو كان يرسل الرسل الى علي بن عيسى ومعهم نسخة البيعة التي تركها الخليفة هارون الرشيد لأبنائه حتى يذكره بحق المأمون وعندما كانت قوات الطرفين تلتقيان في ميدان المعركة كان رجال طاهر يرفعون نسخة البيعة على رؤوس الرماح حتى يوعزوا لأصحاب الأمين بأن صاحبهم قد نقض العهد وخالف الوصية، وكأنهم يريدون أن يقولوا لهم اننا وإياكم يجب أن نعود الى نص البيعة وكان الهدف من هذا التكتيك الايحاء لرجال الأمين بأنهم يقفون الى جانب الظلم، كذلك أظهر طاهر حنكة ودراية عسكرية عندما اختار مكان المعركة على مسافة ليست بعيدة عن الري. وقد أسفر اللقاء عن هزيمة جيش الأمين ومقتل قائده علي بن عيسى(٨)، فأرسل طاهر الى المأمون يبشره بالنصر قائلاً

«أطال الله بقاك، وكبت أعداك، وجعل من يشنأك فداك، اكتب اليك ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في اصبعي والحمد لله رب العالمين.»[٩] ولقد سر المأمون بهذا النصر، وأرسل لقائده طاهر امدادات جديدة وكذلك الخلع ولقبه بلقب «صاحب خيل الدين».

أما الأمين فقد أرسل رسالة تهديد ووعيد لطاهر بن الحسين، لكن هذا لم يأبه برسالة الخليفة[١٠]، وواصل تقدمه غرباً صوب بغداد، حيث قسم قواته قسمين أحدهما تحت قيادته والآخر بقيادة هرثمة بن أعين[١١]. التقى طاهر بقوات الأمين مرة أخرى بقيادة عبدالرحمن بن جبلة الانصاري، فاستسلم عبدالرحمن واندفعت قوات طاهر ودخلت الأهواز[١٢]، وفشلت قوات الأمين للمرة الثالثة ليصبح طاهر بعدها على مشارف بغداد.

وقد ترتب على هذه الانتصارات أن انهارت معنويات رجالات الخليفة الأمين وولاته على الأقاليم فأخذوا يعلنون انضمامهم لطاهر بن الحسين الواحد تلو الآخر، فانضمت البصرة والكوفة وكذلك الموصل، وبدوره قام طاهر بارسال عمال الى مكة والمدينة يدعون الى المأمون. واصلت قوات طاهر وهرثمة زحفهما نحو بغداد وضربت حولها حصاراً شديداً وضربوها بالمجانيق ومنعوا عنها الامدادات حتى ضاق الأهالي ذرعاً من هذه الحالة، وفي هذه الظروف أخذ طاهر يتصل ببعض قادة الأمين ويغريهم بالانضمام اليه فلجأ اليه نفر منهم، وعندما اشتد الحصار على بغداد بدأت اتصالات بين الخليفة الأمين وطاهر الحسين[١٣]، ويذكر أن الخليفة طلب الأمان لنفسه[١٤] في رسالة لطاهر ذكر فيها «....أما بعد، فإنك عبد مأمور تنصحت فنصحت .... وقد رأيت الصلاح فيّ ... فأعطني الأمان على نفسي وولدي وأمي وجدتي وخدمي وحاشيتي وأنصاري وأعواني حتى أخرج اليك واتبرأ من هذا الأمر الى أخي ....»

وعلى ما يبدو فإن رسالة الأمين لم تجد قبولاً لدى طاهر ورفض اعطاء الأمان الا بعد تسليم بغداد[١٥]. وبسبب هذا الرفض توجه الخليفة الأمين الى هرثمة ابن أعين الذي وافق على اعطائه الأمان على أن يسلم نفسه، لكن عيون طاهر علمت بما دار بين الخليفة الأمين وبين هرثمة بن أعين، فقرر طاهر ابطال الخطة[١٦]، وأرسل الى هرثمة بن أعين يلومه ويقرعه على هذا التجاوز بعد أن وضع كمائنه على الطريق التي سيتحرك عبرها الخليفة الأمين الذي

قبض عليه وقتل، ثم اقتحمت بغداد بشكل عام[١٧] ونادى طاهر في الناس انه من لزم بيته فهو آمن، ووضع بسوق الكرخ وقصر الوضاح جنداً على قدر حاجته.

اجتمع طاهر مع اعيان البيت العباسي وطلب منهم البيعة للمأمون فبايعوا.

وهنا نتوقف قليلاً لننظر مدى تحمل طاهر المسئولية في مقتل الأمين، إذ أن الروايات قد اختلفت حول هذه القضية فبعضها يحمل المسئولية على طاهر بن الحسين والبعض الآخر ينحى باللوم على سيده المأمون، وهنا يذكر المسعودي أن زبيدة عندما علمت بمقتل ولدها الأمين أمرت بثيابها فسودت .... ودعت بدواة وقرطاس فكتبت الى المأمون :

لخير امام قام من خير عنصـــر وأفضل راق فوق أعواد منبـــر
ودارس علم الاولين وفخرهـــم وللملك المأمون من أم جعفـــر

....

أصبت بأدنى الناس منك قـرابة ومن زال عن كبدي فقل تصبري
أتى طاهر لا طهر الله طاهـــراً فما طاهر في فعله بمطهـــر
فأبرزني مكشوفة الرأس حاسراً وأنهب أموالي وأحــرق أدوري
فإن كان ما أسدى لأمر أمرتـــه صبرت لأمر من قدير مقـــدر[١٨]

فلما قرأ المأمون شعرها بكى، ثم قال اللهم اني أقول كما قال أمير المؤمنين علي لما بلغه قتل عثمان .... «والله ما قتلت ولا أمرت ولا رضيت ... اللهم جلل قلب طاهر حزناً.

ولما لقيت زبيدة المأمون قالت له يا أمير المؤمنين، إن لكما يوماً تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله ... وفي رواية أخرى أن زبيدة قالت للمأمون عند دخوله بغداد :

«أهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة فلقد عوضت ابناً خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك .... وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما عوض ... وكان المأمون قد بذل غاية جهده في اكرام زبيدة وأسرتها ...[١٩]

وعلى كل حال فهذه مواقف تلقي بظلال الشك حول مسئولية المأمون عن مقتل أخيه الأمين، وإذا صدقت هذه الروايات فاعتقادي أن المأمون برئ من دم أخيه[٢٠]. من استعراضنا السابق اتضح لنا أن شخصية طاهر أخذت في الظهور بشكل واضح في عهد الخليفة المأمون الذي أحاطه برعايته وعنايته، الأمر الذي أثار حفيظة الفضل بن سهل الذي كان يعتبر الرجل الأول في بلاط المأمون[٢١] حتى أنه أظهر هذا الأمر لوالد طاهر وهو في مدينة مرو فقال له : «لقد تغير ابنك طاهر واغتر فنسي نفسه، فأجاب حسين والد طاهر «ايها الوزير إنني شيخ وعبد مطيع لهذه الدولة ... وولدي طاهر أكثر عبودية وطاعة مني ...» وقد نتج عن هذه الحساسية أن دبر الفضل أمر ابعاد طاهر عن بغداد، حيث أقنع الخليفة المأمون بأن طاهر هو خير من يقوم باخماد ثورة نصر بن شبث العقيلي، وبذلك يضمن الفضل ابعاد طاهر عن بغداد، وتم تكليف طاهر فعلاً، وأوعز الفضل للخليفة بتعيين أخيه الحسن على ولاية بغداد وعين فعلاً، ويبدو أن طاهر قد أدرك حقيقة ما دبر له، فلم يكن جاداً في قتال نصر وتقهقر بقواته نحو الرقة[٢٢] فأمر المأمون أن يحل عبدالله مكان أبيه في مواصلة ضرب ثورة نصر، وأعفي طاهر من هذه المهمة[٢٣].

ولاية طاهر بن الحسين على خراسان

اضطربت أمور بغداد في فترة تواجد الخليفة المأمون في مرو[٢٤]، إذ خلعه أهله وبايعوا خليفة آخر لأنهم سخطوا عليه بسبب اعطاءه ولاية العهد لأحد ابناء الاسرة العلوية بالاضافة الى تغييره للسواد شعار الأسرة العباسية بالخضرة شعار الاسرة العلوية. ولقد عجز الحسن بن سهل عن ضبط الامور في بغداد، فزادت الحالة سوءاً، ولم تكن أخبار بغداد تصل الى المأمون بسبب التعتيم المتعمد من قبل الفضل بن سهل الذي كان يتسلم الرسائل الواردة من بغداد، وكان الفضل يلجأ الى اخفاء الاخبار عن الخليفة ليحافظ على مركز أخيه الحسن في بغداد، لكن المأمون علم بما يدور في بغداد عن طريق ولي عهده العلوي على الرضا.

شعر المأمون بخطورة الموقف وقرر التحرك الى بغداد[٢٥] وفي هذه الأثناء أراد أن يطيب خاطر طاهر فأرسل اليه لمقابلته، ويعتبر هذا رد اعتبار لطاهر بن الحسين، وفعلاً دخل المأمون الى بغداد بعد أن تخلص من الفضل بن سهل وعلى الرضا، وكان استقبال أهل

بغداد وعلى رأسهم أبناء عمومته للخليفة استقبالاً رائعاً، وعاد الهدوء والأمن والطمأنينة الى ربوع البلاد بفضل الترتيبات التي اتخذها الخليفة المأمون.

أما منطقة خراسان فقد تجددت فيها الاضطرابات فوالي خراسان أنذاك غسان بن عياد أظهر التمرد[٢٦] خاصة وانه كان على صلة بالفضل بن سهل، كذلك تفجرت ثورة بابك الخرمي في عام ٢٠١هـ / ٨١٦م، وكانت من القوة بحيث أقضت مضاجع المأمون، وقد صادف في هذه الفترة تحرك للعلويين في منطقة قزوين.

أمام هذه الأوضاع المتردية في المشرق كان على المأمون أن يتصرف بشجاعة وحكمة، فإذا علمنا أن ثقة المأمون في طاهر بن الحسين كانت كبيرة نظراً لمقدرته وكفاءته وخبرته في منطقة المشرق فقد أسند اليه الخليفة ولاية المنطقة[٢٧]، كما أسند الى ابنه عبدالله قيادة الحملة العسكرية ضد ثورة نصر التي أشرنا اليها، وكذلك أسند اليه شرطة بغداد، وعندما كلف عبدالله بالقضاء على الفتنة في مصر أسندت شرطة بغداد الى اسحق بن ابراهيم الطاهري[٢٨]، معنى هذا أن الاسرة الطاهرية وصلت الى مركز مرموق في بلاط الخلافة.

ظل طاهر والياً على خراسان حتى وفاته عام ٢٠٧هـ / ٨٢٢م وتذكر بعض الروايات أن وفاة طاهر حدثت مباشرة بعد خطبة ألقاها دون أن يذكر اسم الخليفة المأمون[٢٩]، الأمر الذي حدى ببعض المؤرخين أن يشير بأصابع الاتهام الى الخلافة، لكن هذه الرواية ضعيفة بدليل أن المأمون ظل على علاقة وطيدة ببقية أفراد الاسرة[٣٠] التي ما كانت لتطمع في أن تصل الى مركز أعلى مما وصلت اليه في عهد المأمون، وهذا رد على من يحاول القول بأن طاهر ربما اسقط اسم الخليفة عن قصد.

ومن ناحية أخرى فما دامت الوفاة قد حدثت في اليوم التالي لخطبة الجمعة فما هي نوعية الاتصالات التي تمت بين المأمون ورجاله في خراسان وهل كانت سريعة الى هذا الحد حتى يتلقوا أمراً بالتخلص من طاهر لو صدقت الرواية ؟ الحقيقة أن أمراً كهذا يصعب الأخذ به أو تصديقه نظراً لبعد المسافة بين بغداد ونيسابور مقر الأسرة الطاهرية.

عهد المأمون بولاية خراسان الى طلحة بن طاهر[٣٢] بعد وفاة والده، وقد بذل طلحة

مجهودات واضحة لاقرار الأمور في خراسان، وخاض حرباً شرسة ضد الخوارج في هذه المنطقة وقتل زعيمهم حمزة الخارجي في عام ٢١٣هـ وهو نفس العام الذي توفي فيه الامير طلحة حاكم الدولة الطاهرية[٣٣].

وعندما علم الخليفة المأمون بوفاة طلحة أعطى خراسان لأخيه عبدالله بن طاهر[٣٤] الذي كان منشغلاً إذاك في حرب ضد ثورة بابك[٣٥]، وظل عبدالله والياً على خراسان حتى وفاته عام ٢٣٠هـ* فأصدر الخليفة الواثق أمراً بتعيين إبنه طاهر على ولاية خراسان وكان يكنى بأبي الطيب، وقد استمرت ولاية طاهر فترة طويلة نسبياً حيث توفي عام ٢٤٨هـ فأعطى الخليفة المستعين ولاية خراسان لابنه محمد. وتذكر بعض المصادر أن محمداً هذا كان غافلاً لايقدر العواقب[٣٦]، فانصرف الى الشراب واللهو حتى أن طبرستان ثارت عليه بسبب تصرفاته وخرج عليه الحسن بن زيد عام ٢٥١هـ، وكان سليمان بن عبدالله بن طاهر والياً على طبرستان في هذه الفترة، فحاربه الحسن وهزمه ودخل الى طبرستان.

أما بالنسبة لخراسان فقد ظلت تحت حكم الاسرة الطاهرية، وكان آخر حكامهم هو الأمير محمد بن طاهر، ويبدو أن انقساماً قد وقع بين محمد وأقاربه، الأمر الذي دفعهم الى الاستعانة بيعقوب بن ليث وجرأوه على الدخول الى العاصمة نيسابور في عام ٢٥٩هـ فانتهت الدولة الطاهرية بعد أن سقطت عاصمتها في يد الصفاريين.

الطاهريون وعلاقتهم بالخلافة

قدم الطاهريون خدمات جليلة للخلافة العباسية في شتى الميادين العسكرية منها والمدنية، فبادلتهم الخلافة ذلك وأسندت اليهم مناصب هامة فقاموا بواجبهم على مايرام.

أسند الخليفة المأمون مهمة مواصلة القضاء على ثورة نصر بن شبث العقيلي[٣٧] الى عبدالله بن طاهر كما سبق وأن أشرنا، وقد نجح عبدالله في تحقيق انتصارات طيبة في هذه الجبهة، وقد أثلجت هذه الانتصارات صدر والده الذي أرسل اليه رسالة يحثه فيها على مواصلة العمل لخدمة الخلافة ونشر العدل واقامة الدين[٣٨] وجاء فيها :

«.... فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له ... فإن الله قد أحسن اليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم[٣٩]، والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم ... والحقن لدمائهم والأمن لسبيلهم وإدخال الراحة عليهم ... وليكن أول ماتلزم لنفسك ... المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس ... ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لاتثمر، وإذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم نمت[٤٠] ... وجاء فيها ايضاً :

«ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ... وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه .. وإذا عاهدت عهداً ففي به.»

لله در طاهر بن الحسين فقد جاءت رسالته جامعة[٤١] مانعة وهي في الحقيقة غنية عن التعليق، ويكفي رأي الخليفة المأمون في هذه الرسالة إذ علق عليها قائلاً : «مابقّى أبوالطيب - يعني طاهر بن الحسين - شيئاً من أمور الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه وأوصى به.»

واصل عبدالله بن طاهر محاولاته للقضاء على ثورة نصر التي أقضت مضاجع الخلافة وأرهقتها وهزت مكانتها لهذا لم تتردد الخلافة في ارسال[٤٢] المدد تلو الآخر، إلا أن نصر كان يواجهها بقوة وجسارة، ومن الأمور التي كانت تؤرق الخلافة في هذه الأحداث هو خوفها من انضمام القبائل العربية في بلاد الشام الى ثورة نصر فيزداد أنصاره وتتسع هوة الخلاف لتصبح دائرة الصراع تتخذ طابعاً اقليمياً مابين العراق والشام.

وبسبب مواصلة القتال شعر نصر بضعف موقفه وأنه لايستطيع أن يواصل، فطلب الأمان له ولمن معه[٤٣] ويبدو أن الخلافة هي الأخرى كانت قد تعبت وأرهقت فوافقت على اعطائه الامان[٤٤]، وجاء في رسالة وصلت الى نصر بن شبث «... فإن كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين ... وإن كنت للدنيا تقصد فاعلم أمير المؤمنين غايتك فيها ... فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك.»[٤٥] وهكذا أجهض الطاهريون ثورة أخافت الخلافة وأفزعتها[٤٦].

كذلك أسند الخليفة المأمون الى عبدالله بن طاهر مهمة القضاء على الثورة التي تفجرت في مصر عام ٢١١هـ[٤٧] / ٨٢٦م، توجه عبدالله على رأس قواته الى مصر، وعندما وصل الى هناك كتب الى عبدالله بن السري رسالة يطلب فيها انهاء التمرد، ولكن ابن السري لم يستجب لطلب المأمون، وإنما حاول أن يقدم له رشوة علّه يكسبه الى جانبه[٤٨]، وكانت مكونة من الف وصيف ووصيفة ومع كل واحد منهم الف دينار وسيرهم ليلاً، فردهم ابن طاهر وكتب اليه «لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً بل أنتم بهديتكم تفرحون[٤٩]، ارجع اليهم فلنأتيهنم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.» ضرب عبدالله بن طاهر حصاراً شديداً على مدينة الفسطاط وقد تحسن موقفه عندما وصلته إمدادات جديدة من بغداد، بالاضافة الى انضمام علي بن عبدالعزيز الجروي الذي كان منافساً لابن السري في مصر، وعندما طال الحصار وشعر ابن السري ورجاله بالضيق والقلق طلبوا الأمان لأنفسهم، فأمنهم عبدالله بن طاهر[٥٠].

كان من الطبيعي أن تكسب هذه الانتصارات عبدالله بن طاهر مكانة عالية في بلاط المأمون، وقد كان هذا مدعاة لتدخل بعض الوشاة الذين حاولوا تحريض الخليفة ضد عبدالله بن طاهر وأوعزوا اليه بضرورة اختبار مدى إخلاصه وولائه للدولة، ورغم ثقة المأمون في قائده إلا أنه أراد أن يقطع الشك باليقين، فأرسل الى مصر جماعة لايشك عبدالله بن طاهر في نواياهم ولمحوا له امكانية الانفصال عن الخلافة وأن لديه الامكانات التي تمكنه من ذلك، إلا أن ابن طاهر رد عليهم بصوت عال أنه يرفض هذا الأمر وأنه لن يخون اليد التي أنعمت عليه وطلب منهم عدم تكرار هذا الحديث أمامه.

علم المأمون بحقيقة الأمر فزاد تقديره واعجابه بهذا القائد[٥١]، وأظهر ذلك عبر رسالة كتبها وزير المأمون الى عبدالله جاء فيها :

«فإنا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك، حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان ومواضعهما، ولانعلم سائس جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد المقدرة عمن أسفه وأصنعته عفوك ...»

ولكي يدلل على هذه الثقة بصفة عملية أسند الخليفة ولاية مصر الى عبدالله بن طاهر ولاية عامة (أي له الصلاة والخراج) وبعد أن اطمأن عبدالله الى عودة الهدوء والطمأنينة الى مصر استأذن الخليفة في العودة الى بغداد، فأذن له، وكان في استقباله كبار رجال الاسرة العباسية وأعيان الدولة وعلى رأسهم العباس بن المأمون وأخوه المعتصم. هذا ومن الجدير بالذكر أن الطاهريين تبوأوا المناصب العالية فهاهم يتولون شرطة بغداد، حيث كان صاحب الشرطة ينوب عن الخليفة في حالة غيابه عن بغداد، فاسحق بن ابراهيم الطاهري ناب عن المأمون في بغداد عندما خرج الأخير لحرب الروم، وعند غياب الخليفة لاتقتصر مهام صاحب الشرطة على النظر في المظالم، وإنما يصبح مفوضاً من قبل الخليفة في مراقبة شئون الدولة، فقد قام اسحق وبأمر من الخليفة(٥٢) المأمون بامتحان العلماء والقضاة ومعاقبة من لم يقر منهم بالقول بخلق القرآن(٥٣)، هذا وقد زاد نفوذ الاسرة الطاهرية قوة في عهد الخليفة المعتصم الذي أقام في سامراء تاركاً بغداد للطاهريين كنواب عنه، وهنا يصبح الأمير الطاهري بمثابة الحاكم العسكري العام لبغداد نيابة عن الخليفة(٥٤)، ورغم ذلك فإن بعض المصادر تحاول أن تلقي ظلالاً من الشك حول علاقة الاسرة الطاهرية بالخلافة العباسية أثناء حكم المعتصم، وترجع أسباب ذلك الى حادثة جرت بين عبدالله بن طاهر والمعتصم قبل خلافته، إذ رغب المعتصم مقابلة أخيه المأمون لكن عبدالله بن طاهر الذي كان يلي الحجابه حاول منعه ووقعت بسبب ذلك مشادة بين الطرفين إلا أن الخليفة علم بما حدث وأصلح بينهما(٥٥)، ويبدو أن العلاقة ظلت بين الطرفين طيبة مبنية على التعاون والتعاضد فلا عجب إذن أن يعتبر الطاهريون أنفسهم «حراساً للمملكة»(٥٦) وهذا يظهر من خلال دورهم في الحرب الأهلية التي وقعت بين الأخوين المستعين والمعتز، إذ توقفتالحرب بفضل تدخلهم ونجاحهم في اقناع الخليفة المستعين(٥٧) أن يتخلى عن الملك لأخيه لأنهم اي الطاهريون ومن يقف الى جانبهم أدركوا بأن الأمور تسير في غير صالحهم وأن كفة الأتراك المساندين للمعتز أكثر رجحاناً.

يضاف الى ذلك أن الطاهريين ساعدوا الخلافة في القضاء على تمرد العلويين وثوراتهم، ففي عام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م ظهر يحيى بن عمر في الكوفة ووجد من يناصره هناك، فقام محمد بن عبدالله بارسال النجدة الى واليه على الكوفة حتى تمكن من هزيمة يحيى بن عمر ومقتله، وحملت رأسه الى الخليفة في بغداد(٥٨)، وفي عام ٢٥٣هـ / ٨٦٧م توفي محمد بن عبدالله بن طاهر، فآلت الامارة الى أخيه عبيدالله ويذكر أن الخليفة المعتز حزن حزناً شديداً

على وفاة محمد بن عبدالله، وعلى حد قول الخليفة أن الأتراك كانوا يخشون بأس الأمير الطاهري ويحرصون على ارضاء الخليفة خوفاً من نزوحه الى كنف الطاهريين في بغداد[٥٩].

إلا أن هذه الهيبة وذلك النفوذ أخذ في الأفول والضعف عندما ظهرت الاسرة الصفارية وقضت على نفوذ الطاهريين في المشرق كما أن نفوذهم في بغداد أخذ هو الآخر في الضعف والانهيار سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

دور الطاهريين في أحداث المشرق الاسلامي

ظهرت في المشرق الاسلامي مجموعة من الحركات الاستقلالية هددت سيادة الخلافة وهيبتها في تلك المناطق، مما دفع بالخلافة وابناء الاسرة الطاهرية أن يقفوا ضد هذه الحركات بالمرصاد والمطاردة وقد اعتمدت الخلافة على الطاهريين في تلك المناطق اعتماداً يكاد يكون كلياً.

وكانت أكثر هذه الحركات خطورة تلك التي قادها بابك الخرمي في منطقة اذربيجان[٦٠] عام ٢٠١هـ، وانتشرت أراءه في المناطق المجاورة لها، ومما زاد في خطورة هذه الحركة تلقيها المساعدات من العدو البيزنطي[٦١] الذي كان يعادي الخلافة[٦٢]، وفي أول الأمر أسند الخليفة المأمون محاربة بابك الى محمد بن حميد الطائي واستعرت بين الطرفين ست حروب طاحنة قتل خلالها محمد بن حميد فحزن عليه الخليفة المأمون وتعاظم أمر بابك. وهنا أسند الخليفة قيادة القوات الى عبدالله بن طاهر[٦٣] الذي أخذ بدوره يستعد للمواجهة، وسار على رأس قواته صوب اذربيجان حيث كان يمتنع بابك.

وقعت بين الطرفين صدامات متعددة، أجبر على أثرها بابك على التقهقر الى جبال اذربيجان[٦٤] وفي هذه الأثناء اضطر عبدالله بن طاهر الى العودة الى خراسان بعد أن استأذن الخليفة المأمون، فأذن له بسبب فتنة أثارها الخوراج في نيسابور وقتلهم للناس وسلبهم أموالهم[٦٥]. أخذ عبدالله في مطاردة الخوارج حتى قضى على فتنتهم في خراسان، وكان من ضمن العوامل التي شجعت على عودة عبدالله الى خراسان هو محاولة منع تسرب

آراء وأفكار بابك الى خراسان، وحتى لايفكر أحد في الانضمام اليه في تلك المنطقة، وقد نجح عبدالله في القضاء على مجمل الفتن والأحداث التي أربكت الأوضاع في خراسان، وقام بعزل نائبه على نيسابور لجشعه وسوء تصرفه(٦٦).

وبعد وفاة الخليفة المأمون وولاية المعتصم أسند هذا مهمة القضاء على ثورة بابك الى أحد ابناء الطاهريين وقد نجح هذا في هزيمة بابك هزيمة ساحقة حتى أطبق صيت هذا الأمير الآفاق(٦٧) نتيجة انتصاراته ومع ذلك فلم يتمكن من القضاء على ثورة بابك بشكل نهائي. لكن هذه الهزائم التي مني بها بابك كانت المقدمة الطبيعية للقضاء على ثورته على يد أحد القادة الأتراك وهو الافشين(٦٨).

وهناك ثورة أخرى تفجرت في طبرستان على يد المازيار بن قارن، وتذكر بعض المصادر أن المازيار قد ارتد عن الاسلام الى المزدكية وحمر اللباس. هذا ومن المعروف أن خراج طبرستان كان يدفع الى الدولة الطاهرية في خراسان(٦٩)، ومع ذلك كان المازيار يرفض ارسال الاموال الى عبدالله ويصر على ارسالها للخليفة المعتصم والخليفة نفسه يأمره بارسال الاموال الى عبدالله. والسبب في ذلك منافرة بين عبدالله والمازيار، وكان الخليفة يرسل من يستلم الخراج من أصحاب المازيار بهمذان ويسلمه الى وكيل عبدالله بن طاهر يرده الى خراسان، وكان هذا التصرف منعاً لتطور الموقف بين الطرفين.

لم يطل أمد الاستقرار بينهما إذ امتنع المازيار عن دفع الاموال للطاهريين وتمادى أكثر من ذلك فطلب من الطاهريين أن يعيدوا الأموال التي دفعت لهم وأن يقوموا بدورهم بدفع الخراج له. وكان هذا الموقف الجديد بمثابة تمرد يعلنه المازيار ليس ضد الطاهريين فقط ولكن أيضاً ضد الخلافة العباسية التي تقف وراء الطاهريين وتدعمهم.

وعلمت الخلافة بهذا التطور، فكتب المعتصم الى عبدالله بن طاهر يعبر له عن ثقته ويطلب منه تأديب المازيار(٧٠) والقضاء على تمرده، فأخذ عبدالله يعد العدة، وأرسل جيشاً بقيادة أحد أعمامه وجيشاً آخر بقيادة حيان بن جبله، وطلب عبدالله من أقاربه في بغداد وبالتنسيق مع الخلافة أن يرسلوا جيشاً ثالثاً، توجه الجميع الى حيث يتمركز المازيار الذي حوصر وهزم هزيمة مروعة وألقي عليه القبض في عام(٧١) ٢٢٧هـ، ويذكر أن المازيار اعترف لعبدالله

بن طاهر انه كان ينفذ مخططاً خطيراً اتفق عليه مع كل من بابك والأفشين للقضاء على الدولة العباسية[٧٢]، وكان على الافشين بموجب هذا الاتفاق قتل الخليفة المعتصم وأبناءه، وهناك معلومات عن كراهية الافشين للعرب وتحيزه للعجم[٧٣]، ونسب اليه أنه كان يقول، إذا ظفرت بالعرب شدخت رؤوس عظائمهم بالدبوس، وكان أصحابه وأهل ولايته (بلدته) من الفرس إذا بعثوا له رسالة كتبوا اليه «الى اله الآلهة» وهو لقب كان يفضله الافشين[٧٤]، كما أن هناك معلومات عن مراسلات بينه وبين المازيار وبابك، إذ كان المازيار يرسل الكتب لبابك ويعده بالنصر[٧٥]، ورغم هذه الوقائع إلا أننا نعتقد أن ماذكره بعض المؤرخين عن رغبة هؤلاء في اسقاط دولة العباسيين أمر مبالغ فيه، لأنه ليس لديهم تلك الامكانات المادية والمعنوية ما يمكنهم من تنفيذ مخططهم، كذلك فإن الخلافة كانت حتى هذه الفترة لاتزال قوية رغم كل ما مر من أزمات ومشاكل، وفي اعتقادي أن هؤلاء كانوا يتطلعون فقط الى الاستقلال بأنفسهم كل في منطقته كما هو الحال مع بعض حكام الاقاليم والأسر التي تمكنت من إقامة كيان لها.

وعلى العموم أرسل المازيار الى الخليفة المعتصم حيث اعترف ثانية بجريمته أمام الخليفة الذي أمر بدوره بالقاء القبض على الافشين وتم اعدامهما[٧٦]، وفي رواية أخرى يذكر كرديزي أن المعتصم حكم على المازيار خمسمائة جلدة فمات في نفس اليوم[٧٧]. وعادت طبرستان الى أحضان الدولة الطاهرية التي قامت بمجهودات واضحة في مجال الفتح والتوسع في بلاد الغز حيث فتحوا أماكن لم يبلغها أحداً قبلهم.

أما عن الوضع في بلاد ماوراء النهر[٧٨] فإن طاهر بن الحسين قد أسند ادارتها الى ابناء الاسرة السامانية[٧٩] بالاتفاق مع الخلافة حيث اعطى نوح بن أسد منطقة سمرقند، ثم تولى عليها نصر بن أحمد بن اسد[٨٠] وظلت بلاد ماوراء النهر تابعة للطاهريين حتى فصلها الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) ادارياً وأصبحت تحت حكم الاسرة السامانية رسمياً بدلاً من الطاهريين، ويبدو أن مشاغل الطاهريين في خراسان لم تجعلهم دائمي الاهتمام والمراقبة لهذا الاقليم، بالاضافة الى أن الاسرة الطاهرية أخذ يتسرب اليها الضعف فأرادت الخلافة أن تقيم أسرة قوية في تلك المنطقة لتتخذ منها خط رجعة ضد أي اعتداء على ممتلكات الخلافة في تلك المنطقة، خاصة وأن الصفاريين كانوا قد بدأوا في تكوين امارة لهم في سجستان.

وقبل أن نتم حديثنا عن نشاط الطاهريين لابد وأن نقر بأنهم تحملوا مسئولياتهم ايضاً في الدفاع عن المشرق الاسلامي، وخاصة في منطقة ثغر السند الذي كان عرضة لهجمات كان يشنها الامراء الهنود كلما اتيحت لهم الفرصة، ولكن عندما ضعفت الدولة الطاهرية تولى الصفاريون أمر الدفاع عن هذه المنطقة.(٨١)

لمحات حضارية

ضمت الدولة الطاهرية مساحات شاسعة من الأراضي، فالى جانب خراسان شملت بلاد ماوراء النهر واذربيجان وجرجان وطبرستان واقليم الجبال (عراق العجم) وفارس وكرمان وسجستان والاهواز، وكان حكم هذه الدولة وراثياً في ابناء الاسرة، وكان دور الخليفة في هذا الأمر قاصراً على ارسال تقليد الولاية مع خلعة وهدية وظل الأمر قائماً على هذا النحو حتى نهاية الدولة.

اتخذت الدولة من مدينة نيسابور عاصمة لها تركزت فيها المؤسسات والادارات الحكومية محلقة حول دار الامارة التي كانت سابقاً في مرو. وكان يعاون الامير الطاهري في ادارة دولته مجموعة من كبار الموظفين من ذوي الخبرة والكفاءة، ومن أبرزهم رئيس الحرس والحاجب وصاحب ديوان الخراج وصاحب ديوان التوقيع والخاتم والبريد، ومن الطبيعي أن يعاون كل موظف من هؤلاء مجموعة من الموظفين الآخرين الذين كانوا يتحملون مسئولية ادارة الاجهزة المختلفة، وكانت هناك وظائف أخرى يشغلها موظفون لهم مكانة مرموقة ولاسيما سلك القضاء والحسبة الى غير ذلك.

وكغيرها من الدول ضمت الدولة الطاهرية مجموعة من الاقاليم على رأس كل اقليم حاكم أو موظف يتبع مباشرة الامير الطاهري في العاصمة، وقد اعتاد الطاهريون على تولية عمال من أقاربهم أو ممن يثقون في ولائهم واخلاصهم، فهاهو طاهر بن الحسين يقول في هذه القضية : «لا تستعين بأحد في خاص عملك إلا من ترى أن نعمته تزول بزوالها وتدوم بدوامها لك» ورغم ذلك فقد كان حكام الدولة يحاسبون عمالهم ويتقصون أخبارهم ويحثونهم على اقامة العدل ونشر الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد، والدفاع عن أقاليمهم حيث كانت الدولة

تحتفظ بجيش ضخم في نيسابور يخضع لقيادة الامير الطاهري الذي كان يقود الحملات العسكرية الى مختلف الميادين.

ولابد أن نشير هنا الى أن أمراء الدولة كانوا يتشاورون مع الخلافة في بعض أمورهم ولاسيما تولية ولاة الاقاليم أو عمال المناطق، كما سبق وأن اشرنا الى تعيين ابناء الاسرة السامانية في بلاد ماوراء النهر كنواب عن الطاهريين(٨٢)، كذلك استأذن الطاهريون الخلافة عندما تحركت قواتهم ضد المازيار بن قارن والي طبرستان(٨٣) كما أشرنا، ولايفوتنا هنا أن نذكر أن أقاليم ومناطق الدولة كانت ترسل بخراجها السنوي الى خزانةالدولة في نيسابور وهذه بدورها كانت ترسل أموالاً سنوية الى بغداد تعبيراً عن حسن العلاقة والمودة التي تربط بين الاسرة الطاهرية والخلافة في بغداد.

الأوضاع الاقتصادية

إن الدارس لوضع المنطقة يدرك أن الدولة الطاهرية كانت مستقرة اقتصادياً حيث ضمت مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي تخترقها العديدمن الأنهار الضخمة كنهر جيحون ونهر سيحون ونهر هراة، ومعنى ذلك أن المياه متوفرة للزراعة بالاضافة الى مياه الأمطار. فعمل الأهالي في الزراعة وكانت مورداً هاماً من موارد دخلهم، فزرعوا الحبوب والخضر والفواكه بشكل يلفت النظر(٨٤)، وكان الفائض من هذه المنتجات يصدر الى مختلف البلدان الاسلامية، وقد اهتم امراء الدولة الطاهرية بأمور الزراعة حيث يذكر كرديزي «أن أهل نيسابور وخراسان يفدون على عبدالله بن طاهر باستمرار لخصومات بينهم بسبب مشاكل الري ... فجمع عبدالله فقهاء خراسان وآخرين من العراق ليؤلفوا كتاباً في أحكام القنوات، وسموا ذلك الكتاب «كتاب القني» وكان منظماً لسائر الأحكام التي ترد في ذلك الصدد ...»(٨٥)

ويستطرد كرديزي مظهراً مدى اهتمام الطاهريين بالفلاحين والمزارعين فيقول: «أن عبدالله بن طاهر كان يكتب الى عماله: إننا قد أخذنا عليكم العهد أن تستيقظوا من نومكم ... وتنشدوا إصلاح أنفسكم وتداروا كبراء ولاياتكم، وأن تعطوا القوت لمن أصبح من الزراع ضعيفاً، وتكونوا الى جانبه لأن الله تعالى جعل لنا الطعام على أيديهم وأجرى السلام على ألسنتهم وحرم أن يقع الجور عليهم»(٨٦)

وكان الأمر الطبيعي أن تكون هناك قوانين للدولة تنظم علاقة المزارعين بالدولة وعلاقة هذه بالأرض والاشراف عليها واستصلاحها والحث على زيادة الانتاج، فنمت الزراعة وازدهرت، ولم تحدثنا المصادر عن مجاعات قد وقعت في مجتمع الدولة، كما أنها لم تشر الى مصادرة أموال أو ممتلكات أي من الناس الذين شعروا بالأمن والطمأنينة وتحسنت أحوالهم المعيشية بشكل ملموس.

وقد ترتب على ازدهار الزراعة وانتعاشها أن تقدمت الصناعة ونمت وقطعت خطوات كبيرة، خاصة وأن هناك قطاعاً عريضاً من الصناعات تعتمد على مواد خام زراعية. ومن أهم الصناعات التي عرفت صناعة النسيج التي اعتمدت على زراعة القطن، فنسج الناس العديد من الأصناف التي عرفت في ذلك العصر كالكرباس - وهو نوع من نسيج القطن الخشن يشبه الدمور - وكان يحمل الى جميع الولايات كالعراق وفارس وكرمان والهند ويتخذ منه جميع العظماء والملوك ثياباً ويشترونه بثمن الديباج(٨٧) وقد اشتهرت مرو وطبرستان ونيسابور بصناعة النسيج بصفة عامة، وفي بخارى كانت تنسج البسط والوسائد وسجاجيد الصلاة والبرود الفندقية للخليفة، وكانت منسوجات بخارى تحمل الى الشام ومصر والروم(٨٨)، وعرفت مرو صناعة الألبان وتجفيف الفواكه، كما عرفت صناعة الحلوى المحشوة المصنوعة من عصارة التمر ورب العنب، كذلك عرفوا صناعة المعادن والأخشاب والأسلحة(٨٩)، وقد ترتب على ازدهار الزراعة وتقدم الصناعة نشاط واضح في حركة التجارة.

فيذكر النرشخي أن سوقاً يعقد في مدينة طوايس ويحضره أكثر من عشرة آلاف من التجار وأصحاب الحوائج من فرغانة والشاش وأماكن أخرى، ويعقد هذا السوق في فصل الخريف ولمدة عشرة أيام(٩٠)، ويذكر عن مدينة اسكجكت أن كل أهلها تجار(٩١)، ويقام بها سوق في كل خميس وفي مدينة زندنه وشرغ يعقد السوق في كل يوم جمعة، أما مدينة ورخشه فيعقد سوقها كل خمسة عشر يوماً مرة، وحين يكون السوق آخر العام يجعلونه عشرين يوماً ويحتفل الأهالي في نهايته بالنوروز، ويسمونه نوروز الفلاحين وهو قبل نوروز المجوس بخمسة أيام(٩٢).

هذا على سبيل المثال لا الحصر. ومعنى انعقاد الاسواق في مواسم مختلفة وفي أماكن متعددة متفرقة ومتباعدة أن حركة النقل والمواصلات كانت ميسرة، مما يدل على تعبيد الطاهريين للطرق والاهتمام بإقامة شبكة مواصلات برية ونهرية جيدة.

كذلك كانت التجارة الخارجية مزدهرة، فصدر الطاهريون الكثير من منتجاتهم سواء الزراعية أو الصناعية الى العديد من البلدان القريبة والبعيدة، كما استوردوا بعض ما يلزمهم وقد ساعدهم على ذلك سهولة الاتصالات البرية والبحرية والنهرية التي ازدادت حيويتها ونشاطها في ايام الاسرة الطاهرية[٩٣].

ومما يدل على مدى ماوصلت اليه الدولة الطاهرية من الثروة والغنى مايذكره المؤرخون في مواضع مختلفة من كتبهم، فالطبري يذكر أن مجموع خراج الولايات التابعة لعبدالله بن طاهر عام وفاته بلغ ثمانية واربعين مليوناً من الدراهم[٩٤]، ويذكر ابن خرداذبه[٩٥] أن عبدالله بن طاهر كان يدفع للخلافة أربعة واربعين مليوناً وثمانمائة وستة واربعين الف من الدراهم، هذا زيادة على ثلاثة عشر من الجياد والفي رأس من الغنم والفي رقيق من الغز قيمتها ستمائة الف درهم والف ومائة وسبعة وثمانين ثوباً، والف وثلاثمائة قطعة من الحديد[٩٦]، وفي مكان آخر تذكر بعض المصادر أن عبدالله بن طاهر قد التزم بدفع ثمانية وثلاثين مليوناً تشمل ثمن ما أرسل من الرقيق والغنم والثياب القطنية ومن الجلي أن ما يتبقى من العائد كان يتصرف فيه الطاهريون، ويجعل اليعقوبي خراج خراسان اربعين الفاً يضم اليها خمس الغنائم، وهذا كله كان يتمتع به الطاهريون وحدهم.

والى جانب هذا الدخل الوارد الى خزانة الطاهريين كان هؤلاء يتسلمون ثلاثة عشر مليوناً عدا ما كان يصل الى أيديهم من الهدايا والتحف[٩٧] ومن استقراء الأرقام السابقة في مختلف المصادر يتضح لنا أنها متقاربة الى حد ملموس وهي في نفس الوقت دليل واضح على مدى ما كانت تتمتع به الدولة الطاهرية من ثروة وغنى.

الحياة العلمية

ازدهرت الحياة العلمية تحت رعاية الاسرة الطاهرية في خراسان خاصة وأن مؤسس

هذه الاسرة عاش في كنف الخليفة المأمون الذي عرف بحبه للعلم والعلماء وشغفه بهم وتشجيعه لهم، وهو الذي كان يجالسهم ويناقشهم في مجالسه العلمية المتعددة ولاعجب اذا تشبه طاهر بن الحسين بسيده المأمون، فقد اهتم هو الآخر بالعلماء والأدباء فخلع عليهم وأهداهم، ويذكر ابن خلكان أنه كان يسامح بعض خصومه اذا اعجب بشعرهم[98] وقد عرف في ايامه الشاعر المشهور دعبل بن علي الخزاعي.

كذلك كان عبدالله بن طاهر مهتماً بأمور العلم والعلماء وكان هو نفسه شاعراً موهوباً يقرض الشعر ويكرم الشعراء وهو القائل :

أميل مع الذمام على ابن عمي وأحمل للصديق على الشقيق
وإن الفيتني ملكاً مطاعاً فإنك واجدي عبد الصديق
أفرق بين معروفي ومني وأجمع بين مالي والحقوق[99]

ويذكر ابن قتيبة أن عبدالله كان سخياً على الشعراء كريماً فاضلاً، فقد أعطى أحد الشعراء على سبيل الاهداء عشرين الف درهم[100]. ويذكر نظام الملك «أن عبدالله كان أميراً عادلاً ... دائم الاستعمال للاتقياء والزهاد ومن لم يكن لهم في عرض الدنيا حاجة، ومن لم يلهم من ذلك شيء وذلك حتى لايحصل من المال الى الحق ولا يتأذى الرعية فيؤاخذ بذلك»[101]. وهذا تكريم لهذه الفئة المثقفة المتعلمة من قبل أولي الأمر.

وقد اهتم عبدالله بنشر التعليم بين طبقات المجتمع دون تفرقة حيث يعبر عن فلسفته التعليمية بقوله المشهور «إن العلم ينبغي أن يعطى باستحقاق وبدون استحقاق لأن العلم أملك لنفسه من أن يقر مع غير المستحقين»[102]، ولهذا نجد أن أبناء أكثر الفلاحين فقراً في ذلك العهد كانوا يرتحلون الى المدن طلباً للعلم[103]، فهاهم أبناء الخرعوني من قرية خرعون من قرى سمرقند، بعث بهما أبوهما الى سمرقند عام ٢٣٣هـ وفي خلال أعوام ثلاثة تلقوا قدراً لابأس به من العلوم، وكانت أمهما تنفق عليهما من عملها في غزل الصوف[104].

ولم يكن عبدالله فريداً بين أبناء البيت الطاهري بل عرف غيره من ابناء هذا البيت ممن اهتموا بالتعليم وقرضوا الشعر[105]، فهاهو منصور بن طلحة حاكم خوارزم قد دون

بعض الرسائل الفلسفية وكان عبدالله يدعوه بحكيم آل طاهر ويفخر به(١٠٦).

وقد عاش في كنف الدولة الطاهرية العديد من علماء الفقه والحديث والنحو الطب والفنون والعلوم المختلفة، ومن أشهر أعلام الفقه ابن زاهويه ابو يعقوب اسحق بن محمد الحنظلي (١٦٦ – ٢٣٧هـ / ٧٨٢ – ٨٥٢م) وقال فيه الامام احمد بن حنبل «انه امام من ائمة المسلمين»، ومن علماء الفقه في الدولة الطاهرية ابو عبدالله محمد بن نصر المروزي ٢٣٢ – ٢٩٤هـ ويعتبره الشيرازي من أعلم الناس، ومن أعلام الحديث الذين رعتهم الاسرة الطاهرية السراج النيسابوري ٢١٨ – ٣١٣هـ وهو محمد بن اسحق بن ابراهيم روى عنه البخاري ومسلم واتفقوا على صدقه وفضله، وقد صنف كتباً كثيرة، وكان غير هذا كثيرون، فقد رثى عبدالله بن طاهر العلامة القاسم ابي سلام ابو عبيد الذي توفي عام ٢٢٤هـ قال فيه:

ياطالب العلم قد أودى ابن سلام   قد كان فارس علم غير محجام

هذا وقد عرف من رجال النحو عيينة بن عبدالرحمن وهو تلميذ الخليل بن احمد، وكان عيينة مؤدباً للأمير عبدالله بن طاهر، وعرف كذلك العتبي وهو كلثوم بن عمرو بن الحرث التغلبي وهو ممن اجتمع له الخطابة والبيان.

هذا وقد لاقى الطب رعاية كبيرة من امراء الدولة فبيمارستانات نيسابور كانت من أشهر البيمارستانات التي يدرس فيها الطب آنذاك، ومن أشهر أطباء العصر سابور بن سهل الذي توفي عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م وله عدة مؤلفات، وكذلك يوحنا بن ماسويه وله عدة مؤلفات ايضاً، ولقد اغرى التقدم الطبي لدى الدولة الطاهرية الخليفة الواثق فاستقدم أحد اطباء نيسابور لعلاجه، وقد أفرد ابن النديم في كتابه الفهرست فصلاً خاصاً يتحدث فيه عن علماء وأدباء الاسرة الطاهرية.(١٠٧)

سقوط الدولة الطاهرية

كغيرها من الدول فقد تعرضت لعدد من الظروف والاسباب التي تداخلت بعضها مع

البعض الآخر لتكون معاول هدم واضعاف لهذه الدولة التي عاشت فترة قوة وازدهار، وما لبثت أن ضعفت بسبب تلك العوامل التي يتقدمها ضعف الخلافة العباسية، فقد رأينا من دراستنا السابقة أن العلاقات بين الاسرتين كانت وثيقة وقوية، فقد تعاون الطرفان في اخماد ثورة بابك الخرمي في اذربيجان وكذلك ثورة المازيار بن قارن في طبرستان، وهذه المناطق كانت تابعة للاسرة الطاهرية، ولكن عندما ضعفت الخلافة لم يعد بامكانها دعم الطاهريين وارسال المدد اليهم عندما بدأ الاعداء يهددون ممتلكاتهم وكان أخطر هؤلاء الاعداء الحركة الصفارية التي اسقطت الدولة الطاهرية في نهاية المطاف. كذلك أصاب الضعف الدولة الطاهرية عندما تسرب مرض الانقسام بين افراد الاسرة الحاكمة، وانصرف بعض رجالاتها الى اللهو والعبث، وهنا يذكر كرديزي «أن ابناء عم محمد بن طاهر - آخر امراء الاسرة في خراسان - هم الذين وجهوا الدعوة الى يعقوب بن ليث الصفار للاستيلاء على مدن خراسان، وكان الذي دفعهم الى هذا الصنيع حقدهم وحسدهم لمحمد بن طاهر.»(١٠٨)

ويذكر ايضاً أن محمد بن طاهر ترك أمور الدولة الى عماله وأعوانه وانصرف هو لأموره الخاصة مما مهد الطريق لأعداء الدولة من صفاريين وزيديين وغيرهم لاقتطاع اجزاء كبيرة من ممتلكات الدولة(١٠٩) التي انهارت فيما بعد.

كذلك انتقل الفساد من عاصمة الدولة الى الولايات الاخرى التابعة لها واستشرى هناك بشكل سافر وكان أوضح ما يكون في منطقة طبرستان حيث ترك الطاهريون الحكم لنوابهم الذين شددوا على الرعية واتسع ظلمهم وتعسفهم الامر الذي أدى الى تذمر الأهالي ودفعهم الى تأييد حركة الحسن بن زيد الذي استغل ظروف الأهالي* وتذمرهم ولم تكن ظروف بقية الولايات بأحسن حال من طبرستان.

ولقد أدت الأوضاع السابقة الى خلخلة الاوضاع الاقتصادية واضعافها، فانشغل الناس عن أعمالهم بأمور الفتنة والفساد، وتركوا أرضهم بسبب الظلم المالي الذي كان يقع عليهم، فتراجعت الزراعة وتوقفت حركة الانتاج وقلت المدخولات العامة للأفراد والدولة، ونفس الشيء يقال عن الصناعة التي اهملت وأخذت طريقها نحو الانحطاط، ففائض الانتاج لم يعد يصدر بسبب الظروف العامة فهجرت المصانع وتوقفت في معظم الأحيان، وقد انعكس

كل هذا على التجارة التي كسدت وضعفت حركة البيع والشراء في الأسواق المحلية وأهملت الطرق التي لم تعد آمنة كما كانت في الأيام السابقة.

إذن الأمر الطبيعي أن تتأثر مدخولات الدولة تأثراً سلبياً إذ لم تعد لها تلك الموارد الهائلة التي كانت تتدفق عليها في فترة قوة الدولة، وترتب على ذلك أن ارتبكت ميزانية الدولة ولم تعد قادرة على تقديم الخدمات العامة كما لم تعد قادرة على دفع مرتبات الموظفين الأمر الذي أدى الى انتشار الرشوة بين موظفي الدولة، فتراخت قبضتها عن ولاتها وعمالها الذين أساءوا معاملة الأهالي كما سبق وأن أشرنا فدفعت الدولة الثمن غالياً.

ومن المعروف أن العطب والعفن إذا وقع في مكان فلا يلبث أن ينتقل الى أماكن أخرى بيسر وسهولة فانتقلت أمراض الفساد والرشوة الى صفوف الجيش الذي بات ضعيفاً لايقوى على الدفاع عن نفسه أو عن استقلال بلاده، كما أنه بات عاجزاً لايستطيع التصدي الى الفساد الزاحف على مؤسسات الدولة ومرافقها المختلفة سواء كانت عسكرية أو مدنية. أمام هذه وتلك من الظروف المختلفة أصيب الناس بالاحباط وهدت معنوياتهم وتسربت اليهم روح اليأس والقنوط وباتوا يتمنون الخلاص.

أدرك يعقوب بن ليث الصفار حقيقة الأوضاع في الدولة الطاهرية، وكان يعقوب هذا يعمل على توسيع دائرة نفوذه وممتلكاته ويتخذ من منطقة سجستان قاعدة له، انطلق يعقوب بقواته صوب نيسابور بعد أن تمكن من أخذ العديد من القرى والمدن الطاهرية، ويتحدث البيهقي عن هذا الأمر فيقول:

«إن يعقوب قصد نيسابور للقبض على أمير خراسان محمد بن طاهر، وكان أعيان دولته يتقربون بالرسل المسرعين الى يعقوب ويرسلون اليه الرسائل بأنه ينبغي الاسراع، إذ أن أميرهم لاعمل له سوى اللهو والمجون، وانه من الحيف أن يضيع ثغر عظيم كخراسان هباء، إلا أن ثلاثة من الشيوخ لم يلتفتوا الى يعقوب ... بل آثروا خدمة ابن طاهر حتى دخل يعقوب الى نيسابور فقبض على الأمير محمد وعليهم، وساطهم لماذا لم تتقربوا الينا كما فعل أصحابكم ؟.

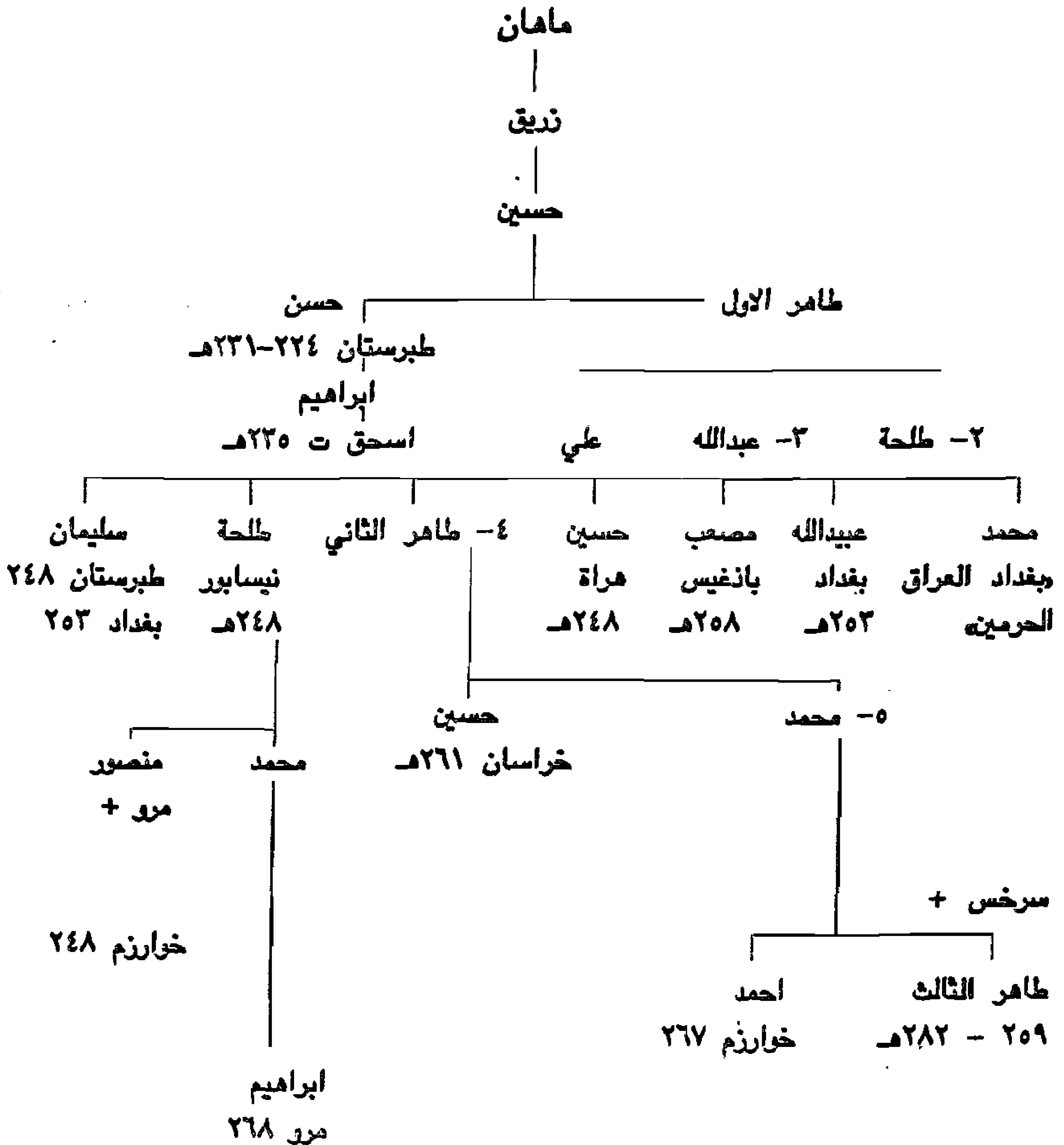
فقالوا له: «أيها الأمير ... إنا شيوخ كبار وقد قضينا في خدمة آل طاهر أعواماً طويلة، ونلنا في دولتهم اعزازاً وافراً ... فهل كان من الانصاف أن نكفر بنعمتهم ونتقرب الى خصومهم ...»

فقال يعقوب ... دعوهوا الى بيوتكم آمنين وعلينا أن نحافظ على الاحرار أمثالكم وأن نفيد من خدماتكم، ألا فلتكونوا دائماً في حضرتنا»[١١٠] وكان دخول يعقوب الى نيسابور في عام ٢٥٩هـ. إلا أن الخلافة لم توافق يعقوب على ما فعل، وطلبت منه العودة وترك نيسابور للطاهريين، لكنه رد على رسل الخليفة بعبارة واضحة رافضاً الامتثال لأمره، وأخرج سيفاً من تحت مصلاته قائلاً: «سوف يضمن هذا السيف لي الملك.»[١١١]

الدولة الطاهرية

٢٠٥ - ٢٥٩هـ / ٨٢١ - ٨٧٣م

٢٠٥هـ	طلحة الاول	٨٢١م
٢٠٧هـ	طلحة بن طاهر	٨٢٢م
٢١٣هـ	عبدالله بن طاهر	٨٢٨م
٢٣٠هـ	طاهر الثاني	٨٤٤م
٢٤٨-٢٥٩هـ	محمد بن طاهر	٨٦٢-٨٧٣م



الحواشي

١- الجهشياري: الوزراء ص ٢٩١
٢- بارثولد: تركستان ٣٢٠-٣٢١
R. N. Frye. The Comb History of Iran Vo. IV p 91 Combridge 1975.
٣- †Ibid p 91
٤- وينسب الطاهريون الى قبيلة خزاعة التي حكمت في مكة قبل ظهور الاسلام، ولكن نسبهم الفارسي يبدو أنه الأكثر وضوحاً Ibid p 92
٥- الجهشياري: الوزراء ص ٢٩١
٦- بارثولد: تركستان ٣٢٠-٣٢١
الشبابشتي: الديارات ٩٢ ط ١٩٥١
٧- بارتولد: تركستان ٣٢٠-٣٢١
Frye. The Comb History of Iran p 92
J. J Sanders p 118
٨- Frye. p 92
٩- الجهشياري: نفس المصدر ٢٩٣
١٠- المسعودي: مروج الذهب ٣٠٣/٢
١١- ابن الاثير: الكامل ٢٧٨/٦
١٢- ابن كثير: البداية ٢٢٦/١٠
١٣- نفس المصدر ص ٢٣٦ ومابعدها.
١٤- المسعودي مروج الذهب ٤٠٨/٣
١٥- نفس المصدر ٣٠٥/٢
١٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٢٧٨/٦
١٧- نفس المصدر ص ٢٧٩
١٨- المسعودي: مروج الذهب ٤٢٤/٣
١٩- شوقي ابوخليل: هارون الرشيد ص ٢١-٢٢ دمشق ١٩٨١
٢٠- رغم أن بعض المؤرخين يتهم المامون بالتورط في مقتل أخيه الامين.
٢١- البيهقي: تاريخه ص ١٤٧
٢٢- ابن الاثير: الكامل في التاريخ ١٧٦/٥
٢٣- كرديزي: زين الاخبار ص ٥
٢٤- Frye. Comb. Hist. of Iran p 94
٢٥- ابن كثير: البداية ٢٤٨/١٠
٢٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٣٦١/٦
٢٧- نفس المصدر والصفحة - Saunders p 118
٢٨- ابن الاثير: مصدر سابق ٣٦٣/٦
٢٩- نفس المصدر ٣٨١/٦-٣٨٢

٣٠- †Frye. Comp. Hist. of Iran Vol. IV p 95

٣١- لكن الغريب أن المصدر السابق يقرر أن طاهر بن الحسين لم يذكر اسم الخليفة المأمون على عملته: نفس الجزء والصفحة.

٣٢- كرديزي: نفس المصدر والصفحة.

٣٣- المصدر السابق ص ٦، ابن الاثير: مصدر سابق ٦/٣٨٣

٣٤- ابن الاثير: مصدر سابق ٦/٤١٤ – Frye. Vol. IV p.96

S. J. Clubb. The course of empire p. 85

٣٥- كرديزي: مصدر سابق ص ٧

٣٦- ††Clubb. p. 85

٣٧- ابن الاثير: ٦/٢٩٦

٣٨- ابن كثير: مصدر سابق ١٠/٢٥٩

ومن الجدير بالذكر أن عبدالله بن طاهر توفي وله ثمان واربعون سنة ... وكان شجاعاً كريماً، يقال انه وقع مرة على قصص بصلات بلغت أربعة ملايين، وقد خلف من الدراهم خاصة اربعين الف الف درهم ... وقبل موته كسر آلات الملاهي وفك أسرى بالفي الف وتصدق بأموال.

د. مصطفى السباعي/ القلائد من فرائد الفوائد ص ١٢٣ – بيروت ١٤٠١ – ١٩٨١م.

٣٩- ابن الاثير: نفس المصدر ٦/٣٦٤–٣٧٧

٤٠- ويذكر ابن الاثير أن عبدالله توفي في نيسابور في ربيع الاول عام ٢٣٠هـ وهو أمير خراسان وكان اليه الحرب والشرطة والسواد والري وطبرستان وكرمان وخراسان ومايتصل بها وكان خراج هذه الاعمال يوم مات ثمانية واربعين الف الف درهم ٧/١٣.

٤١- †Frye. Comb. Hist. of Iran p 105

٤٢- خاصة وأن نصر ثار بسبب سياسة المأمون اتجاه العناصر غير العربية، وخاصة الفرس، وقيل أن جماعة من أنصار الطالبيين عرضوا على نصر أن يبايع لأحد ابناء العلويين أو لاحد ابناء الامويين لكنه رفض ذلك وأعلن تمسكه بالبيت العباسي قائلاً «وانما هواي في بني العباس، وانما حاربتهم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم.

ابن الاثير: ٦/٣٠٨

٤٣- نفس المصدر ٣٨٨

٤٤- ابن كثير: البداية ١٠/٢٦٣

٤٥- المصدر السابق ٢٥٩ ومابعدها.

٤٦- †Frye. Comb. Hist. of Iran p 94

٤٧- Ibid p 97

٤٨- ابن كثير البداية ١٠/٢٦٣

٤٩- وهذا يدل على أسلوب قوي وبلاغة وفصاحة كان يتمتع بها عبدالله بن طاهر.

٥٠- ابن الاثير: مصدر سابق ٦/٢٩٧–٢٩٨

• اليعقوبي: تاريخه ٢/٤٦٠.

٥١- †Frye. Comb. Hist. of Iran Vol. IV p 97

٥٢- السيوطي: الخلفاء ص ٣٠٨

٥٣- نفس المصدر والصفحة.
٥٤- ابو سيف: المشرق الاسلامي ص ١٥٨
٥٥- كرديزي: مصدر سابق ص ٧-٨

††† †Frye. Comb. Hist. of Iran Vol. IV p. 98

٥٦- الشبابشتي: الديارات ص ٢٦
٥٧- المسعودي: التنبيه ٣٦٣ - ابن الاثير: ٧/١٣٩
٥٨-ابن الاثير: ٧/١٢٦ - ابن كثير: البداية ١١/٥

Comb. Hist. of Iran Vol. IV p 102

٥٩- قال المعتز في محمد بن طاهر بعد وفاته:

ذهبت بهجة الخلافة عنـــا حين أضحى محمد في القبور
عن قليل نكون احداث دهر عن سنا نارها شب السـعير

الشبابشتي: الديارات ص ٨٣
٦٠- ابن الاثير: الكامل ٦/٣٢٨
٦١- Muir: The caliphate p 508
٦٢- وفي البداية اسند الخليفةالمأمون محاربة الحركة الى محمد بن حميد الطائي واستعرت بين الطرفين ست حروب قتل بعدها محمد بن حميد فحزن عليه المأمون وتعاظم أمر بابك.
نظام الملك - سياست نامه ص ٢٨٩
٦٣- اليعقوبي: مصدر سابق ٢/٤٦٣
٦٤- نظام الملك: مصدر سابق ص ٢٨٩
٦٥- كرديزي: مصدر سابق ص ٧٠
٦٦- نفس المصدر الصفحة
٦٧- نظام الملك - سياست نامه ص ٢٣٨
٦٨- وهو حيدر بن كاوس. كان والده كاوس اميراً على اشروسنه، تعهد بدفع الجزية للخلافة العباسية ثم امتنع بعد رحيل الخليفة المأمون من مرو، وقع خلاف بين أفراد اسرة كاوس، اضطر على اثره ان يرحل ابنه حيدر الى بغداد، ثم عاد حيدر ليشارك في فتح اشروسنه فاضطر والده الى الاستسلام، ورحل الى بغداد واعتنق الاسلام، وتم الاعتراف به حاكماً رسمياً لاشروسنه وخلفه على حكمها ابنه حيدر الذي أصبح فيما بعد مرموقاً في بلاط الخلافة في بغداد وعرف باسم الافشين، وهو لقب امراء اشروسنه - بارتولد: تركستان ص ٣٣٦
٦٩- ولما كان المازيار منافراً لعبدالله بن طاهر، فكان لايرسل اليه الخراج، وكان المعتصم يأمر بحمله الى عبدالله فيقول: لا أحمله إلا اليك، وكان المعتصم يرسل من يستلم الخراج من أصحاب المازيار بهمذان ويسلمه الى وكيل عبدالله بن طاهر يرده الى خراسان.
ابن الاثير: الكامل ٦/٤٩٥
٧٠- اليعقوبي: مصدر سابق ٢/٤٧٧
٧١- كرديزي: مصدر سابق ص ٩ - ابن الاثير: ٦/٤٩٦ - مروج الذهب ٤/٦٤
٧٢- انظر تفاصيل حركة المازيار في ابن الاثير: مصدر سابق ٦/٤٩٥-٥٠٤

٧٣- البيهقي: تاريخ البيهقي ص ١٨٦
٧٤- ابن الاثير: مصدر سابق ٥١٤/٦
٧٥- ابن كثير: البادية ٢٨٩/١٠
٧٦- ابن الاثير: نفس المصدر ٥١٠/٦
٧٧- ويذكر ان عبدالله بن طاهر قام بحملة على بلاد الغز ففتح أماكن لم يبلغها أحد قبله - بارتولد: تركستان ص ٣٣٦
٧٨- وهي المنطقة الواقعة وراء نهر جيحون
ياقوت: معجم البلدان ٤٥/٥ بيروت ١٩٧٧
٧٩- انظر قيام الدولة السامانية.
٨٠- النرشخي: تاريخ بخارى ص ١٠٦
٨١- الساداتي: تاريخ المسلمين ص ٧٢-٧٤
٨٢- النرشخي: مصدر سابق ص ١٠٦
٨٣- ابن كثير: مصدر سابق ٢٨٩/١٠
٨٤- الزشخي: تاريخ بخارى ٤٥-٤٦
٨٥- ويذكر ان هذا الكتاب ظل مستخدماً في خراسان حتى عهد الدولة الغزنوية
Comb. Hist. of Iran p. 107
٨٦- كرديزي: مصدر سابق ص ١٠٠٩
Clubb. The Course of empire p. 85
٨٧- النرشخي: مصدر سابق ص ٣١
٨٨- نفس المصدر ص ٣٧
٨٩- المصدر السابق ص ٣٠ - المقدسي: أحسن التقاسيم ٢٩٤
٩٠- كرديزي: مصدر سابق ٢٨
٩١- نفس المصدر ص ٣٠
٩٢- نفس المصدر ص ٣٤
٩٣- د. عبدالمنعم النمر «تاريخ الاسلام في الهند» ص ٦٥ ومابعدها.
٩٤- بارتولد: تركستان ص ٣٤٥-٣٤٦
٩٥- ابن خرداذبه «المسالك والممالك» ٣٨-٣٩ ط ١٨٨٩
٩٦- بارتولد: تركستان ٣٤٥-٣٤٦
٩٧- المصدر السابق ٣٤٦-٣٤٧
٩٨- ابن خلكان: وفيات الاعيان ٧٠٣/٢
٩٩- ابو سيف: المشرق الاسلامي ٢٢١
١٠٠- ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٣/١-٣٤ تحقيق احمد شاكر - القاهرة ١٩٤٢
١٠١- نظام الملك: سياست نامه ص ٧٧ ، ويذكر عن عمر بن طاهر :

كان ابو عبيد القاسم بن سلام مع عبدالله بن طاهر، فبعث اليه ابو دلف يستهديه أبا عبيد شهرين «وكان ابو عبيد من الادباء البارزين» فأنفذه اليه فأقام شهرين، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين الف درهم، فلم يقبلها وقال: أنا في جنبة رجل لم يحوجني الى صلة غيره، فلما

عاد الى ابن طاهر، وصله بثلاثين الف دينار، فقال: أيها الامير قد قبلتها، ولكن قد اغنيتني بمعروفك وبرك، وقد رأيت أن اشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها الى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الامير ففعل.

مصطفى السباعي: القلائد من فرائد الفوائد ص ١٤ ط ١٤٠١ - ١٩٨١

١٠٢- كرديزي: نفس المصدر ص ١٠ - ابن الاثير: ٧/١٤

Glubb. p. 85

١٠٣- †Glubb. p. 85

١٠٤- بارتولد: تركستان ٣٢٨

١٠٥- Comb. Hist. of Iran Vol. 4 p. 105

١٠٦- بارتولد: تركستان ٣٢٨ -† Comb. Hist. of Iran p 105

١٠٧- Comb. Hist. of Iran p. 105

١٠٨- كرديزي: مصدر سابق ص ٥

١٠٩- نفس المصدر والصفحة - * سنتحدث عنها فيما بعد.

١١٠- البيهقي: تاريخه ٢٧٠-٢٧١

١١١- كرديزي: نفس المصدر ص ٧

سنشير الى هذا في صفحات تالية.

الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٦هـ

من دراستنا السابقة تبين لنا أن منطقة المشرق الاسلامي شهدت العديد من الأحداث السياسية تمثلت في قيام حركات معارضة لسلطة الخلافة هناك - كحركة بابك الخرمي والمازيار - وكذلك قيام دويلات مساندة للخلافة، وقد تمخض عن هذه الأحداث أن المنطقة ظلت نهباً لأطماع بعض القادة والمغامرين، خاصة وأن ظروف الخلافة لا تمكنها من السيطرة على هذه المنطقة بشكل يحفظ لها استقرارها وهدوئها، وقد كان الخوارج في سجستان من بين العناصر التي عارضت وأثارت المشاكل والصعوبات في وجه الخلافة، الأمر الذي دفع بعض المتحمسين للقضاء على فتنتهم وإعادة الهدوء والطمأنينة لربوع هذه المنطقة، وكان على رأس هؤلاء(١) صالح بن نصر الكناني الذي نجح في ضرب الخوارج وتغلب على بست وكان معه يعقوب بن ليث الصفار، وكان ذلك في عام ٢٣٧هـ إلا أن طاهر بن عبدالله استردها منه(٢).

وبعد فترة توفي صالح بن نصر وتولى الزعامة بعده درهم بن الحسين، إلا أن القائد الجديد لم تكن لديه القدرة على مواصلة المجهودات التي بدأها سلفه لاقرار الأوضاع، بالاضافة الى ذلك فإن أتباعه كما يبدو لم تتولد لديهم قناعة بقيادته، فعزلوه، وعينوا عليهم أحد زملائهم البارزين وهو يعقوب بن ليث الصفار الذي أظهر كفاءة ومقدرةودراية أثناء الأحداث التي مرت بمنطقتهم.

وقبل الدخول في تفاصيل الدور الذي لعبه يعقوب في تأسيس دولته، لابد وأن نعود قليلاً الى الوراء لنلقي بعض الاضواء على شخصيته التي كان لها ولاشك أثر كبير في تصدره لأحداث المنطقة. فكرديزي يذكر بأنه كان رجلاً مغموراً من قرية قرنين في ولاية سجستان، انتقل الى المدينة واختار مهنة الصفارة ... وسبب رشده أنه كان رجلاً جواداً بكل ما يجد، فيأكل مع رجاله ما يملك، كما انه كان ذكياً شهماً، فكانت جماعته لذلك يعظمونه، وكلما وقع على عمل مع زملائه يكون في مقدمتهم(٣)، ويستطرد كرديزي بأن يعقوب بعد اشتغاله بالصفارة انصرف الى قطع الطرق، ثم تزعم جماعة فكان له خيل، ومن ثم أصبح حاكماً لبست من قبل نصر الكناني، الذي تزعم جماعة المتطوعة الذين نذروا أنفسهم لمحاربة الخوارج الذين يعتبرون في نظر المطوعة خارجون عن الدين والقانون(٤).

ولم تهتم المصادر التاريخية بذكر اخوة يعقوب - طاهر وعلي - ماعدا عمرو الذي ورث الدولة الصفارية بعد وفاة يعقوب - وقد ذكر عن علي أنه كان والياً لهراة عندما سيطر يعقوب عليها عام ٢٥٣هـ، ويذكر ان علي هذا قد انضم الى رافع بن هرثمة عدو أخيه عمرو.

وقد تأثر يعقوب بنشأته الأولى في بيئة عادية خالية من الترف والملذات، وكان يميل الى العزلة والى الانفراد في قراراته[٥]، وكانت تسليته الوحيدة أو الغالبة هي مراقبة[٦] تدريب ولعب عبيده وغلمانه الصغار والتي كانت تشبه اموراً أشبه بالمعارك الوهمية أو مانسميه في أيامنا هذه بالمناورات العسكرية.[٧]

ويبدو أن هذا كان صحيحاً لأن المصادر أجمعت على أن يعقوب كان شخصية شجاعة قوية وعسكرياً بارزاً، فاليعقوبي يصفه بالبأس والنجدة[٨]، ويذكر ياقوت «كان أصحابه لا يعدوهم أمر شديد إلا انتدب له يعقوب فمظم قدره.»[٩] ولكل هذه الصفات أحبه رجاله والتفوا حوله لبساطته وتواضعه معهم «فكان لايجلس إلا على قطع مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين، والى جانبه ترسه وعليه اتكاؤه، وليس في مضربه شيء غيره، فإذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره اضطجع على ترسه ونزع راية فيجعلها مخدته...»[١٠]

أما طعامه فلم يتعدى الخبز من الشعير وكذلك البصل والكرات[١١] ويبدو أن يعقوب قد احيط بمجموعة من القادة والمستشارين البارزين الذين كانوا يعينونه في أمور الادارة والملك[١٢]، وقد جرت بين يعقوب ورسول الخليفة العباسي مناقشة فقال له رسول الخليفة: «أنت في رياستك ومجلسك ليس في خدمتك إلا سلاحك ومسح أنت تجلس عليها ؟ فأجابه يعقوب: «إن رئيس القوم يأتم به أصحابه في أفعاله وسيرته، فلو استعملت ماذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولاقتدى بي في فعلي من في عسكري، ونحن نقطع كل يوم المفاوز والأودية والقيعان ولا يصلح لنا إلا التخفيف.»[١٣]

وقد شهد له المؤرخون بأنه كان ادارياً ماهراً حازماً يحترمه رجاله ويتجنبون مخالفته، فعندما قاد حملته ضد الحسن بن زيد في طبرستان أصيب رسل الخليفة الذين رافقوه بالدهشة لما رأوه من الضبط والنظام في قواته العسكرية، فقد منع جنده من نهب أي شيء

في معسكر الحسن بن زيد بعد هربه[١٤]، وفي مكان آخر يصف المسعودي قوة يعقوب ومدى سيطرته على قواته وانصياعهم لأوامره، فقد أصدر ذات مرة وهو بأرض فارس أمراً فجائياً بوقف رعي الحيوان تأهباً للرحيل، فما كان من أحد رجال جيشه إلا أن أخذ العلف بسرعة من فم حصانه، بل الأكثر من هذا أن ضابطاً كبيراً أتى مسرعاً وهو عريان إلا من سلاحه إذ كان يستحم حين دعا الداعي الى حمل السلاح[١٥]. الى جانب ذلك فقد كان سني المذهب، ولم يسمح بقيام نشاط شيعي في خراسان، وحاول جهده تصفية الدولة الزيدية في طبرستان عام ٢٦٠هـ[١٦]. كذلك لم يتفق مع صاحب الزنج عندما طلب منه التعاون ضد الخلافة العباسية، وكان رد يعقوب واضحاً عندما كتب له: «قل ياأيها الكافرون، لاأعبد ما تعبدون.»

تأسيس الدولة

كانت البداية الحقيقية لظهور يعقوب كرجل له دور في منطقة المشرق الاسلامي عندما انضم بمؤيديه الى صالح بن نصر الكناني، الذي أخذ على عاتقه محاربة الخوارج وإعادة الهدوء الى منطقة سجستان[١٧]، وكان صالح هذا يقود جماعة من المتطوعة، وقد أثبت يعقوب في هذه الأحداث حنكة وقوة، الأمر الذي دفع صالح بأن يتخذ منه نائباً له أو كما يقول ابن الاثير: «وجعله صالح مقام الخليفة عنه.»[١٨] وتمكنا من احتلال مدينة بست، ثم توجها الى سجستان وطردوا منها والي الطاهريين وهو ابراهيم بن الحسين[١٩].

ويبدو أن حلفاء الأمس قد دب بينهم خلاف بسبب تصرفات صدرت من جماعة صالح الكناني كاثارة الفوضى والاضطرابات في سجستان، والقبض على زمام الأمور في سجستان وكسر السجون وانتهاب مافي الخزائن من أموال وتقسيمها على بعضهم البعض وعلى من يناصرهم من الناس.

هذه التصرفات لم يرضى عنها يعقوب فانشق بمؤيديه وواصل القتال ضد الخوارج، الأمر الذي أضعف جبهة صالح الذي هزم على يد طاهر بن عبدالله ومقتله عام ٢٣٧هـ[٢٠] وخلفه درهم بن الحسين على قيادة الجماعة، وهنا انضم يعقوب برجاله الى درهم بن الحسين، وأصبح يعقوب حاكماً لمدينة بست بعد أن تمكن درهم من الاستيلاء على سجستان بصفة نهائية[٢١] ليصبح والياً لها .

وقد تداخلت الأحداث في فترة لاحقة أدت الى اختفاء درهم بن الحسين وظهور يعقوب كقائد للمتطوعة، ويرى بعض المؤرخين أن الجند هم الذين أسقطوا درهم لعدم مقدرته وعينوا مكانه يعقوب لكفاءته ومقدرته[٢٢]، هذا بينما يرى البعض الآخر أن درهم تآمر على يعقوب الذي تمكن من كشف المؤامرة وتخلص من درهم.

استمر يعقوب في حربه ضد الخوارج، فأكثر فيهم القتل وأنزل بهم هزائم متتالية[٢٣] حتى كاد يفنيهم وخرب قراهم، ويذكر ابن الاثير أن أصحاب يعقوب في كل هذا أطاعوه طاعة لم يطيعوها لأحد كان قبله[٢٤] فارتفع شأنه وقويت شوكته، لكنه رغم هذا فقد تحاشى الاحتكاك بوالي خراسان حفاظاً على مشاعر الخلافة الأمر الذي دفع بها أن ترسل له تقليداً تعترف به والياً على سجستان(٢٥)، ولم يحاول الاحتكاك بالطاهريين طوال فترة حكم طاهر بن عبدالله نظراً لقوة طاهر وتمكنه من القبض على ناصية الأمور في المنطقة.

الاستيلاء على أملاك الطاهريين

توفي طاهر بن عبدالله عام ٢٤٨هـ وتولى مكانه ابنه محمد الذي لم يكن على نفس المستوى الذي كان عليه والده، بل كان أقل قدرة كما أن بعض المصادر وصفته بأنه ضعيف السياسة والتدبير مهملاً لشئون رعيته[٢٦]، قليل الخبرة تنقصه الممارسة. فاستغل الخوارج فرصة ولايته ليوسعوا دائرة تمردهم وثورتهم، بعد أن لاذوا بالصمت في فترة ولاية والده[٢٧]، فقام يعقوب بمهاجمتهم ومطاردتهم من جديد، وذلك بعد أن سمح له محمد بن طاهر بهذا حتى تمكن من ابعادهم عن سجستان.

ويبدو أن ثمة علاقة كانت تربط يعقوب بالخوارج في أول الأمر، ولكن هذه العلاقة تغيرت الى عداء مستحكم والدليل على علاقتهم في أول الأمر أن يعقوب أرسل الى عمار الخارجي زعيم الخوارج في سجستان يقول له: «لعلك تعلم أن حمزة بن عبدالله الخارجي لم يقصد اطلاقاً الأضرار بسجستان وأهلها، وإنما كان خروجه على الخلافة وعمالها ... والآن وقد تغير الوضع ولتضمن سلامتنا وأمننا سوياً فانهض مع جيشك وضع يدك في يدنا.» والملاحظ على رسالة يعقوب هذه، أنها كانت تركز على الأهداف السياسية والاقليمية وهي التعاون من أجل سجستان وأخذها من الخلافة بعد طرد عمالها، ولم يتعرض لمبادئ

الخوارج أو مذهبهم، لكن كلاهما كان يشك في نوايا الطرف الآخر، بدليل الهجوم المباغت الذي شنه يعقوب على قوات الخوارج وهزيمتهم هزيمة مروعة دفعت بزعيمهم عمار الى الانتحار في عام ٢٥١هـ ويبدو أن حركة الخوارج بعد هذه الواقعة لم تقم لها قائمة وأصبح رجالها تحت زعامة يعقوب.

وبعد أن تمكن يعقوب من هزيمة الخوارج تفرغ لتوسيع ممتلكاته، فانطلق من سجستان الى هراة وكان واليها محمد بن طاهر وينوب عنه هناك محمد بن أوس، فهزم ابن أوس ودخل يعقوب الى هراة ومنها الى بوشنج في عام ٢٥٣هـ[٢٨]. واستقر يعقوب في هذه المناطق وأخذ يقوي قبضته في مناطق جديدة وينشر فيها العدالة والأمن، الأمر الذي دفع بالناس هناك أن يقفوا الى جانبه، ثم أخذ يعقوب يتطلع الى توسيع ممتلكاته على حساب منطقة خراسان قاعدة الدولة الطاهرية[٢٩]، وكانت الظروف مناسبة، فيعقوب يحكم منطقة مستقرة هادئة، والخلافة مشغولة بمشاكلها مع الأتراك الذين فجروا حرباً أهلية بين المستعين والمعتز، ونتيجة لهذه الظروف زحف يعقوب بقواته واستولى على مجموعة من المدن الهامة مثل طبسين وذابلستان والسند ومكران[٣٠]، ويذكر أن يعقوب عندما دخل الى بوشنج قبض على زعماء الاسرة الطاهرية هنا لأن هذه المدينة كانت مسقط رأس الاسرة[٣١]، وهنا يعتقد ابن خلدون أن عام ٢٥٣هـ التي تجاوز فيها نفوذ يعقوب حدود سجستان كانت ابتداء دولته.[٣٢]

تأثرت الخلافة من الموقف الذي اتخذه يعقوب إزاء الطاهريين وطلب الخليفة المعتز منه أن يطلق سراح رجالات الطاهريين الذين وقعوا في الأسر، فاستجاب يعقوب لطلب الخليفة[٣٣]، وكان يهدف من وراء ذلك أن يبين للخلافة أنه لازال رغم قوته مطيعاً لها ومنفذاً لأوامرها.

ثم نجد يعقوب يتقدم بطلب للخليفة باعطائه ولاية كرمان[٣٤]، ويرسل للمعتز هدية سنية من جملتها مسجد فضة مفكك يصلي فيه خمسة عشر رجلاً[٣٥]. وكان والي فارس قد تقدم للخلافة في نفس الوقت بطلب ولاية كرمان أيضاً. ولما كانت علاقة الطرفين بالخلافة غير طيبة[٣٦] فقد استغلت الفرصة لضربهما بعضهما ضد البعض الآخر، فأيهما هزم فهو في مصلحة الخلافة، وذلك لأن الطرف الذي سينتصر سيكون قد استنزف، وقد ذكر ابن الاثير

ذلك صراحة عندما قال: «وكتب المعتز الى يعقوب بولايتها ... يلتمس بذلك اغراء كل واحد منهما بصاحبه ليسقط مؤونة الهالك منهما عنه، وينفرد بمؤونة الطرف الآخر[٣٧]، إذ كان كل واحد منهما عنده حرباً له وفي غير طاعته.» وهكذا وافق الخليفة على اعطاء كل من والي فارس وكذلك يعقوب بن ليث ولاية كرمان. وأخذ كل منهما يعد للأمر عدته، وتقدم يعقوب برجاله الى كرمان وتقابل هناك مع طوق بن المغلّى قائد علي بن الحسين صاحب فارس، أرسل طوق رسالة الى يعقوب يقول له: «أنت بعمل الصفر أعلم منك بعمل الحروب» فعظم ذلك على يعقوب[٣٨] الذي تقدم صوب قوات طوق وهزمه وأسره، وعندما علم علي بن الحسين بهزيمة رجاله كتب الى يعقوب يقول: «إن طوق فعل مافعل دون أمر مني ... وقال له إن كنت تطلب كرمان فقد خلفتها وراءك، وإن كنت تطلب فارس فكتاب من أمير المؤمنين بتسليم العمل[٣٩] لانصرف» ويبدو من الرسالة أن كفة يعقوب كانت راجحة وأن والي فارس أدرك عجزه عن مجاراة قوات يعقوب. ويبدو أن اتفاقاً لم يحدث بينهما رغم المراسلات وجرت معارك بينهما تمكن يعقوب بعدها من احتلال كرمان رسمياً في عام ٢٥٥هـ[٤٠]، ثم تقدم الى فارس وهزم قواتها وتمكن من أسر واليها علي بن الحسين[٤١] وعذبه واستخرج منه أموالاً بقيمة أربعين الف دينار، ثم استخرجوا منه أربعة آلاف الف درهم وجوهراً كثيراً[٤٢]، ويذكر ابن الاثير أن يعقوب أخذ من أموال علي الف بدره وقيل اربعمائة بدرة، ومن السلاح والأفراس ما لايحد[٤٣] وأرسل يعقوب رسله الى الخليفة يظهر له الولاء والطاعة وأهدى له هدية جليلة منها عشرة بيزان بيعي وبازاً أبلق صيني، ومائة من المسك وغيرها من الطرائف[٤٤]، لم يكتف يعقوب بذلك وإنما أرسل الى الخلافة يطلب منها أن ترسل من ينوب عنها لاستلام منطقة فارس فوافقت الخلافة على هذه البادرة الطية خاصة وأن والي فارس السابق كان يماطل في إرسال الأموال للخلافة.

وبعد فترة فكر يعقوب في اعادة رجاله الى فارس ومعنى هذا أنه يفكر في طرد رجال الخلافة التي ما أن علمت بالأمر حتى أرسلت اليه تستنكر تراجعه وفي نفس الوقت عملت على استرضاءه، فأرسلت اليه تقليداً رسمياً بولاية سجستان وبلخ وطخارستان والسند والتي كانت تابعة لوالي خراسان[٤٥]، وقبل يعقوب هذا العرض مقابل تخليه عن فارس.

تقدم يعقوب بقواته تجاه كابل[٤٦] فاحتلها وأرسل منها الهدايا الى الخليفة المعتمد ثم سار الى بست ومنها الى زرنج[٤٧]، وكان يعقوب خلال هذه الانتصارات قد أسر الحسين بن

طاهر والي بوشنج[٤٨]، وفشل محمد بن طاهر في اقناع يعقوب باطلاق سراح أخيه[٤٩].

يعقوب يتحدى الخلافة

الصورة التي أمامنا الآن توضح أن يعقوب هو الأقوى في المنطقة، وصاحب اليد العليا لأن الطاهريين أخذوا يفقدون الكثير من مواقعهم والخلافة العباسية عاجزة عن مساندتهم، لذلك قرر يعقوب أن يطيح بآخر معاقل الطاهريين ويضم عاصمتهم الى دولته الفتية الصاعدة، لكنه كان ينتظر الظروف المناسبة ليبرر عمله هذا. ولقد خدمته الظروف عندما لجأ عبدالله السجزي[٥٠] – وهو أحد رجال يعقوب – الى نيسابور ورفض الطاهريون تسليم عبدالله هذا الى يعقوب، عندها قرر يعقوب الزحف لتصفية ممتلكات الطاهريين، وعندما أصبح على مشارف نيسابور، أرسل محمد بن طاهر رسالة الى يعقوب يقول فيها: «إن كنت أتيت بأمر صادر من أمير المؤمنين فأعرض العهد والمنشور حتى تسلم الولاية لك، وإلا فارجع عائداً.» فلما وصل الرسول الى يعقوب أخرج يعقوب سيفه من تحت سجادته وقال: هذا هو العهد واللواء[٥١].

وفي هذه الأثناء كان ابناء عمومة محمد بن طاهر قد وصلوا الى حيث يعقوب يعرضون عليه خدماتهم وتعاونهم ويظهرون له الطاعة والولاء[٥٢]، ودخل يعقوب الى نيسابور عاصمة ا لطاهريين في عام ٢٥٩هـ وقبض على أفراد البيت الطاهري، وكانوا نحواً من مائة وستين رجلاً وحملهم الى سجستان.[٥٣]

وكان معنى هذه الخطوة التي خطاها يعقوب أنه حرم الخلافة من أكبر نصير لها في منطقة المشرق الاسلامي ويقف الى جانبها في السراء والضراء، فهل ستقف الخلافة مكتوفة اليدين أمام هذا التحدي الذي لا حدود له ؟...

في البداية لابد أن نشير الى حقيقة تاريخية ألا وهي أن الخلافة في هذه الفترة كانت تشعر بنوع من الانتعاش والقوة والتماسك، وانها أخذت تسترد بعض عافيتها، خاصة بعد أن تولى الموفق قيادة الجيش لأخيه الخليفة المعتمد، ومعنى ذلك أن الخلافة في هذه المرة لم تستطع التزام الصمت حيال تصرفات يعقوب. هذا إذا علمنا أيضاً أن نفوذ ابناء الاسرة

الطاهرية لدى الخلافة كان لايزال موجوداً وسوف يحرضون الخلافة ويشجعونها على معارضةيعقوب(٥٤).

أرسلت الخلافة الى يعقوب رسالة تطلب منه العودة عن نيسابور، وأنه إن فعل كان من الأولياء وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين(٥٥)، هذا إذن هو موقف الخلافة معارضة صريحة وواضحة لتصرفات يعقوب وفي رسالتها تحذير وتهديد ووعيد إذا لم يتراجع عن خراسان تاركاً اياها لأصحابها الطاهريين.

ولكن أنى ليعقوب أن يتراجع وهو الذي يشعر بقوته التي مكنته من ضم مساحات شاسعة من الأرض، فاستخف بتهديد الخلافة ولم يستجب لمطالبها، واستمر في توسعاته، ففي عام ٢٦٠هـ تقدم صوب طبرستان محتجاً أن عدوه عبدالله السجزي قد التحق بالزيديين بعد أن سقطت نيسابور في يده(٥٦)، وكان يعقوب قد أرسل رسالة الى الحسن بن زيد يطلب منه تسليم السجزي، وكان الحسن بجرجان، فرد عليه الحسن برسالة دون أن يسلم السجزي(٥٧)، فتوجه يعقوب نحو جرجان ودخل معركة حامية مع الزيديين وهزمهم فانسحبوا الى حدود الديلم(٥٨)، وواصل يعقوب زحفه ضد الدولة الزيدية مستولياً على ممتلكاتها البلد تلو الآخر، لكن الظروف الجوية السيئة وطبيعة المنطقة وقفت حائلاً دون تحقيق اطماع يعقوب الذي خسر الكثير من رجاله وأمواله ودوابه(٥٩)، ومع ذلك فقد كتب يعقوب الى الصلاني والي مدينة الري أن يسلمه السجزي وكان هذا قد لجأ اليه في فترة سابقة، ويبدو أن والي الري كان يخشى بطش يعقوب فقام بتسليم السجزي الذي حمله يعقوب الى نيسابور(٦٠) حيث صلبه واخوته، وبعد أن استصفى يعقوب أموال الطاهريين في نيسابور عاد الى قاعدته سجستان.

أراد يعقوب أن يستثمر عملياته العسكرية هذه فأرسل للخلافة رسالة يظهر فيها أن ما قام به ضد الزيديين ماهو إلا خدمة للخلافة، وكان يعقوب يدرك مدى العداء بين العباسيين والزيديين، وكان يعقوب يهدف من وراء هذه المراسلة إبعاد الخلافة عن تأييدها للطاهريين، إلا أن العكس هو الذي حدث، فالخلافة لازالت تصر على موقفها الى جانب الطاهريين، فهاهو الخليفة المعتمد في عام ٢٦١هـ يجتمع بجماعته من حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان وأظهر لهم غضبه وعدم رضاه على تصرفات يعقوب «وأفهمهم أن الخليفة لم يول

يعقوب بن ليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لانكاره دخول خراسان وأسره محمد بن طاهر.»[٦١]

واضح من النص أن الخليفة يحرض الأهالي ضد يعقوب وهذا يدل على أن الخليفة قد سحب الشرعية منه وهي التي يبحث عنها كل وال مسلم ليثبت حكمه، ومعنى أن يفقد يعقوب الشرعية، أنه أصبح حاكماً غير مرغوب فيه وتجب مقاومته، وعلى العموم، فقد توتر الموقف بين الطرفين، وتصاعد الى درجة خطيرة عندما اتهمت الخلافة يعقوب بالتشيع الأمر الذي سبب له الكثير من الحرج والمشاكل في ولاياته التي أخذت ترفضه من واقع هذا الاتهام.

لكن رغم هذا فإن يعقوب لازال يعتقد بأنه الطرف الأقوى، ولم يعبأ بتهديدات الخلافة، واستمر في توسعاته، فاتجه الى فارس وطرد منها والي الخليفة محمد بن واصل، ودخل الى رامهرمز غير عابئ بكل المواقف، وهنا شعرت الخلافة بأن الأمور تتطور لغير صالحها، ويجب ايقاف يعقوب بوسيلة أو أخرى، فلجأت أولاً الى استخدام الدبلوماسية فاجتمع الخليفة بجمع من تجار المناطق الشرقية، وأعلن أمامهم موافقته على اعطاء يعقوب خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وشرطة بغداد[٦٢].

وبهذا الموقف تقر الخلافة من جديد ولاية يعقوب وشرعيته على هذه المناطق الشاسعة، وكان على يعقوب أن يقبل هذا العرض لأنه يعتبر تراجعاً من الخلافة عن موقفها منه، لكنه أضاع فرصة ماكان يجب أن تضيع، وغره النصر الذي حققه في فترات متلاحقة، وكتب للخلافة أنه سيقرر مطالبه في قلب بغداد.[٦٤]

ترى هل هناك ما يبرر هذا الموقف المتعنت الذي وقفه يعقوب ؟

يرى بعض المؤرخين أن السبب في موقف المعارضة الذي وقفه يعقوب يعود الى كراهية الصفار للخلافة العربية ورغبته في القضاء عليها، ويرى البعض الآخر أن سيطرته على البلاد التي فتحها لايمكن تأمينها الا بالسيطرة على العراق، هذا بالاضافة الى أن هناك فريقاً آخر يرى أن بعض أبناء الاسرة العباسية قد حقدوا على الموفق سيطرته على مجريات

الأمور، فاتصلوا بيعقوب وشجعوه على التوجه الى العاصمة، وربما كان الهدف من وراء استدعاء يعقوب هو التخلص من نفوذ وسيطرة الأتراك، ويمكن أن نضيف احتمالاً آخر، وهو رغبة يعقوب في القضاء على البقية الباقية من نفوذ أبناء الاسرة الطاهرية في بغداد.

على كل حال حاولت الخلافة أن تمنع يعقوب من مواصلة زحفه نحو بغداد، وكتبت اليه قائلة: «إنه لاعمل لك في بغداد وخير لك أن تلي خراسان وفارس وغيرها من الولايات التي منحناها لك وأن ترعى أمرها، فلا يتولد الخلل، أو يكون ما يقلق له البال، فعد من حيث أتيت.»(٦٥)

وقد تصادف وصول رسول الخليفة الفترة التي كان يعقوب يستقبل وفود من الصين والهند لتهنئته بالانتصارات التي حققها، وعلمت الخلافة بهذا فانزعجت لظهور يعقوب بهذا المظهر، واستمرت معه عبر القنوات الدبلوماسية، وأرسلت اليه تدعوه الى بغداد شخصياً لينال رضى الخلافة على ما قام به من حروب ضد الخوارج والزيدية، وكانت هذه الدعوة قد سببت ليعقوب حرجاً، خاصة وأن جيشه كان يضم في صفوفه فرقة من الخراسانية الذين كانوا يكنون للخلافة كل احترام وتقدير، بالاضافة الى أن معظم قواته كانت تجل الخلافة وتحترمها، ولاغرابة في ذلك، فهي التي خرجت بالأمس القريب تقاتل الخوارج دفاعاً عن الخلافة وسيادتها، ولم يكن أمام يعقوب للتخلص من هذا الاحراج الذي سببته له دعوة الخلافة إلا أن يقنع رجاله بأنه لم يخرج إلا لتخليص الخلافة من خطر الأتراك وسيطرتهم. هذا في الوقت الذي ترى فيه بعض المصادر أن يعقوب كان يحاول أن يقنع رجاله بأنه انما خرج غيرة على الدين «انه خرج منكراً على المعتمد ومن معه من الموالي اضاعتهم للدين واهمالهم أمر صاحب الزنج.»(٦٦)

لكن ما حدث اثناء المعركة سوف يبطل هذا الزعم، أو يبين عدم قناعة رجال يعقوب بهذه المقولة لو صحت بدليل انضمامهم لجيش الخلافة الأمر الذي أدى الى هزيمة صاحبهم كما سنرى.

وعلى العموم جرت مراسلات بين الطرفين، لكنها لم تسفر عن نتيجة ايجابية، خاصة وأن مطالب يعقوب كانت استفزازية، فهو يطلب نظير عودته أن تصدر الخلافة منشوراً يفيد

بطلان مواقفها السابقة منه كاتهامه بالتشيع وأن تعترف بشرعية حكمه على خراسان وسجستان وكرمان وفارس[٦٧]، وفي تصوري أن الخلافة لو استجابت لمطالب يعقوب فإنه سيتمادى في طلباته ولن يعود عن بغداد لأنه كان قد أعد لهذا الأمر عدته.

على كل حال لم تستجب الخلافة لطلباته ولم تعتذر عن مواقفها السابقة، عندها أرسل يعقوب للخليفة رسالة يطلب منه أن يبتعد عن بغداد ليدخلها[٦٨]، وهذا منتهى التحدي.

ولكن للحقيقة لابد أن نذكر هنا بأن هذه الجرأة التي أبداها يعقوب، لاتتماشى مع الفترة التي تعيشها الخلافة العباسية، فهي على الأقل تشهد مرحلة من الانتعاش، ومحاولة التقاط الأنفاس للظهور أمام ولاتها بمظهر القوة، وأقرر هنا وبناء على ذلك الموقف أن يعقوب بن ليث كانت تنقصه الدبلوماسية والحنكة، إذ أن عرض الخلافة كان أكبر من أن يرفض. ويبدو أن الخلافة قد أدركت أن ما بذلته لارضاء يعقوب قد ذهب أدراج الرياح وأخذت تستعد لمواجهته عسكرياً، وحشدت لذلك العدة والعتاد، وقد خرج الخليفة بنفسه على رأس الحملة ومعه أخوه الموفق، وسيكون لخروج الخليفة بنفسه أثراً كبيراً في أحداث اللقاء القادم.

لم تتسرع الخلافة في اللقاء، وأخذت تتصل بجند يعقوب وقادته وقالت لهم: «إن صاحبكم جاهر بعصيانه وحالف الشيعة وانه ما جاء إلا ليهدم بيتنا ويستخلف أعداءنا فأنتم مناصروه على هذا أم لا ؟.»

فقالت طائفة: «إن عيشنا فيه وما تأتي لنا جاهنا هذا وحشمتنا هذه إلا من إقبال دولته، فما فعل شيئاً إلا فعلناه.»

وقال الأكثرون: «إنه لا علم لنا بهذه الحال التي يبيتها أمير المؤمنين، وما ظنناه يخالف أمير المؤمنين قط، فإذا أظهر العصيان لم نرض به على أية حال وانحزنا يوم اللقاء معكم ... وناصرناكم.» وكان هؤلاء القوم هم امراء خراسان[٦٩]، وعندما علم الخليفة بهذا الموقف اطمأن وأرسل الى يعقوب يقول له: «أما وقد أظهرت الكفران بالنعمة، ووافقت مخالفينا فالسيف بيني وبينك ولا خوف عندي من قلة جندي، وكثرة جندك فالحق تعالى نصير الحق والحق حقي وجندك جندي.»

وأمر الخليفة بالاستعداد للمعركة، وعندما علم يعقوب برسالة الخليفة قال بلغت مرادي[٧٠]، وعلى العموم فقد تقابلت قوات الخلافة مع قوات يعقوب عند مكان اسمه دير العاقول[٧١] وذلك في عام ٢٦٢هـ، هزم يعقوب في هذه المعركة، وأصابته ثلاثة أسهم في حلقه ويديه، وقتل جمع كبير من أصحابه، وغنمت الخلافة الكثير مما تركه رجال يعقوب من بينها أكثر من عشرة آلاف من الدواب، ومن الأموال ما يكل عن حمله ومن جرب المسك أمر عظيم[٧٢].

هكذا إذن هزم يعقوب هزيمة منكرة لم يكن يتوقعها وإنما كان يتوقع النصر بدليل عبارته التي رددها عندما تليت على مسامعه رسالة الخليفة قال يعقوب لقد بلغت مرادي، وقد تناسى يعقوب المتغيرات التي طرأت على الساحة والمعطيات الجديدة التي تمثلت في أن الخلافة كانت في هذه المرحلة تمر بمرحلة انتعاش، فالموفق ضابطاً لأمر الجيش مسيطراً عليه، هذا بالاضافة الى أن يعقوب كان مفرطاً في ثقته بجنده، صحيح أنهم كانوا يحبونه ويقدرونه ويلتفون من حوله في كل المعارك ولكن عندما كان موقفه لا يعادي الخلافة، أما وقد أصبح الأمر متعلقاً بمعادات الخلافة ومحاربتها فإن الجند لم يتقبلوا هذا الانقلاب، بل وقفوا في وجه سيدهم لصالح الخلافة[٧٣]، الأمر الذي أدى الى هزيمة يعقوب هزيمة مريرة، هذا وتذكر بعض المصادر أن الموفق اتصل بيعقوب وصور له بأنه سيسهل له أمر دخول البلاد انطلاقاً من حقده على أخيه المعتمد، لكن الموفق أطلع أخاه على هذه الاتصالات، وكانت النتيجة كما رأينا هزيمة مريرة ليعقوب لأنه وقع في حبائل هذه الحيلة الذكية، وقد قال أحد الشعراء يصور مرارة هذه الهزيمة:

ولقد أتى الصفار في عدد لها
حسن فوافتهن نكبة ناكب
أغراه ابليس اللعين بكيده
واغتر منه بوعد كاذب
وولي عهد المسلمين موفق
بالله أمضى من شهاب ثاقب

ويبدو أن من الأسباب المباشرة لهزيمة يعقوب هي انضمام جزء كبير من رجاله الى جيش الخليفة عندما اشتدت المعركة، فأصيبت البقية باحباط وخيبة أمل لما رأوا رفاقهم يقاتلون في صف الخليفة ضد يعقوب.

وعلى أثر هذه الهزيمة أصدرت الخلافة مرسوماً باعادة محمد بن طاهر الذي أطلق سراحه في دير العاقول على ولاية خراسان[٧٤]، إلا أن محاولة الخلافة هذه لم يكتب لها النجاح، وظلت خراسان نهباً للفوضى والمنازعات بين القوى المتنافسة للسيطرة عليها. كذلك قامت بنفس المحاولة بالنسبة لبلاد فارس، فأصدرت مرسوماً باعادة محمد بن واصل الى هناك عام ٢٦٢هـ علّه يتمكن من منع يعقوب من العودة الى بغداد فيما لو فكر في ذلك مرة أخرى، إلا أن يعقوب تمكن من هزيمة ابن واصل وأسره[٧٥]، كذلك دخل يعقوب معترك ميدان جديد مع ثورة الزنج التي أرسلت له تطلب منه التعاون فيما بينهم ضد الخلافة العباسية، إلا أن رد يعقوب كان واضحاً لصاحب الزنج، إذ كتب له: «قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ...»[٧٦]

معنى ذلك أن يعقوب يرفض التعاون مع صاحب الزنج ويعتبره كافراً لايجوز التعاون معه[٧٧]، ولم يكتف بذلك بل انه أمر بضرب مواقعها في منطقة الأهواز، فسار في عام ٢٦٣هـ الى النوبذجان، ومنها الى تستر وبعدها الى الاهواز حيث دخلها بعد هزيمة الزنج[٧٨]، بعدها أوقف يعقوب القتال مع الزنج حتى يتفرغ لمقاتلة الخلافة لرد اعتباره[٧٩]، وبينما هو يتأهب لذلك أصيب بمرض القولنج الذي أقعده[٨٠]، وفي أثناء المرض وصله وفد من قبل الخلافة ومعه مرسوماً بتوليته على خراسان والعراق، وجاء في رسالة الخلافة: «لقد تبين لنا أنك رجل ساذج القلب ... أرأيت كيف أن الله تعالى قد أطلعك على ضعفك وأضاعك بجندك، وحفظ بيتنا ... وإني لأعلم اليوم انك قد صحوت من غفلتك وندمت على فعالتك واننا ما نرى أحد أليق منك بامارة العراق وخراسان ... وإن لك لدينا حقوقاً كثيرة فسلكنا لك ما أخطأت نحونا، وحسبنا ما فعلت كأن لم يكن ...»[٨١]

وهذا يدل على موقف متعقل من الخلافة، فلم تعمها نشوة الانتصار الذي حققته عليه وإنما كانت تدرك بأنه رغم الهزيمة التي مني بها يعقوب، فإنه لايزال قوياً ولابد أن يحسب له حساب، لكن رد يعقوب خيب آمال الخلافة وتطلعاتها لتحسين علاقتها به، وذلك لأن رد يعقوب

كان قاسياً، ويدل مرة أخرى على قصر نظره وعدم امكانه تقدير الأمور حق قدرها وجاء في رد يعقوب: «قولوا للخليفة أني عليل، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا السيف هذا حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتفقرني فأعود الى هذا الخبز والبصل.»[٨٢]

ولم يلبث يعقوب أن توفي في عام ٢٦٥هـ بعد أن فشل في تثبيت سلطانه إلا في ايران الجنوبية[٨٣] وحدها، وقد وجد في خزانته بعد وفاته أربعة ملايين من الدنانير وخمسون مليوناً من الدراهم، ويذكر أن يعقوب كان يمتلك خمسة آلاف جمل وعشرة آلاف حمار، وكان الجند باستثناء الكبار والقادة يتسلمون الخيل والعلف من خزائنه[٨٤]. ويذكر صاحب أصفهان رواية غريبة عن وفاة يعقوب[٨٥] وعلى العموم تولى رئاسة الدولة بعده أخوه عمرو.

الدولة الصفارية بعد وفاة يعقوب

تولى عمرو بن ليث رئاسة الدولة، وكان قد شارك في بنائها مع أخيه يعقوب، وتذكر المصادر أن عمرو هذا قد أحسن في التدبير والسياسة غاية الاحسان حتى قيل «ما أدرك من حسن السياسة للجنود والهداية الى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن ليث»[٨٦] وقد كتب عمرو في أول أيامه للخليفة «بأنه سامع له ومطيع» [٨٧] وأرسل للخليفة هدية ثمينة وهي عبارة عن ثلاثمائة الف دينار، وخمسون مناً من المسك ومثلها من العنبر ومائتين من العود وثلاثمائة ثوب موشى وآنية الذهب والفضة والدواب والغلمان قيمة مائة الف دينار.»

وهكذا هدأت الامور بين الطرفين، وظلت علاقتهما طيبة، وأخذ عمرو يوطد نفوذه وسيطرته على ولاياته التي ورثها عن أخيه يعقوب، وأناب عنه عبيدالله بن عبدالله بن طاهر على شرطة بغداد وسامراء وأرسل اليه عموداً من الذهب.[٨٨]

وفي هذه الأثناء أي في عام ٢٦٦هـ وقع صدام بين عمرو وبين أحمد بن عبدالله الخجستاني الذي كان أحد قادة يعقوب ثم انفصل عنه وأعلن عصيانه وتمكن من دخول نيسابور وأساء السيرة في أهلها[٨٩]. ويذكر أنه ضرب لنفسه الدنانير والدراهم[٩٠]، وهذا يدل على استقراره وثقته بنفسه، إلا أن هذا الرجل قتل على يد غلمانه وتولى مكانه رافع بن

هرثمة في خراسان[٩١] وبعد فترة أي في عام ٢٧٠هـ ساءت العلاقة بين الصفاريين والخلافة، فأمر الخليفة بخلع عمرو بن ليث ولعنه على المنابر، وأسند ولاية خراسان لعبدالله محمد بن طاهر[٩٢]. ويلاحظ ان هذا تغيير ملحوظ في سياسة الخلافة وموقفها فما الذي شجعها على أن تنتهج هذه السياسة؟.

يبدو أن هناك أسباب وعوامل أدت الى ذلك منها:

١- قام أهالي خراسان بتقديم العديد من الشكاوي ضد الولاة الصفاريين الذين غلب عليهم الطابع العسكري.

٢- بعد قضاء الخلافة على ثورة الزنج شعرت بأن لديها القدرة والقوة ما يمكنها من فرض هيبتها وسيطرتها على الصفاريين.

٣- رفض عمرو بن ليث التخلي عن خراسان لصالح الطاهريين.

٤- اندلاع معارك بين الخلافة والصفاريين أعاد الموقف الى التوتر من جديد.

لذلك أخذت الخلافة تحرض أهالي خراسان ضد عمرو وكذلك أخذت تحرض السامانيين في بلاد ماوراء النهر ضده[٩٣]، وأصدرت مرسوماً باسناد ولاية هذه المنطقة الى نصر بن أحمد الساماني نيابة عن محمد بن طاهر[٩٤] وكان عمرو في الوقت نفسه يخوض معركة خاسرة ضد الخلافة حيث جرح قائد جيشه وأسر ثلاثة آلاف من رجاله واستأمن منهم حوالي الف رجل وغنموا من عمرو الدواب والبقر والحمير مايقدر بثلاثين الف رأس[٩٥]، وفي عام ٢٧٣هـ وقيل في ٢٧٤هـ سارت قوات الموفق الى فارس لمحاربة عمرو ولكن الموفق لم يتمكن من أخذ كرمان وسجستان من عمرو فعاد عنه وتركه لشأنه[٩٦].

وتلاحقت الأحداث في المرحلة القادمة، إذ وقع صدام بين عمرو وبين رافع بن هرثمة الذي ساءت علاقته بالخلافة الأمر الذي دفعها أن تؤيد عمرو ضد رافع، وكانت النتيجة أن قتل رافع على يد عمرو عام ٢٨٣هـ وبعد التخلص من رافع أصبحت خراسان تابعة لعمرو

حتى شاطئ نهر جيحون[٩٧]. ويبدو أن الأمور قد تحسنت بين الخلافة وعمرو بن ليث، حتى أن عمرو أناب عنه في بغداد عبيدالله بن عبدالله، وكتب اسم عمرو على الأعلام والمطارد والترسه، لكنه لم يلبث أن عزل مرة أخرى فطرحت المطارد والأعلام والترس التي كانت في مجالس الشرطة التي عليها اسم عمرو بن ليث[٩٨].

العلاقات الصفارية السامانية

بعد أن دخل يعقوب بن ليث الى نيسابور عاصمة الطاهريين أخذ يتطلع الى مد نفوذه الى بلاد ماوراء النهر على اعتبار أنها كانت من ضمن ممتلكات الطاهريين، لكن المعروف هو أن الخلافة أعطت هذه المنطقة للأسرة السامانية، وقد وافق الطاهريون على ذلك.

بدأ التوتر بين الفريقين الصفاري والساماني خاصة بعد أن دخل يعقوب الى خراسان، إذ بدأت القوات السامانية تحتشد على شواطئ نهر جيحون تحسباً لتقدم الصفاريين صوب بلاد ماوراء النهر، إلا أن نصر بن احمد أمر بسحب قواته من هناك عندما علم بانشغال يعقوب في مشاكله الداخلية[٩٩]، ثم عادت العلاقة الى التوتر من جديد خاصة بعد أن اضطربت الأوضاع العامة في بخارى، وكانت تابعة من الناحية الادارية للدولة الصفارية التي كانت منشغلة آنذاك في مشاكلها الداخلية، وكان السبب في اضطراب أحوال بخارى أن بعض القوى كانت تتطلع للاستيلاء عليها ومن هذه القوى السامانيون أنفسهم وكذلك الحسين بن طاهر الطائي حاكم خوارزم الذي دخلها وعاث فيها فساداً، الأمر الذي أجبر الأهالي الى طلب المساعدة من نصر بن احمد لانقاذهم من هذه المشاكل ومن ذلك التسيب، فأرسل نصر أخاه اسماعيل الذي دخلها وسط ترحيب الأهالي واستقبالاتهم وعلم يعقوب بما حدث في بخارى لكنه لم يفعل شيئاً بسبب انشغاله بمحاربة الزيديين في طبرستان وجرجان، كما أنه انشغل في حروبه ضد الخلافة بعد فراغه من حرب الزيديين.

وقد توطد نفوذ السامانيين وارتفعت معنوياتهم بعد وصول تقليد رسمي من الخلافة باعطائهم بلاد ماوراء النهر بشكل فعلي، الأمر الذي قطع الطريق أمام تطلعات الصفاريين في هذه المنطقة، وطوال حكم يعقوب لم يحدث نزاع بين الطرفين، وظلت الأوضاع هادئة،

حتى بدأ النزاع يتجدد بين عمرو بن ليث وبين رافع بن هرثمة الذي تمرد على الخلافة وحسم الصراع لصالح عمرو، فشعر عمرو هنا انه قدم خدمة للخلافة بقضائه على عدوها رافع، وطلب منها أن توليه بلاد ماوراء النهر(١٠٠) مكافأة له من ناحية، ولأن هذه البلاد كانت تابعة للأسرة الطاهرية. ولما كان الصفاريون قد اسقطوا الدولة الطاهرية وضموا ممتلكاتها فإنهم يعتبرون أن هذه المنطقة ايضاً لابد وأن تكون لهم.

ويبدو أن عمرو نسي أو تناسى أن اسقاطهم للطاهريين وأخذ ممتلكاتهم إنما تم رغماً عن الخلافة التي رفضت هذا ولازالت ترفضه، ومع ذلك فقد وافقت الخلافة - الخليفة المعتمد - على طلب عمرو باعطائه بلاد ماوراء النهر، وأرسل لعمرو هدية ثمينة مكونة من سبع دسوت خلع، وكانت بدلاً منسوجة بالدرر مرصعة بالجواهر واللآلي وتاج مرصع بالياقوت والجواهر مع احد عشر فرساً، وعشرة أفراس بسروجها وعدتها الذهبية لكل واحد منها سرج ولجام، وعدة ذهبية مرصعة باليواقيت واللآلي(١٠١) ... ويبدو أن التقليد الخاص ببلاد ماوراء النهر لم يصل مع الهدية، فأبى عمرو إلا وصول التقليد وهدد بخلع اسماعيل بن احمد اذا لم يف الخليفة بوعده(١٠٢)، والحقيقة أن الخلافة في هذه الفترة كانت ترغب في أن يظل التوازن قائماً بين الطرفين، لكنها عندما لمست تصميم عمرو أرسلت اليه عهداً بذلك، وعندما وصله العهد قال عمرو لرسول الخليفة.

ماهذا ؟ قال هذا الذي سألته، فقال عمرو: ما أصنع به ؟ فإن اسماعيل بن احمد لا يسلم اليَّ ذلك الا بمائة الف سيف فقال رسول الخليفة أنت سألته فشمر الآن لتتولى العمل في ناحيته، فقبل عمرو العهد(١٠٣). وفي نفس الوقت أرسلت الخلافة سراً الى اسماعيل بن احمد الساماني وقدمت له تأييداً جديداً في ولايته على بلاد ماوراء النهر(١٠٤) وجاء في رسالة الخليفة الى اسماعيل «... أخرج على عمرو واقتل جنده، وأخرج الملك من يده، فأنت بامارة خراسان والعراق أحق لأنها كانت سنوات عديدة ملك آبائك الذين غلبوا عليها من قبل، فهي حقك من الله أولاً، ثم إنك ذو سيرة صالحة محمودة ... وما أشك في أن الله تعالى سينصرك عليه ثم ان دعائي من وراءك ...»(١٠٥)

إن الدارس لمحتويات الرسالة يستطيع أن يشتم منها رائحة اتفاق مسبق بين السامانيين والخلافة لضرب الصفاريين والقضاء عليهم، ويبدو أن الخليفة كان يدرك تماماً أن

قوة السامانيين تفوق بكثير قوة الصفاريين لذلك أراد أن يضربهما بالبعض الآخر حتى يتخلص من الاسرة الصفارية التي أساءت له ولهيبة دولته في المشرق.

وعلى العموم أخذ عمرو يستعد للزحف على بلاد ماوراء النهر، فأرسل حملة أولى بقيادة محمد بن بشير، إلا أن محمد هذا قد هزم، فقرر عمرو أن يرسل حملة أخرى لقتال اسماعيل فهزم الصفاريون مرة أخرى، وكان قد وقع في أسر اسماعيل عدداً من الأسرى الصفاريين فقرر اسماعيل اطلاق سراحهم بعد أن حملهم بالهدايا. وحين أعرب رجاله عن دهشتهم قال: «ما نصنع بهؤلاء المساكين فلندعهم يعودون الى بلادهم وهم من بعد ذلك لن يخرجوا لحربنا أبداً.»[١٠٦]

وفي هذه الأثناء كتب اسماعيل بن احمد الى عمرو بن الصفار بلغة المستضعف ويحثه على السلام بينهما وعدم الاقتتال، يقول في رسالته: «إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدي ماوراء النهر، وأنا في ثغر فاقتنع بما في يدك، واتركني مقيماً بهذا الثغر.»[١٠٧] ويبدو أن لهجة الرسالة قد أطمعت عمرو وتسرب اليه الشك في قوة اسماعيل، وانه رغم كل شيء فلا يستطيع أن يواجهه، وقرر القيام بحملة يقودها بنفسه، رغم نصيحة رجاله بعدم قيادة الحملة وترك القيادة لأحد رجاله ..

رفض عمرو نصيحة رجاله وقاد الحملة حتى وصل الى نهر جيحون، وعندما ذكر له شدة النهر وصعوبة اجتيازه قال: «لو أردت أن اسكره ببدر الدراهم وأعبره لفعلت.» لكن عمرو فشل في عبور النهر وكانت قوات اسماعيل بن احمد قد وصلت الى النهر وتمكنت من عبوره، وتوجهت الى حيث ترابط قوات عمرو في مدينة بلخ[١٠٨]، وضرب اسماعيل حصاراً على جيش عمرو، وجرت معركة بين الطرفين هزم فيها عمرو وأسر[١٠٩]، وحمل الى بغداد بناء على طلبه، وعندما كان عمرو في حضرة الخليفة المعتضد وبخه قائلاً: «الحمد لله الذي كفانا شرك، وأصبح القلب فارغاً من همك»[١١٠] وظل في سجنه حتى مات في عام ٢٨٩هـ، ويروي نظام الملك رواية غريبة جرت بين عمرو بن ليث وبين اسماعيل بن احمد بعد هزيمة عمرو ووقوعه في الأسر:

بعد النصر التفت اسماعيل الى الأكابر وأمراء الجيش وقال: «نصرني الله هذا

النصر فما لأحد عليّ في هذه النعمة من منة إلا الله عز وجل» ثم قال: «اعلموا أن عمرو هذا رجل عظيم الهمة كثير العطاء ذو عدة وعديد ونظر وتدبير سديد وحرص في الأمور وسعة في العيش، ومعرفة بالحقوق، والرأي عندي أن أجتهد في ألا يؤذى بشيء وأن يخلص من هذا القيد.» فقالت الأكابر: «رأي الأمير أصوب فليأمر بما فيه المصلحة .. فأرسل الى عمر في خيمته من يقول له «ألا يقلق بالك فإني اجتهد في أن يبقي الخليفة عليك، ولو بذلت كل خزائني حتى لا تتأذى بشيء لطبت نفساً.»

فلما سمع عمرو مقالة اسماعيل قال: «لقد أعلم انه لا خلاص لي من هذا الأسر من بعد. ولكن أنت يا اسماعيل أرسل اليّ من لدنك معتمداً فإن لي مقالة تقال فينقلها عني كما سمعها ويأتيك فليبلغك إياها.» فأرسل اليه اسماعيل من فوره معتمداً، فقال عمرو للمعتمد: «قل لاسماعيل انك لم تقهرني، بل قهرني دينك السليم واعتقادك القويم وسيرتك الصالحة وسخط أمير المؤمنين عليّ، وهذا ملك استرده الله تعالى مني ووهبه لك ... وأنت الآن قد توليت ملكاً جديداً لا تملك حياله مدخراً، وأرى لي ولأخي كنوزاً وذخائر ودفائن كثيرة أحمل معي سجلها وقد وهبتها لك جميعاً حتى يشتد بها أزرك وتستظهر بها وتعد العدة وتعمر الخزانة.»

ويذكر أن اسماعيل لم يقبل بعرض عمرو هذا اعتقاداً منه بأن عمرو انما اغتصب هذه الأموال من أهلها(١١١) وبغض النظر عما جاء في هذه السطور فهي تكشف عن همة رجلين كان لهما دوراً بارزاً على مسرح الأحداث السياسية في مشرقنا الاسلامي. فما أعظم اسماعيل في موقفه وأنفته وابتعاده عن مال هو في أمس الحاجة اليه بسبب شعوره انه ربما جاء عن طريق حرام، أما عمرو فقد اعترف بهزيمته وأقر بشخصية اسماعيل التي تستحق كل تقدير واحترام.

وإذا أثيرت قضية حول أسباب هزيمة عمرو وانتهاء الدولة الصفارية نقول أن ذلك ربما يرجع الى عدة أسباب:

أن عمرو أساء السيرة في أهالي بلخ، الأمر الذي دفع الأهالي هناك أن يقفوا الى جانب اسماعيل ورجاله كذلك حسن التدبير ودقة التخطيط والتنظيم الذي سار عليه الجيش الساماني، ويضيف ابن خلكان عوامل أخرى لهزيمة عمرو فيقول:

«وقبل المعركة هرب ابن ابي ربيعة كاتب عمرو بن ليث وأحد قادته الكبار، ومعه خلق عظيم وانضموا الى اسماعيل، ثم كثر هرب أصحابه الى عدوه فضعف قلب عمرو وهرب.»[١١٢] ويفسر البعض أن هروب رجال عمرو من حوله ربما يعود لبخله فيهم[١١٣]، وربما يعود هذا الهروب والتفسخ في قوات عمرو الى المنافسة التي كانت قائمة بين العناصر الخراسانية والعناصر السجستانية في الجيش، كما أن ابن كثير يذكر أن أهل البلاد التابعة للصفاريين قد ملّوا وضجروا من سطوة الجيش الصفاري في عهد عمرو[١١٤]، وهذا كلام منطقي ومعقول، لأن المجتمعات العسكرية هذه طبيعتها ويصعب على الناس العيش في ظلها فترة طويلة من الزمن.

وبصفة عامة فقد أصيبت الدولة الصفارية كغيرها من الدول بضعف عام تسرب الى معظم مؤسساتها ودوائرها، فارتبكت أوضاعها الاقتصادية، وتخلخلت بسبب كثرة الأحداث والفتن التي تفجرت في مناطق مختلفة من بلاد الصفاريين فتعطلت عجلة الانتاج، واضطرب حبل الأمن فتعطلت التجارة، هذا في الوقت الذي كانت فيه خزانة الدولة تعاني من عدم الاستقرار ومن كثرة المصروفات والنفقات على القوات العسكرية التي دخلت في صراع دائم مع تلك الفتن والثورات التي أشعلت في أراضي الدولة من جهة ومع أعداء الدولة من جهة أخرى، أما العامل المباشر والهام في إسقاط الدولة فهو ظهور الدولة السامانية كقوة فتية في المنطقة ووقوف الخلافة الى جانبها من الناحية الشرعية والمعنوية.

بعض المظاهر الحضارية

في هذه العجالة نود الاشارة الى بعض الملامح الحضارية التي كانت عليها الدولة الصفارية التي غلب عليها الطابع العسكري منذ البداية حيث فرضت نفسها في منطقة المشرق الاسلامي بالقوة العسكرية التي كونها يعقوب في سجستان وضم اليه خراسان وفارس وكرمان حتى أصبحت دولته تمتد من بغداد غرباً حتى افغانستان وبلاد ماوراء النهر شرقاً ومن بحر قزوين شمالاً حتى الخليج العربي جنوباً. وقد ارتكزت هذه الدولة الواسعة الأرجاء المترامية الاطراف على العديد من المؤسسات التي ضمت آلافاً من الموظفين والعاملين.

وكان أكثر هذه المؤسسات أهمية واتساعاً هي المؤسسة العسكرية التي كان يرأسها الزعيم الصفاري نفسه يساعده مجموعة من القادة العسكريين. واتخذ له حرساً خاصاً كان في معظمه من الاتراك، وتوسع أخوه عمرو في استخدام الحرس، حيث يقوم بشرائهم وتدريبهم ومن ثم يوزعهم على قادته دون ان يقطع رواتبهم من خزانته ليطالعوه سراً بالأخبار ولا ينكتم عنه من أخبارهم شيء ولم يكونوا يعلمون من ينقل اليه عنهم، فكان أحدهم يحذر وهو وحده[(١١٥)].

أما بالنسبة للجيش فقد بدأ تكوينه بمجموعات من المتطوعة كما ذكرنا، وقد نذرت هذه نفسها لحرب الخوارج والمعتدين على ممتلكات الخلافة، وعندما توسعت الدولة الصفارية وضمت اليها ممتلكات جديدة انخرط في سلك جيشها عناصر مختلفة منها السجستاني والخراساني والهندي والتركي والعربي، وتكون الجيش الصفاري من فرقتين أساسيتين هما المشاة والفرسان وينتظم الجميع تحت اشراف ديوان خاص مسئول عن الترتيبات الادارية والعسكرية، وعند الالتحاق بالجيش كان على الشخص ان يتقدم الى هذا الديوان فيرسل الى أحد القادة العسكريين حيث يقوم باجراء بعض الاختبارات لمعرفة كفاءة الجندي وقدراته، فإذا أثبت المتقدم قدرة وكفاءة سجل اسمه في الديوان، ثم تصرف له بعض المستحقات من ملابس وأسلحة، ويذكر نظام الملك في هذا الصدد.

«إن القاعدة التي ظلت متبعة حتى عهد السامانيين فهي التدرج في رفع درجات الغلمان على قدر خدمتهم وفضلهم ولباقتهم بحيث انهم كانوا اذا ابتاعوا غلاماً استخدموه في الركاب سنة وهو راجل يلبس القباء الزندنيجي – وهو قماش من قطن ينسج في زندنة من اعمال بخارى – ولم يكن يؤذن لهذا الغلام في ركوب الخيل طوال تلك السنة إن سراء وإن جهراً، فإذا نما الى علمهم انه يفعل ذلك عوقب، فإذا خدم السنة قال عريف الغلمان للحاجب في ذلك وأعلمه به، حينذاك يعطونه قباء وجواداً تركياً له سرج من جلد خام ولجام من معدن سادج، فإذا خدم بالجواد والسوط سنة قلدوه في السنة التالية سيفاً معقوفاً يشده الى وسطه، وفي السنة الرابعة قوساً وكنانة يشدهما اذا ركب، وفي السنة الخامسة سرجاً أجمل ولجاماً مكوكباً وخلعوا عليه القباء الداري – قماش من القطن المخلوط بالحرير – وشد الى حلقة سرجه دبوساً، وفي السنة السادسة أمروه بالسقاية مع صاحب الخيل، وشد الى وسطه قدحاً، وفي السنة السابعة لبس ثياب الشرف وفي السنة الثامنة أعطي خيمة ذات

ستة عشر وتداً، وجعل في خيله ثلاثة غلمان ممن اشتروهم حديثاً، ولقب بعريف الغلمان وارتدى قلنسوة من لبد أسود موشى بالفضة وخلعوا عليه قباء[١١٦] كمنجوياً، ثم مايزالون به يزيدون في جاهه وتجمله ومرتبته وخيله حتى يصبح عريف خيل فحاجباً، فاذا عرفت لباقته وعوارفه في كل مكان، وتم على يديه العمل العظيم، وكان حسن المعشر محباً لمولاه لم يعقدوا له لواء الامارة، ولم يعينوا له ولاية بعينها الا اذا بلغ الخامسة والثلاثين.»[١١٧]

هذا النص يوضح التدرج الطبيعي للرتب العسكرية في جيش الصفاريين وغيرهم، وهو قائم كما يلاحظ على مدة الخدمة والقدرة والكفاءة التي يبرزها هذا الجندي أو ذاك ويظل يتدرج حتى يصل الى اعلى المراكز.

أما بالنسبة لصرف مرتبات الجند، فكانت عملية الصرف تتم كل على حسب قدره ووظيفته، فكان يصرف كل ثلاثة أشهر، وكانت اوقات الصرف تعتبر مناسبة لاستعراض الجيش والتفتيش على فرقه المختلفة ويتحدث كرديزي عن هذه المناسبة فيقول: «... ثم يجلس سهل بن حمدان العارض والدفتر أمامه فيأتي اولاً اسم عمرو بن ليث فيقدم وسطاً، فينظر العارض اليه والى حليته وفرسه وسلاحه ليختبر الجميع ويلتفت جيداً الى كل آلته فيستحسن ويمدح ثم يجعل ثلاثمائة يزنها ويجعلها في كيس ويعطيها الى عمرو ... ثم يعود أي عمرو الى المكان العالي هناك فيجلس.

ويظل ينظر الى العارض وهو يتفحص كل واحد من جميع العسكر بنفس الطريقة، ويعاين جيداً الخيل والسروج والملابس وآلة الفرسان والمشاة جميعاً فيعطي كلاً صلته حسب مركز ذلك الانسان، ويكون عنده جميع المخبرين حتى يكون واقفاً على أحوال القواد والرؤسا والكبراء[١١٨]، ويذكر ابن خلكان.

«.... ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيعرض لآلاتهم التامة ولدوابهم، ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها، فمن أخل باحضار شيء منها حرموه رزقه، فاعترض يوماً فارس كانت له دابة في غاية الهزال، فقال له عمرو: «ياهذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها، وتهزل دابتك التي تحارب وتجد بها الأرزاق ؟ إمضي فليس لك عندي شيء، لكنه عـاد فأعطاه رزقه بعد أن أوقفه الجـندي على

الحقيقة ...»[١١٩]

وقد حاول عمرو بن ليث ان تكون علاقته بجنده ورجاله علاقة ود ومحبة حتى يدين له الجيش بالطاعة والولاء. فهاهو يصدر أوامره لكبار رجاله وقادته مانعاً اياهم ان يضربوا غلمانهم الا بأمره أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد أصحابه[١٢٠].

هذا وكانت القوات الصفارية موزعة تحت قيادات هي موضع ثقة القائد العام الذي هو رئيس الدولة، وكانت درجات الجند متفاوتة، ويذكر ان حوالي الفاً من الرجال من ذوي الغنى الظاهر والبصر بوسائل الحروب والنكاية في الاعداء اختارهم يعقوب عن تجربة واختبار وجعلهم أصحاب الأعمدة الذهبية التي كان كل منها يزن الف مثقال من الذهب ثم يليهم في المكانة والغنى والقيادة نوع ثان من الرؤساء هم أصحاب الأعمدة الفضية وكان يتخذ من حملة الاعمدة الذهبية والفضية حرساً له.[١٢١]

ويبدو أن العلاقة بين الجند وقادتهم بصفة عامة كانت طيبة الى حد كبير، فالجميع يعمل من أجل الدولة والمحافظة عليها، وهم مخلصون الى حد كبير، حتى أن يعقوب أظهر لرسل الخلافة في مناسبة من المناسبات مدى اخلاص جنده وصدقهم حتى أن رئيس البعثة قال له: «ما رأيت ايها الامير كاليوم، فقال يعقوب ... وأعجب منه ما أريك اياه ... ثم قربوا من الموضع الذي كان فيه عسكر الحسن بن زيد، فوجدوا البدر والكراع والسلاح والعدد وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه شيء ولا دنوا اليه، معسكرين بالقرب منه بحيث يرونه بالموضع الذي خلفهم فيه الصفار .. فقال له الرسول: «هذه سياسة ورياضة راضهم الامير بها الى أن تأتي له منهم ما أراد.»[١٢٢]

هذا ما يتعلق بالقوات المسلحة، ومدى الاهتمام بها وبمظهرها وتسليحها وفرقها ومرتباتها وكل هذا كان يسير وفق نظام محدد ومعروف وباشراف مباشر من رئيس الدولة ومساعديه.

ومن المؤسسات الحكومية التي اعتمدت عليها الدولة الصفارية، ديوان البريد الذي كان يقوم بمهمة نقل الرسائل بين ارجاء الدولة الواسعة، وكذلك حمل الاخبار من والى

سجستان بشكل منتظم وعندما دب الضعف والفساد في دولة الصفاريين وعجز رجال البريد عن القيام بمهمتهم اعتمد عمرو بن ليث على جهاز أشبه بجهاز البريد وهو جهاز الاستخبارات العسكرية ومهمته نقل أخبار القادة والعمال أولاً بأول الى سجستان، فيكون عمرو على بينة بما يدور في بلاده، حتى أدق التفاصيل التي كانت تجري في مختلف الاجهزة الادارية، وكان عمرو بن ليث الصفار قد درب هؤلاء تدريباً خاصاً فقاموا بمهمتهم بنجاح.(١٢٣)

كما كانت الادارة المالية من ضمن الادارات الهامة التي اعتنى بها الصفاريون، إذ يذكر كرديزي «أن عمرو بن ليث قد ضبط شئون امارات خراسان على اتم واحسن ما يكون ... ويقال أن عمرو كانت له اربع خزائن، واحدة منها للسلاح والثلاثة الباقية للأموال، وكانت دائماً معه، احداها خزانة مال الصدقات والجزيات ومايشبه ذلك وكان خراجها في وجه متعلقات الجيش، وخزينة أخرى خاصة بكل ما يجمع من الغلال والضياع، وكان خراج تلك على أوجه النفقات والمطبخ ومايشبه ذلك(١٢٤) وهناك خزينة تعتمد في دخلها على ما يجمع من الأحداث ومصادرات الحشم الذين يثبت أن لهم ميلاً للأعداء وكان خراجها يصرف على وجه الصلات للحشم والمخبرين والرسل وما يشبه ذلك.»

وهكذا يوضح كرديزي بعض الامور التنظيمية المتعلقة بمالية الدولة فيتحدث عن بعض الموارد والمصارف. أما نظام الملك فيذكر في هذا الصدد «بأنه كان للملوك خزانة تنقسم الى قسمين اساسيين، وهما خزينة أصلية تمتلكها الدولة، ولايجوز الصرف منها الا عند الضرورة القصوى، والأخرى خزينة الانفاق، وكان معظم المال يوضع في الخزانة الأصلية، أما خزانة الانفاق ففيها الشيء اليسير، ولم يكونوا يأمرون بالانفاق من الخزانة الأصلية الا اذا الجأتهم الضرورة الى ذلك، فإذا أخذوا منها شيئاً أخذوه على سبيل القرض، ووضعوا مكانه غيره بسرعة، ولما كانوا يخشون إن هم أنفقوا الدخل كله ثم بغتتهم الحاجة الى المال أن يقعوا في ضائقة مالية، ويجد التقصير والتأخير، الى هذا المهم سبيلاً فإنهم لم يكونوا يستبدلون بذلك المال الذي يجعل للخزانة من دخل الولايات غيره قط أو يحولونه، وذلك حتى تجري المشاهدات على وجهها وفي اوقاتها، ولا يقع التقصير ولا التأخير في المراسيم والصلات .... وكانت كل الخزائن عامرة، وكان الناس في راحة تامة وطمأنينة أبداً، فلم يلحق مخلوقاً أذى من ناحية المال.(١٢٥)

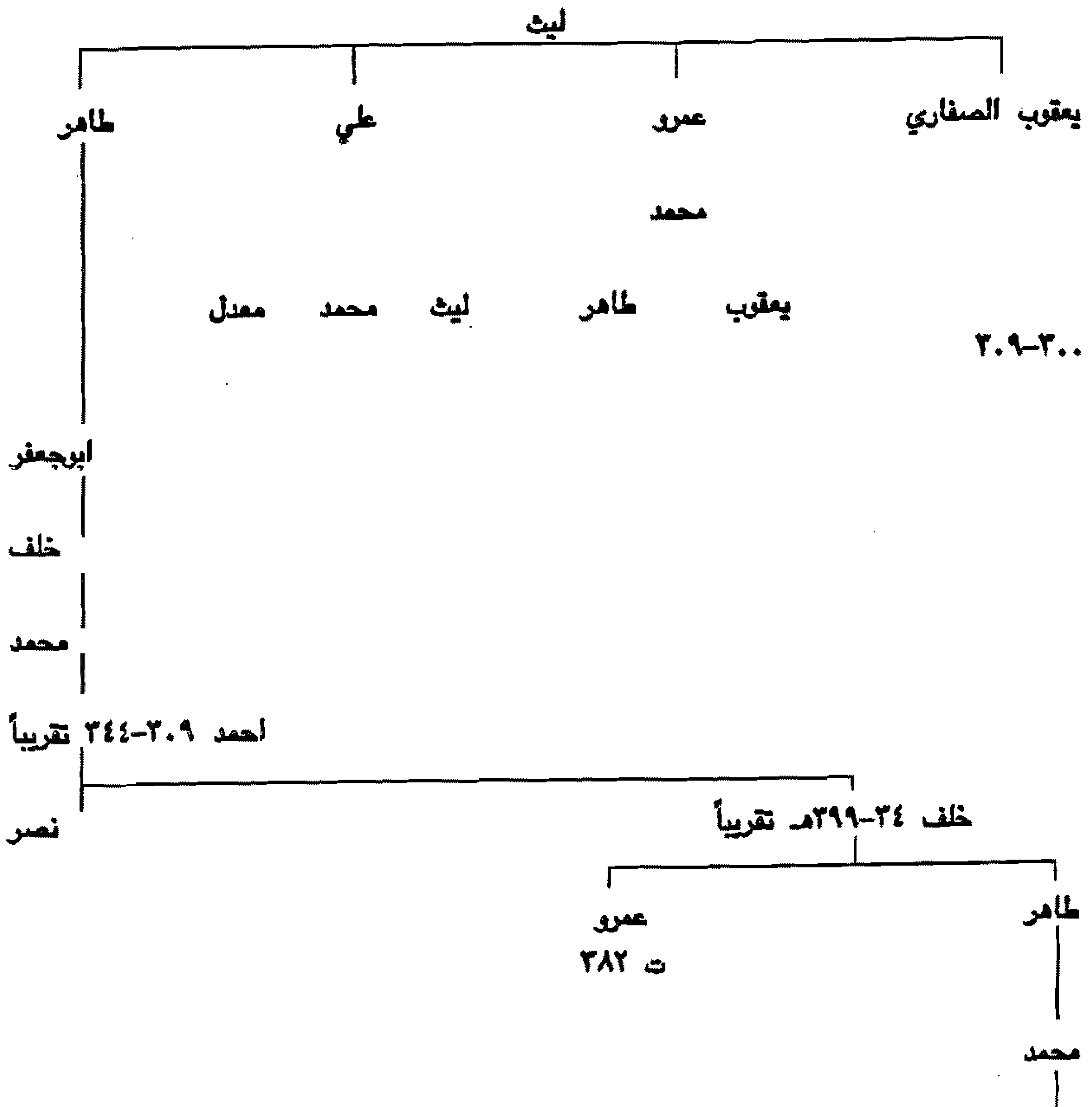
وهذه أمور متبعة في أيامنا هذه وفي كل دول العصر إذ لكل دولة احتياطي من المال تلجأ اليه في وقت الأزمات والملمات.

وعلى العموم فقد كان النظام المالي للدولة يقضي أن يكتب حساب مالي للولايات التابعة للدولة وأن يوضح المجموع منها والمنصرف، ويمكننا الاستدلال عن ميزانية الدولة الصفارية بما ذكرناه عن ميزانية الدولة الطاهرية لأن الصفاريين ورثوا عنهم ممتلكاتهم وحتى نظمهم في كثير من الأمور.

الدولة الصفارية

٢٥٤ - ٢٩٦هـ / ٨٦٨ - ٩٠٨م

٢٥٤هـ	يعقوب بن ليث	٨٦٨م
٢٦٥هـ	عمرو بن ليث	٨٧٩م
٢٨٧-٢٩٦	طاهر بن محمد بن عمرو بن ليث	٩٠٠-٩٠٨م
	ثم تولى السامانيون	



هناك سلسلة أخرى وردت في كتاب «تاريخ الدولة الاسلامية»
أحمد السعيد ص ٢٧١

الحواشي

١- ابن الأثير : الكامل ٦٤/٧

٢- نفس المصدر ص ٦٥

٣- كرديزي نفس المصدر ص ١٢

٤- قحطان الحديثي: حركات الخوارج في خراسان ، مجلة كلية الآداب عدد ٦ ص ٥٤

٥- المسعودي: مروج الذهب ٢٠٣/٤-٢٠٤

٦- ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٦٤/٥

٧- المسعودي: مروج الذهب ٢٠٤/٤

٨- الاصطخري: مسالك الممالك ص ٢٤٧

٩- ياقوت: معجم البلدان ٧٤/٤

١٠- المسعودي: مروج الذهب ٢٠٤/٤

١١- نفس المصدر والصفحة

١٢- البيهقي: تاريخ البيهقي ص ٢٧١

١٣- محمد حلمي: الخلافة والدولة ص ١٢٦ ط ١٩٥٩

١٤- المسعودي: مروج الذهب ٢٠٤/٤

١٥- نفس المصدر والصفحة

١٦- الطبري: قسم ٣ جـ ١٨٨٤/١٢ - ابن الاثير: ٩٥/٧

١٧- بارتولد: تركستان ص ٢٣٩-٣٤٠

١٨- ابن خلكان: وفيات الاعيان ٤٤٤/٥

١٩- الاصطخري: مسالك الممالك ص ٢٤٦-٢٤٧ ابريل ١٩٢٧
Comb. Hist. of Iran p. 109

٢٠- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٤٥/٥

٢١- الاصطخري: مسالك الممالك ٢٤٧

٢٢- ابن الاثير: الكامل ١٨٥/٧ - ابن خلكان: نفس المصدر والصفحة

٢٣- ابن خلكان: نفس المصدر والصفحة

٢٤- ابن الاثير: نفس المصدر ١٨٥/٧

٢٥- ابن الاثير: نفس المصدر والصفحة - ابن خلكان: المصدر والصفحة

٢٦- الطبري: ١٦٦٨/١٢ - الشابشتي: الديارات ص ٨٣

٢٧- اليعقوبي: مصدر سابق ٤٧١/٢ - ابن خلدون: العبر ٦٢١/٣

٢٨- ابن الاثير: نفس المصدر والصفحة - Qlubb. p. 78

٢٩- Comb. Hist. of Iran p. 114

٣٠- كرديزي: مصدر سابق ص ١٣ - ابن خلكان: ٥/٤٤٦

٣١- ابن خلكان: المصدر والصفحة

٣٢- ابن خلدون: العبر ٣/٦٣٦

٣٣- ابن خلكان: نفس المصدر والصفحة

٣٤- يذكر ابن حوقل ان جبايتها كانت تقدر بخمسمائة الف دينار كل سنة. صورة الأرض ص ٢٧٣ ط بيروت.

٣٥- ابن خلكان: نفس المصدر ٥/٤٤٧

٣٦- الطبري: ١٢/١٧٠٠ - ابن كثير: البداية ١١/١٥ - ابن الاثير: ٧/٦٧

٣٧- الطبري: ١٢/١٦٩٨

٣٨- ابن خلكان: المصدر السابق ٥/٤٤٨

٣٩- نفس المصدر ص ٤٤٩

٤٠- الطبري: نفس المصدر ١٧٠٥ - ابن الاثير: ٧/٦٨

٤١- ابن خلكان: نفس المصدر ٥/٤٥٦

٤٢- نفس المصدر ٤٥٢

٤٣- ابن الاثير: نفس المصدر ٧/١٩٤

٤٤- نفس المصدر والصفحة

٤٥- الطبري: نفس المصدر ١٨٤١ - ابن الاثير: نفس المصدر ٧/٢٤٧

٤٦- Bosworth. The GHaznavids p. 35

٤٧- ابن الاثير: نفس المصدر ٧/٢٤٧

٤٨- كرديزي: نفس المصدر ص ٧، ابن الاثير: نفس المصدر ٧/٢٤٧

٤٩- ابن خلدون: العبر ٣/٦٥٢ - ابن الاثير: ٧/٢٤٧

٥٠- الطبري: ١٢/١٨٧٥ - تركستان: ٢٤٣

٥١- كرديزي: نفس المصدر ص ١٤

٥٢- كرديزي: نفس المصدر ص ١٥ - البيهقي: ٢٧٠ - ٢٧١
ابن الاثير: ٧/٢٦٢

٥٣- ابن الاثير: ٧/٢٦٣ - Saunders. p. 118
Comb. Hist. of Iran p. 114-115

٥٤- سوف تثبت الاحداث صحة ذلك.

٥٥- الطبري: نفس المصدر ١٨٨٢/١٢ - ابن الاثير: نفس المصدر ٩٣

٥٦- الطبري: نفس المصدر ١٨٨٣ - ابن الاثير: ٩٥

٥٧- كرديزي: نفس المصدر ص ١٥ - ابن الاثير: ٢٦٩/٧

٥٨- كرديزي: المصدر والصفحة

٥٩- الطبري: نفس المصدر ١٨٨٤-١٨٨٥ - ابن الاثير: ٢٦٨/٧-٢٦٩

٦٠- *ابن الاثير*: ٢٦٩/٧ - وهناك تفاصيل كثيرة في :
Comb. Hist. of Iran p. 115

٦١- الطبري: نفس المصدر ١٨٨٧ - ابن الاثير: الكامل ١٠٢/٧

٦٢- *ابن الاثير*: الكامل ٩٨/٧

٦٣- نفس المصدر ص ١٠٣ - *ابن خلكان*: نفس المصدر ٤٥٥

٦٤- الطبري: ١٨٩٢/١٢ - نظام الملك: سياست نامه ١٢
ابن الاثير: ١٠٣/٧ Saunders p. 118

٦٥- نظام الملك: سياست نامه ص ٤١

٦٦- المسعودي: مروج الذهب ٤٧٥/٢

٦٧- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٥٥

٦٨- نظام الملك: نفس المصدر ص ٤٢

٦٩- المصدر والصفحة

٧٠- المصدر والصفحة

٧١- الطبري: ١٨٩٢/١٢ - ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦١
Comb. Hist. of Iran p. 87

٧٢- ابن الاثير: نفس المصدر ٢٩١/٧

٧٣- الطبري: ١٩٨٤/١٢

٧٤- نفس المصدر ١٨٩٦ - ابن الاثير: ١٠٤/٧ - المسعودي ٢٠١/٤

٧٥- كرديزي: نفس المصدر ص ١٥ - الطبري: ١٩١٢/١٢
ابن الاثير: ٣١٠/٧

٧٦- ابن الاثير: ٢٩٢/٧

٧٧- Muir p. 550 أحمد عدوان: الدولة الحمدانية ص ٤٢

٧٨- كرديزي: نفس المصدر ص ١٦ - الطبري: ١٩١٢/١٢

٧٩- الطبري: ١٩١٤/١٢ - ابن الاثير: ٣٠٨/٧

٨٠- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦٢ - ابن الاثير: ٣٢٥/٧

٨١- نظام الملك: نفس المصدر ٤٣-٤٤

٨٢- المصدر السابق ص ٤٤ - ابن الاثير: الكامل ٣٢٥/٧

ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦٣ - Glubb. p. 87

٨٣- بارتولد: مصدر سابق ٢٤٣

٨٤- المصدر السابق ٣٤٤ - ابن خلكان: مصدر سابق ٤٦١

٨٥- الاصفهاني: محاسن اصفهان ص ٣٨

ويذكر صاحب هذا الكتاب بخصوص موت يعقوب أن يعقوب لما عزم على قصد اصفهان في منهزمه عن مواقعة أحمد بن عبدالعزيز مغضباً متوعداً لأهلها .. فزع أهل اصفهان الى المصلى والمساجد ... فثابروا على الدعاء فمات يعقوب فجاة ...» والكاتب متحمس لأهل أصفهان ويعتقد في بركتهم ... !!

٨٦- ابن خلكان: نفس المصدر ص ٢٦٤

٨٧- الطبري: نفس المصدر ١٩٣١ - Glubb. p. 87

٨٨- الطبري: مصدر سابق ١٩٣٦/١٣ - ابن الاثير: ٣٣٢/٧

٨٩- الطبري: نفس المصدر ١٩٩٣/١٣ - ابن خلكان: ٤٦٧/٥

ابن الاثير: نفس المصدر ٣٠١/٧

٩٠- الطبري: نفس المصدر ٢٠٠٩/١٣

٩١- المصدر السابق ٢٠٣٩/١٣ - ابن الاثير: الكامل ٣٠٣/٧

٩٢- ابن الاثير: الكامل ٤١٤/٧ - ابن خلكان: ٤٦٧/٥

٩٣- النرشخي: تاريخ بخارى ص ١١٨ ط دار المعارف القاهرة ، تعريب أمين عبدالمجيد بدوي - نصر الله مبشر.

٩٤- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦٧/٥

٩٥- ابن الاثير: نفس المصدر ٤١٦/٧

٩٦- نفس المصدر ٤٢٦

٩٧- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦٨/٥ - ابن الاثير: ١٦٤/٧

٩٨- الطبري: مصدر سابق ٢١١٧/١٣ - ابن الاثير: ١٥٦/٧-١٥٧

٩٩- المصادر السابقة.

١٠٠- كرديزي: ص ١٩

١٠١- نفس المصدر والصفحة

١٠٢- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦٩/٥

١٠٣- المصدر والصفحة

١٠٤- Glubb. p. 88

١٠٥- نظام الملك: نفس المصدر ص ٤٥

١٠٦- فامبري: ص ١٠١ تاريخ بخارى

١٠٧- ابن الاثير: نفس المصدر ٥٠١/٧

١٠٨- نظام الملك: نفس المصدر ص ٤٦ - *ابن الاثير: الكامل* ٥٠١/٧-٥٠٢

١٠٩- Bosworth. The GHaznavids 28

Glubb. p. 20

١١٠- كرديزي: نفس المصدر ٢٠-٢١

١١١- نظام الملك: نفس المصدر ص ٤٧-٤٨

١١٢- ابن خلكان: نفس المصدر ٤٧٦/٥

١١٣- بارتولد: تركستان ٣٥٢

١١٤- ابن كثير: *البداية* ٨١/١١

١١٥- ابن كثير: نفس المصدر ١٧٩/٧

١١٦- «كنجه» من نواحي اصفهان وهي معروفة بجمال أقمشتها

١١٧- نظام الملك: نفس المصدر ص ١٤٠-١٤١

١١٨- كرديزي: نفس المصدر ص ١٨ - ابن خلكان: نفس المصدر ٤٦٤/٥

١١٩- ابن خلكان: المصدر السابق والصفحة.

١٢٠- ابن الاثير: الكامل ١٧٩/٧

١٢١- بارتولد: مصدر سابق ٣٤٤

١٢٢- محمد حلمي: الخلافة والدولة ص ١٣٠ ط ١٩٥٩

١٢٣- Comb. Hist. of Iran 4 p. 162

١٢٤- كرديزي: مرجع سابق ص ١٧

١٢٥- نظام الملك: مرجع سابق ص ٢٩٧

الدولة الزيدية ٢٥٠ - ٣١٦هـ

اتضح لنا مما سبق أن نفوذ الخلافة العباسية في منطقة المشرق الاسلامي أخذ في الانحسار خاصة بعد أن بدأ الضعف والوهن يدب في أوصال الدولة الطاهرية التي أخذت تترنح تحت ضربات الحركة الصفارية والتي حققت مكاسب كبيرة على يد مؤسسها يعقوب بن ليث وبينما كانت المنطقة تئن تحت وطأة هذه الأحداث كانت الدعوة الزيدية تنتشر في منطقة طبرستان على يد خلاياها السرية التي تعمل هناك.(١)

ويبدو أن الدعوة وجدت قبولاً لدى سكان المنطقة لأنهم كانوا يعانون من مشاكل سياسية وأخرى اقتصادية ويتمنون الخلاص منها، وسنجد أن رجال الدعوة الزيدية سوف ينتهزون الفرصة لصالح دعوتهم، ويحققوا نجاحاً ملموساً لأنهم اختاروا الزمان والمكان المناسبين.

فمنطقة طبرستان منطة جبلية وعرة المسالك متشعبة الطرق يصعب اختراقها ويسهل الدفاع عنها وكذلك الحال بالنسبة لبلاد الديلم(٢) التي آزرت طبرستان(٣) في موقفها من الدعوة الزيدية، بل وأصبحت تتحمل مسئولية كبيرة لحماية رجال الدعوة ومؤازرتهم. كما أن سكان هذه المناطق كانوا يتعاطفون مع الاسرة الزيدية، ويرون أحقيتهم في الخلافة دون الاسرة العباسية، وقد خضعت منطقة طبرستان(٤) الى الدولة الطاهرية التي عينت عليها ولاة لم يوفقوا في حكم البلاد، فهاهو سليمان بن طاهر يعين نيابة عنه فيها محمد بن أوس الذي قام بدوره بتقسيم هذه المنطقة بين أولاده، وكانوا أحداثاً تنقصهم التجربة والممارسة، فأساءوا الى السكان وقهروهم(٥)، ويصور لنا الطبري هذه الحالة بقوله: «وعامل طبرستان يومئذ سليمان بن عبدالله بن طاهر، والمتولي على سليمان، والغالب على أمره محمد بن أوس البلخي، وقد فرق محمد بن أوس ولده في مدن طبرستان، وجعلهم ولاتها وضم الى كل واحد منهم مدينة منها، وهم أحداث سفهاء، قد تأذى بهم وبسفههم من تحت ايديهم من الرعية، واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبدالله سفههم وسيرهم فيهم وغلظ سوء أثرهم فيهم.»(٦)

وقد كانت أكثر المناطق الطبرية ضرراً منطقتا كلار وشالوس، حيث يتولاهما أحمد

بن محمد الذي عرف بظلمه وجبروته، فقد كان يجمع الضرائب في السنة الواحدة أكثر من مرة[٧]، ولا أريد أن أضيف شيئاً الى نص الطبري، فهو غني عن الشرح والبيان، إذ يبين مدى ما كان يتحمله الأهالي من إدارة يتولاها رجال عديمي الخبرة قليلي الممارسة، فعمت الفوضى البلاد واستشرى الفساد والظلم، وتذمر الأهالي الذين انقسموا الى قسمين.

قسم باع أرضه ورحل الى مناطق مجاورة في بلاد الديلم للتخلص من هذه الأوضاع القاسية[٨]، والقسم الآخر استمر في أرضه مع شعوره بوجوب رفض الأمر الواقع، ومحاولة تغييره الى الأحسن، معنى ذلك أن النفوس قد أصبحت في هذه المنطقة مهيئة للثورة والتمرد ضد ولاة المنطقة، لكنهم بمفردهم لا يتمكنون من تحقيق مآربهم، فأخذوا يبحثون لهم عن مؤيدين وحلفاء يساعدوهم ويشدوا من أزرهم، فراسلوا الديلم وطلبوا منهم المساعدة، فاستجاب لهم هؤلاء لأنهم يحقدون على الطاهريين وكذلك على الخلافة في بغداد والسبب هو أن محمد بن أوس هاجم بلادهم رغم انهم كانوا في حالة موادعة ومصالحة[٩]، فسبى ونهب وقتل الكثير، ومما زاد الطين بلة أنه في عام ٢٥٠هـ ثار يحيى الطالبي في منطقة الكوفة، إلا أن الثورة لم توفق وقتل قائدها على يد محمد بن عبدالله بن طاهر، فأراد الخليفة المستعين أن يقدم له مكافأة على خدماته فأقطعه أراضي في منطقة كلار وشالوس، فأرسل محمد بن طاهر بعض مساعديه، وعلى رأسهم رجل نصراني اسمه جابر بن هارون، ليضموا هذه الاراضي ولم يكتفوا بما أقطعهم الخليفة، ولكنهم أضافوا اليها أرضاً مواتاً مجاورة لها، وإذا علمنا أن أهالي كلار وشالوس كانوا يستفيدون من تلك الاراضي في رعي مواشيهم، لذلك تصدوا للطاهريين ومنعوهم من أخذ هذه الأراضي.[١٠]

وهكذا يزداد التوتر بين أهالي هذه المنطقة وبين الطاهريين، ويصور الطبري هذا الموقف بقوله: «فلما أيقن القوم بذلك راسلوا جيرانهم من الديلم وذكروهم وفاءهم لهم بالعهد الذي بينهم وبينهم وما ركبهم به محمد بن أوس من الغدر والقتل والسبي وأنهم لا يأمنون من ركوبه إياهم بمثل الذي ركبهم به، ويسألونهم مظاهرتهم عليه وعلى من معه.»

هذا النص يوضح أن أهالي كلار وشالوس راسلوا الديلم وطلبوا منهم أن يقف الجميع ضد الخطر الذي يهددهم فاستجاب الديلم لطلب الأهالي رغم أنهم لم يكونوا وإياهم على دين واحد، فالديلم مازالوا على الوثنية – وإن كان هناك قلة من المسلمين بينهم –

ويستطرد الطبري في حديثه فيورد رد الديلم «فأجابهم الديلم الى ما سألوهم من ذلك، وتعاقدوا هم وأهل كلار وشالوس على معاونة بعضهم بعضاً على حرب سليمان بن عبدالله بن طاهر وابن أوس وغيرهم ممن قصدهم بحرب.» واضح من النص أن تحالفاً قد بدأ بين الطرفين، وهذا التحالف كان موجهاً ضد الطاهريين ومن يقف الى جانبهم، ويبدو أن المقصود هنا هو الخلافة، ولا يجب أن نستغرب هذا الموقف، فالعلاقة بين الديلم والخلافة غلب عليها طابع التوتر والعداء، وعلى العموم فالتذمر بين جماهير طبرستان والديلم أخذ يتسع ويزداد مع مرور الأيام، ولكن هذا التذمر يحتاج الى من ينظمه ويخرجه الى حيز التنفيذ. وهنا لابد وأن نشير بأن عيون رجال الدعوة الزيدية كانت ترقب ما يحدث عن كثب، لأنها كانت متواجدة بين أظهرهم، تدعو لاسناد زعامة المسلمين الى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر تعارضه الخلافة العباسية.

بدأ الاتصال بين الزعامة المحلية في طبرستان (كلار وشالوس) وبين أبناء الاسرة الزيدية، فلماذا اذن وقع اختيار هذه الزعامة على أفراد هذه الاسرة ؟ والاجابة هنا يمكن تلخيصها في الآتي :-

١- إن العداء والمنافسة بين الاسرة الزيدية والعباسية كان قائماً بشكل سافر، لذلك فهناك امكانية الاستفادة من قيادة هذه الاسرة نظراً لخبرتها وممارستها في مثل هذه الظروف.

٢- إن آل البيت كانت لهم في قلوب الأهالي مكانة عالية، فإذا ما اعلنت الحركة عن هويتها، فإن المتوقع أن اعداداً كبيرة من المؤيدين والانصار سوف ينضوون تحت رايتهم، وبذلك تكتسب حركتهم الطابع الشعبي الذي له قاعدة عريضة.

٣- وفي نفس الوقت فإنهم يدركون ان الحركة العلوية لن ترفض هذا العرض أو التحالف الذي يضمن لها عمقاً استراتيجياً وزخماً بشرياً هائلاً ضد عدوهم المشترك، إذا جاز هذا التعبير، فالحركة في حاجة الى قاعدة شعبية ترتكز عليها، وفي نفس الوقت فالحركة الشعبية في طبرستان تحتاج الى قيادة لها لتأخذ بيدها وتنقذها من الظلم الواقع عليها.

والغريب أن الديلم يوافقون على الانضمام لهذه الحركة الأمر الذي دفع بعض المؤرخين أن يستغرب هذا الموقف قائلاً: «وصاروا جميعاً - الديلم وأهل كلار وشالوس - بما اشتملهم من الجور متفقين على عداوة السلطان واستئصال وطأته ...»

اتصلت زعامة الأهالي بشخصية علوية بارزة وهي محمد بن ابراهيم، وكان يقيم في طبرستان، وطلبوا منه أن يقود حركتهم، لكن محمداً هذا اعتذر لهم بلباقة، وأوضح لهم بأن هناك من هو أكثر منه كفاءة ومقدرة، ويستطيع أن يقود تحركهم الى بر الأمان، فرحم الله امرئاً عرف قدر نفسه فجلس دونه، إذ قال لهم: «هو أقوم بما دعوتموه اليه مني.»[١١] فدلهم على الحسن بن زيد - بن محمد بن أسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب - وكان يقيم في مدينة الري[١٢]، وجرت الاتصالات فاقتنع بقيادة الحركة، وشد الرحال الى حيث الانصار، ويصور الطبري الموقف بقوله: «فوافاهم الحسن بن زيد وقد صارت كلمة الديلم وأهل كلار وشالوس واحدة[١٣] على بيعته وقتال سليمان بن عبدالله.» ويعدد الأطراف التي بايعته «ابنـــاء رســـتم - محمد وجعفر - زعيما كلار وشالوس وجماعة أهل الثغور، ورؤساء الديلم ... وأهل رديان ...»[١٤]

قيام الدولة

كان وصول الحسن بن زيد الى طبرستان عام ٢٥٠هـ ومبايعته هناك يعني بداية قيام دولة جديدة لها توجهاتها المعارضة للخلافة ومبادئها، لذلك فإن هذه الدولة الجديدة سوف تواجه العديد من المشاكل، ومن جهات وأطراف متعددة، يأتي في مقدمتها الطرف الأكثر ضرراً من قيامها وأعني به الدولة الطاهرية، أما الطرف الثاني الذي لم ولن يرضى عن قيام الدولة الزيدية هو الخلافة العباسية، أما الطرف الثالث الذي سوف يخلق مشاكل وصعوبات في وجه الدولة الجديدة هو الدولة الصفارية الناشئة التي أخذت هي الأخرى في توسيع ممتلكاتها، ولكل من هذه الاطراف مبرراته في الصدام مع الزيديين كما سنبين الآن.

فمنطقة طبرستان كما هو معروف كانت تابعة للدولة الطاهرية التي عينت عليها محمد بن أوس، وقد تصدى هذا الوالي للدعوة الزيدية أثناء مرحلتها السرية، حيث تذكر المصادر،

أنه نمى الى علمه بأن شيئاً ما يدور على أرض طبرستان، وأن الأمور لا تسير لصالحه، فبث عيونه في كل مكان، ولكن دون أن يتمكن من اكتشاف أمر الخلايا السرية التابعة للدعوة.

أما في هذه المرحلة وبعد أن اتضحت الامور وعرفت قيادة الدعوة وتنظيمها، فقد حشد محمد بن أوس قواته ليتصدى لها ويمنعها من تحقيق أهدافها، وكانت بداية الاحتكاكات في شهر رمضان عام ٢٥٠هـ وكانت النتيجة لصالح الحركة الزيدية[١٥]، خاصة وقد وصلتها مساعدات من الديلم، حيث يقول العاملي: «وجاء الى الداعي مدد من جيلان ... وانضم الى الحسن أربعة آلاف فارس من أصحاب وهوذان الديلمي» ولكن الهزيمة التي وقعت بقوات محمد بن أوس لم تكن قاتلة ولم تفت في عضد الطاهريين، حيث تصدى سليمان بن عبدالله بن طاهر صاحب طبرستان، لكنه هو الآخر لم يوفق وهزم في شهر ذي الحجة من نفس العام. ويذكر ابن الاثير[١٦] أن سليمان بن طاهر قد انهزم أمام الحسن لأنه لم يكن راغباً في قتاله، لأن الطاهريين في ظن ابن الاثير كانوا يتشيعون ويدلل على ذلك بأبيات من الشعر وردت على لسان سليمان يقول:

نبئت خيل ابن زيد أقبلت خبباً   تريدنا لتحسينا الأمرينـــــا
ياقوم إن كانت الانباء صادقـة   فالويل لي ولجميـع الطاهرييـنا
أما أنا فإذا اصطفت كتائبنـا   أكون من بينهم رأس الموليـنـا
فالعذر عند رسول الله منبسط   اذا احتسبت دمـاء الفاطميينـا

وفي ظني أن هذا أمر بعيد عن الدقة والصواب بدليل ما كان عليه الطاهريون من علاقات ود وتعاون وثقة مع الخلافة العباسية، ولو كان الطاهريون كما يعتقد ابن الاثير لكانت هذه العلاقات عكسية تماماً.

وخلال العامين التاليين كانت الحرب سجالاً بين الطرفين إلا أن نهايتها كانت تأكيد سيطرة الحسن على منطقة طبرستان وهزيمة الطاهريين[١٧] الذين تخلوا أيضاً عن منطقة جرجان، وكان يليها إذاك محمد بن طاهر الذي هزم رغم الاستعدادات التي بذلت والأموال الطائلة التي أنفقت[١٨].

هذا عن علاقة الزيديين بالدولة الطاهرية التي كانت تدافع عن نفسها وممتلكاتها

وهيبتها وكذلك عن هيبة الخلافة في منطقة المشرق الاسلامي.

أما عن موقف الخلافة العباسية، فإنها لم تقف مكتوفة الأيدي أمام ما يدور على أرض طبرستان، ولن تسمح - اذا تمكنت - الزيديين أن يحققوا أهدافهم ويقيموا دولتهم وذلك للأسباب التالية:

١- إن نجاح الحركة الزيدية في إقامة دولة لها يعني تقليص النفوذ السياسي والمذهبي للخلافة العباسية في هذه المنطقة والاطاحة بهيبتها في اقليم تعتبره من الأماكن الحيوية لها.

٢- المعروف أن المشرق الاسلامي كان يشكل بالنسبة للخلافة مصدراً بل مورداً هاماً من موارد دخلها، فإذا فقدته أو فقدت بعضه فإن هذا المورد سوف يتوقف أو يتخلخل.

٣- المشرق الاسلامي يعتبر قاعدة أساسية من القواعد التي ارتكزت عليها الخلافة من الناحية البشرية والمعنوية بل وتعتبر عمقاً استراتيجياً لايستغنى عنه، فإذا بعثرت هذه المنطقة ومزقت فإن ذلك يؤثر على قوة الخلافة العباسية وقدرتها على التأثير والتعامل مع بقية المناطق.

٤- إن نجاح الحركة الزيدية يدفع بها الى توسيع ممتلكاتها وسوف يكون هذا على حساب الخلافة وممتلكاتها وعلى حساب أنصارها ومؤيديها من الطاهريين.

٥- إن نجاح الحركة الزيدية قد يشجع بعض الولاة على التمرد والوقوف في وجه الخلافة.

وللعوامل سالفة الذكر وقفت الخلافة موقفاً حاسماً ضد الدعوة الزيدية وتحركها، وحاولت أن تضع حداً لها بشكل أو آخر وبمختلف الوسائل.

فإلى جانب التشكيك ومحاولات الحط من أقدار الزيديين أمام العامة، لجأت الخلافة الى استخدام القوة على قدر استطاعتها، ففي عام ٢٥٢هـ كلف القائد موسى بن بغا من

قبل الخلافة بقيادة حملة عسكرية، وتمكنت هذه الحملة من هزيمة الحسن بن زيد الذي فرّ الى بلاد الديلم، وانسحبت قوات الخلافة بسبب عدم الاستقرار في العاصمة، فاستغل الحسن الفرصة وعاد الى ممتلكاته، إلا أن الخلافة ارسلت قواتها ثانية في عام ٢٥٥هـ، ودخلت في مواجهة مع الزيديين وأنصارهم من الديلم، وحققت قوات الخلافة انتصاراً ثانياً ضد الزيديين الذين لجأوا من جديد الى الديلم[١٩]، وظلوا هناك بقيادة الحسن الى أن غيرت الظروف ووقعت اضطرابات في عاصمة الخلافة أدت الى خلع الخليفة المعتز على يد الأتراك وقتله ثم تنصيب الخليفة المهتدي، وعلى الأثر اضطرت القوات المرابطة في طبرستان الى الانسحاب والتوجه الى العاصمة لتشارك في تهدئة الأمور هناك.

عندها استغل الحسن بن زيد الفرصة وعاد برجاله الى آمل[٢٠]، ثم دخل الري في عام ٢٥٦هـ، وفي السنة التالية استولى على الكرخ ثم تقدم الى جرجان. كل هذا والقوات الطاهرية تتقهقر الى الوراء.

وهكذا نجح الحسن بن زيد في توسيع ممتلكاته ووضع أسس دولته التي استمر على رأسها من ٢٥٠ – ٢٧٠هـ.

تولى بعده أخوه محمد بن زيد. في هذه الفترة كانت المعارك محتدمة بين السامانيين والصفاريين انتهت بهزيمة الصفاريين، وهنا أخذ محمد بن زيد يتطلع الى توسيع ممتلكاته، وبسط نفوذه على أراض جديدة في خراسان اعتقاداً منه بأن السامانيين لن يقاوموه نظراً لأن قواتهم أصبحت منهكة وانهم ربما اكتفوا بهزيمة الصفاريين، هذا بالاضافة الى أن محمد بن زيد ربما سار على مبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع، حيث بات يظن أن انتصار السامانيين على الصفاريين قد يغريهم الى مد نفوذهم على أراضيه، ففضل أن يهاجم قبل ان يلتقط السامانيون أنفاسهم[٢١]، ويمكن أن نضيف هنا قضية ربما تكون حركت محمد بن زيد وهي رغبته في نشر مذهبه الشيعي في بلاد جديدة.

ومهما كانت الدوافع، فإن القوات الزيدية توجهت الى الحدود السامانية، وهنا بدأت الاتصالات بين الطرفين، وطلب اسماعيل بن احمد الساماني من محمد بن زيد أن يكتفي بما تحت يده من أراض وقال له في رسالة بعثها اليه: «إلزم عملك ولا تتجاوز ... ولا تقصد

خراسان.» إلا أن محمد لم يستجب لدعوة السلام[٢٢] الموجهة من اسماعيل، ووقع القتال بين الطرفين، وكانت القوات السامانية بقيادة محمد بن هارون[٢٣]، انتهت المعركة بدحر القوات الزيدية وهزيمتها، وجرح محمد بن زيد وتوفي على أثر جراحه، فآلت ممتلكاته الى الدولة السامانية.

علاقة الدولة الزيدية بالصفاريين

من المعروف أن علاقة الدولة الصفارية مع الخلافة العباسية لم تكن لتسير على وتيرة واحدة، وإنما كانت متأرجحة ما بين السلم والحرب، فمرة تعاون ومودة وتبادل للهدايا، وأخرى توتر ومعارك محتدمة، لكن الصفاريين كانوا يحرصون في كثير من الأوقات أن تكون علاقتهم بالخلافة جيدة، ويتبعون لتنفيذ ذلك وسائل مختلفة كان منها معاداة الدولة الزيدية وضربها ومطاردتها على اعتبار أن هذه الدولة من أكبر اعداء الخلافة في منطقة المشرق لأسباب ذكرناها، هذا عامل من عوامل توتر العلاقة بين الزيدية والصفارية، وهناك عوامل أخرى منها طمع يعقوب في توسيع ممتلكاته، وضمان سيادته واستقرارها في منطقة خراسان التي كان تهددها قيام الدولة الزيدية، وأخيراً نقول كان للخلاف المذهبي بين الطرفين أثر في توتر العلاقة بينهما.

إذن فظروف الاحتكاك مهيأة، لكن الصفاريين لابد وأن يبحثوا عن محرك لها لتصل الى مرحلة الاشتباك، وقد خلق الصفاريون الذريعة عندما اتهموا الحسن بن زيد بأنه يشجع حركات المعارضة ضدهم، والدليل الذي قدموه قبول الزيديين لعبدالله السجزي الذي لجأ لهم عندما هرب من نيسابور ورفض الزيديين تسليمه[٢٤]، أعد يعقوب حملة عسكرية توجه بها الى طبرستان ووقع القتال بين الطرفين وهزمت قوات الحسن وسقط الكثير من أراضيه في يد يعقوب، وكذلك سقطت اعداد كبيرة في أسر يعقوب، ومع ذلك فإن يعقوب وجد صعوبة كبيرة في الايقاع بالحسن بن زيد رغم الانتصار الذي حققه عليه، ويرجع ذلك الى موقف الأهالي المؤيد للحسن بن زيد، وقد دفع هؤلاء ثمن موقفهم إذ عاملهم يعقوب بقسوة وعنف، وقد دافع الأهالي عن أنفسهم، فكانوا ينقضون على جيش الصفاريين كلما أتيحت لهم الفرصة، وكانوا يلحقون بهم خسائر فادحة ولم يكن موقف الاهالي وحده هو الذي أنقذ الدولة الزيدية،

لكن الطبيعة شاركت في حماية هذه الدولة فمنطقة طبرستان معروفة بجبالها العالية وطرقها المتشعبة ومسالكها المخيفة الموحشة، فتعذر على يعقوب أن يفتحها، هذا اذا أضفنا الى أن منطقة طبرستان تعرضت لسقوط أمطار غزيرة مدة أربعين يوماً متواصلة مما جعل الجيش الصفاري عاجزاً عن التحرك ثم وقعت زلازل شديدة في المنطقة أهلكت آلافاً مؤلفة من قوات يعقوب.(٢٥)

وكان لهذه الكارثة أثر سلبي كبير على معنويات يعقوب وجنده، واضطر الجميع الى العودة الى خراسان بعد أن دفعوا ثمناً باهظاً تعجز دول كبرى عن تحمله، فقد هلكت معه الابل والدواب التي يعتمد عليها في حله وترحاله وقد ذكر ابن الاثير هذه الكارثة حيث قال: «ان يعقوب فقد من رجاله ما يقرب من أربعين الفاً، بالاضافة الى هلاك خيله وابله وبقية عتاده.» ورغم الخسائر الفادحة التي خسرها يعقوب فقد تمكن في نهاية المطاف من القبض على منافسه عبدالله السجزي.

بعد هذه المعركة التي كلفته الكثير ركن يعقوب الى الهدوء وانصرف الى تنظيم أموره، كما انه انشغل بمشاكله مع الخلافة، الأمر الذي أدخل بعض التغيير في علاقته مع الزيديين إذ شهدت هذه العلاقة تحسناً نسبياً فأطلق أسراهم لاظهار حسن النوايا، وظلت الأمور على هدوئها بين الطرفين الى أن تولى عمرو بن ليث عام ٢٦٥هـ على أثر وفاة أخيه يعقوب.

يذكر الطبري أن محمد بن زيد الذي تولى بعد وفاة أخيه الحسن عام ٢٧٠هـ تبادل الرسائل مع عمرو بن ليث حيث طلب عمرو من محمد عدم الوقوف الى جانب حركة رافع بن هرثمة الذي قاد حركة معارضة ضد الصفاريين، فاستجاب محمد لهذا الطلب، وبدأ العداء واضحاً بين الدولة الزيدية وبين رافع بن هرثمة نتيجة هذا الاتفاق، وقد تفجر الموقف بينهما فزحف رافع في عام ٢٧٥هـ وتمكن من الاستيلاء على جرجان وطرد عمال الزيديين منها(٢٦)، ولم تتوقف الحرب بينهما حتى أن محمد بن زيد كان يضطر بين الحين والآخر الى اللجوء الى بلاد الديلم طالباً المساعدة، وفي عام ٢٧٨هـ أجبر رافع بن هرثمة نتيجة ظروف خاصة به أن يتخلى عن الأراضي التي أخذها من الزيديين، فعاد هؤلاء اليها من جديد(٢٧)، ورغم هذا الموقف الذي وقفه محمد بن زيد ارضاء للصفاريين، الا أن هؤلاء ظلوا يتطلعون الى اسقاط الاسرة الزيدية، طمعاً في ارضاء الخلافة، ولأمر آخر ربما كانوايتنتظرون ان تسلمهم

الخلافة بلاد ماوراء النهر اذا نجحوا في هدم كيان الزيديين[٢٨] لكن مخطط الصفاريين لم ينجح بسبب انشغالهم عن محاربة الزيديين. وفي عام ٢٨٧هـ وقع صدام بين الدولة الزيدية والسامانية أدى الى مقتل محمد بن زيد وسقوط دولتهم وانتهاء دورهامن على مسرح الأحداث السياسية في منطقة المشرق الاسلامي.

محاولة احياء الدولة الزيدية

قام بالمحاولة أحد أبناء الاسرة الزيدية، وهو الحسن بن علي بن الحسن من حفدة الحسين بن علي كرم الله وجهه، وقد شارك الحسن في المعركة التي وقعت بين محمد بن زيد والدولة السامانية في عام ٢٨٧هـ، حيث هزم محمد بن زيد وتمكن الحسن هذا من الفرار الى بلاد الديلم، وقد أصيب الحسن في هذه المعركة بضربة في رأسه سببت له الصمم، لذلك كان يلقب بالاطروش[٢٩]، وكان يلقب ايضاً بالداعي، استقر الحسن في بلاد الديلم واضعاً في حسابه ضرورة التحرك لاحياء دولتهم، إلا أنه لن يتمكن من تحقيق هذا الهدف بسبب قلة الانصار من حوله ..

لهذا السبب أخذ يفكر في الكيفية التي يتمكن بها من حشد المؤيدين، فهداه تفكيره الى دعوة الديلم للدخول في الاسلام، فإذا نجح في ذلك كثر أنصاره ومريديه، وبدأ يدعو الناس هناك للدخول في الاسلام، وكان الحسن في دعوته حذراً الى أبعد الحدود، فقد تحاشى الصدام مع السلطة القائمة «وأظهر الحسن لزعيم الديلم أنه لا يرغب في التدبير والأمر والنهي، أي أنه لا يتطلع الى الرياسة، وانه إنما يقيم نفسه مقام المعلم والمرشد الى الدين والداعية الى القائم من أهل البيت.»[٣٠]

وهكذا استمر الحسن في دعوته من هذا المنطلق ودخل الناس في دين الله بأعداد كبيرة، حتى أن العاملي في كتابه {أعيان الشيعة ٣٠٣/٢٢} يذكر «أن عدد من أسلموا على يديه يقدر بحوالي الف الف نسمة، وهذا رقم يدل على مدى النشاط الذي كان يقوم به الحسن ورجاله ويدل على همة عالية كان يتمتع بها الرجل، وقد أشارت المصادر الى ما قام به الحسن، فالمسعودي يذكر «وقد كان أقام في الديلم سنتين وهم كفار على دين المجوسية ... فدعاهم الى الله عز وجل، فاستجابوا وأسلموا ... وبنى في بلاد الديلم مساجد»[٣١]

ويشير ابن الاثير الى نفس القضية فيقول: «وقام بينهم نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ويقتصر منهم على العشر ... فأسلم منهم خلق كثير[٣٢] ... واجتمعوا عليه.» وعلى العموم يمكن القول أن الحسن نجح في ادخال بلاد الديلم الى الاسلام، فأصبحوا أنصاراً له ومؤيدين وسيعتمد عليهم مستقبلاً في محاولة اعادة قيام دولتهم التي انتهت على يد السامانيين.

وقد جاء على لسان الحسن في خطبة له قال: «أيها الناس اني دخلت الى بلاد الديلم وهم مشركون، يعبدون الشجر والحجر، ولايعرفون خالقاً ولا يدينون ديناً، فلم أزل أدعوهم الى الاسلام واتلطف في العطف بهم حتى دخلوا فيه أرسالاً، وأقبلوا اليّ اقبالاً، وظهر لهم الحق وعرفوا التوحيد والعدل، فهدى الله بي منهم زهاء الف الف رجل وامرأة ... يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الصلوات المكتوبات والفرائض المفروضات ... ثم قاموا بنصرتي، وناصبوا آبائهم وابنائهم العداء في هواي، واتباع أمري في نصرة الحق وأهله، ولا يولي أحد منهم عن عدوه، ولايعرف غير الاقدام ... يرون الفرار من الزحف إذا كان معي كفراً والقتل شهادة وغنماً.»[٣٣]

وهذا النص غني عن البيان والتعليق فهو يبين المجهود الذي بذله الحسن (الناصر) لادخال هذه البلاد في الدين الاسلامي الحنيف، ومدى نجاحه في احداث التغييرات في كثير من المفاهيم التي كانت سائدة، ولكن اذا كان لنا من ملاحظة، فلابد أن نقول بأن هذه المنطقة لم تكن غريبة عن الاسلام وانما عرفته ولو بنسبة محدودة بدليل أن مسجداً بني هناك في عام ١٧٥هـ[٣٤].

وعلى العموم أصبح الحسن مسيطراً على قوة عسكرية كبيرة شكلها من مسلمي الديلم، وأخذ ينظمهم ويدربهم ويسلحهم انتظاراً لفرصة مناسبة يزحف فيها على طبرستان ليطرد السامانيين منها. لكن المحاولة الاولى التي بذلها الحسن لم يكتب لها النجاح بسبب يقظة الدولة السامانية وولاتها في طبرستان. إلا أن الحسن ظل يتطلع الى هناك ويراقب الموقف عن كثب لكن الأمور في هذه الفترة كانت تسير لغير صالحه بسبب السياسة الحكيمة المتعقلة التي سار عليها والي السامانيين هناك محمد بن نوح، إذ كان يعامل الأهالي معاملة

حسنة وينشر العدالة والأمن والطمأنينة، فكسب ثقة الأهالي هناك وبعد فترة زمنية ارتكب السامانيون خطأ كبيراً عندما أصدروا أمراً بتغيير والي طبرستان برجل يقال له سلام، وهذا لم ينجح في السير على نفس الخطى التي سار عليها سلفه، فارتبكت الأمور واضطربت وانفرط عقد الأمن، وانتشرت الفوضى واستشرى الفساد، فعانى الأهالي الكثير في ظل الوضع الجديد، وأخذوا يتمنون الخلاص من هذه الأوضاع. هنا أحس الحسن بمعاناة الأهالي، فأخذ يتصل بهم ويستميلهم اليه، وكانت فرصة طالما انتظرها، تقبل الناس دعوته والتفوا حوله، ودخل في مواجهة عسكرية مع السامانيين على أرض طبرستان، فكانت الجولة لصالحه(٣٥)، إلا أن السامانيين أعادوا هجومهم ضد الحسن لكنهم لم ينجحوا في زحزحته من طبرستان وأخذ يقوي قبضته هناك ويعيد تنظيم أمور البلاد، وبعد هذه الانتصارات أطلق الحسن على نفسه لقب الناصر الكبير.

في عام ٣٠٤هـ - ٩١٦م توفي الحسن فتولى الزعامة بعده الحسن بن القاسم الذي قام بتكليف القائد ليلى بن النعمان بالزحف على خراسان، فتمكن ليلى من الدخول الى جرجان، وتوجه بعدها الى نيسابور فدخلها عام ٣٠٨هـ / ٩٢٠م، إلا أن سيطرتهم على هذه المناطق لم تستمر طويلاً، حيث أرسل نصر بن احمد جيشاً لطرد ليلى بقيادة حمويه بن علي، الذي وصل الى مكان ليلى، ويذكر انه قيل لحمويه أن ليلى يستبطئك في قصده، فقال: «اني البس أحد خفي للحرب العام وألبس الخف الآخر في العام المقبل، فبلغ قوله ليلى فقال: «لكني البس أحد خفي قاعداً والثاني قائماً وراكباً، فلما قتل ليلى قال حمويه: هكذا من يتعجل الحرب.»(٣٦)

هكذا عادت أرض طبرستان من جديد الى نفوذ السامانيين وكان من الطبيعي أن تبارك الخلافة، هذه الانجازات التي قامت بها الدولة السامانية.

أغرت هذه الانتصارات الدولة السامانية بالتقدم اتجاه البقية الباقية من ممتلكات الزيديين في طبرستان فسارت بقيادة سيمجور الدوائي، وتمكنت من دخول جرجان(٣٧)، والسيطرة عليها تماماً في عام ٣١٠هـ / ٩٢٢م.

وتواصلت الأحداث واستمرت عندما أرسل الامير الزيدي الحسن بن القاسم قائده

العلويون في طبرستان

«الدولة الزيدية»

٢٥٠ - ٣١٦هـ / ٨٦٤ - ٩٢٨م

٢٥٠هـ	الحسن بن زيد	٨٦٤
٢٧٠هـ	محمد بن زيد	٨٨٤
٢٨٧هـ	«احتلال السامانيين»	٩٠٠
٣٠١هـ	الناصر حسن الاطروش	٩١٣
٣٠٤-٣١٦	الحسن بن قاسم	٩١٦-٩٢٨
	ثم ولي السامانيون	

الحواشي

١- هذه هي الطريقة التي كان دعاة المعارضة يسيرون عليها
Saunders p. 128-129

٢- اقليم الديلم ويسمى ايضاً الجبل وجيلان، يقع على بحر قزوين في ركنه الجنوبي الغربي، يحده من الشرق إقليم طبرستان ومن الجنوب جبل يفصل بينه وبين ناحية قزوين ومن الغرب اذربيجان ومن الشمال بلاد الدان.

حامد ابوسعيد: انتشار الاسلام حول بحر قزوين ص ٢١.

ط القاهرة ١٣٩٤ - ١٩٧٤م.

٣- فتحت منطقة طبرستان من قبل المسلمين في عام ١٤٢

الطبري: ٧/٥١٢ - ابن الاثير: ٥/٥٠٩-٥١٠

٤- كان اول اتصال للمسلمين بهذه البلاد ايام الخليفة عمر بن الخطاب عندما وقف الديالمة الى جانب أهل الري ضد المسلمين .

البلاذري: فتوح البلدان ٤٤٣ ط بيروت ١٩٥٧

ابن الفقيه: مختصر كتابه البلدان ص ٢٨٢ ابريل ١٨٨٥

٥- ابن الاثير: مرجع سابق ٧/١٣٠

٦- الطبري: مرجع سابق ١٢/١٥٣٤-١٥٣٥

٧- حامد ابوسعيد: عصر الدول الاقليمية ص ١٨٢ ط ١٩٧٠

٨- المصدر والصفحة.

٩- الطبري: ١٢/١٥٣٥

١٠- المصدر نفسه ١٥٣٦ - ابن الاثير: مصدر سابق ٧/١٣٠

١١- الطبري: نفس المصدر ١٥٣٧

١٢- المصدر نفسه والصفحة - ابن الاثير: المصدر نفسه ٧/١٣١-١٣٢

١٣- الطبري: نفس المصدر ١٥٣٨

١٤- الطبري: نفس المصدر والصفحة - Comb. Hist. of Iran 4 p. 105

١٥- ابن الاثير: ٧/١٣٢ - حامد ابوسعيد: انتشار الاسلام ص ٩٣.

١٦- ابن الاثير: نفس المصدر ١٣٣

١٧- المصدر السابق ١٦٣ - Comb. Hist. of Iran p. 103

١٨- ابن الاثير: نفس المصدر ٢٤٨

١٩- المصدر السابق ٢٠٣

٢٠- المصدر السابق والصفحة

٢١- ابن كثير: البداية ١١/٨٣

٢٢- ابن الاثير: المصدر السابق ٧/٥٠٤

٢٣- نفس المصدر ٧/٦٩٣

٢٤- المصدر نفسه ٥/٣٧١

٢٥- ابن خلكان: مصدر سابق ٥/٤٥٤

٢٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٧/٤٣٤

٢٧- المصدر نفسه ٧/٣٢٤

٢٨- نظام الملك: نفس المصدر ١١٦

٢٩- ابن الاثير: مصدر سابق ٨/٨٣

٣٠- حامد ابو سعيد: انتشار الاسلام ١٣٢

٣١- المسعودي: مروج الذهب ٢/٥١١

٣٢- ابن الاثير: الكامل ٨/٨١

٣٣- حامد ابو سعيد: انتشار الاسلام ص ١٤٢

٣٤- نفس المصدر ص ١٣٠

٣٥- ابن الاثير: ٨/٨١-٨٢

٣٦- نفس المصدر ٨/١٢٤-١٢٥

٣٧- نفس المصدر ٦/١٧٠

٣٨- نفس المصدر ٦/١٨٩

٣٩- نفس المصدر ٦/١٩٥ - المسعودي: مروج الذهب ٤/٢٩٤

الدولة السامانية ٢٦١ - ٣٨٩هـ

يرجع تأسيس هذه الدولة الى سامان بن بهرام جوبين الفارسي الأصل[١]، وكان سامان هذا قد لجأ الى اسد بن عبدالله والي خراسان للخليفة هشام بن عبدالملك فأعانه أسد على عدو له كان قد أخرجه من بلخ، فاهتم أسد بأمر سامان حتى أعاده الى بلده، وقد دعي سامان الى الاسلام فأسلم[٢].

خلف سامان ابنه أسد الذي انضم الى ابي مسلم الخراساني داعية العباسيين في خراسان، وبعد نجاح الثورة العباسية استمرت علاقة أبناء اسد بالخلافة العباسية قوية، حتى أنهم ساعدوا في اخماد الثورة التي قادها رافع بن ليث ضد الخلافة العباسية في خراسان أيام الخليفة هارون الرشيد. وقد قدر الخليفة المأمون لأبناء أسد مواقفهم واخلاصهم فخلع عليهم وقربهم اليه، وأمر أن يعين أبناء أسد كل منهم في اقليم من اقاليم بلاد ماوراء النهر. وقد وافق الطاهريون على هذا التعيين، فأسند الى نوح إقليم سمرقند والى احمد إقليم فرغانه والى يحيى اقليم الشاس واشروسنه أما الياس فكان له اقليم هراة[٣]، وقد ظل ابناء أسد في ولاياتهم يخلصون للخلافة ويظهرون لها الولاء والطاعة حتى أيام حكم الاسرة لاقليم خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩هـ).

وفي هذه الأثناء بدأت زعامة الاسرة السامانية تنتقل الى احمد بن اسد، الذي توفي في عام ٢٥٠هـ، وقد وافق الطاهريون على أن تنتقل زعامة الاسرة الى ابنه نصر الذي أصبح نائباً للطاهريين في بلاد ماوراء النهر، واستمر في نيابته حتى سقطت الدولة الطاهرية على يد الصفاريين الذين دخلوا نيسباور عام ٢٥٩هـ، عندها أصدر الخليفة المعتمد مرسوماً يقضي بتعيين نصر بن احمد أميراً مستقلاً في بلاد ماوراء النهر وذلك في عام ٢٦١هـ وهذا يعني بداية استقلال الاسرة السامانية وبروز شخصيتها في تلك المنطقة، وهذا أمر جدير بالملاحظة وهو أن الخليفة العباسي نفسه هو الذي أصدر مرسوم الولاية لنصر، أما قبل ذلك فكان مرسوم ولايتهم يصدر من خراسان.[٤]

ويبدو أن الخلافة العباسية قد اتخذت هذه الخطوة حماية لمصالحها في المنطقة حيث أخذت الدولة الصفارية في تهديد هذه المصالح خاصة بعد تحطيم آخر معاقل الطاهريين في

نيسابور عام ٢٥٩هـ. فكان ابراز الاسرة السامانية والدفع بها الى مسرح الأحداث السياسية والعسكرية امراً حيوياً للخلافة لتضع بذلك حداً لأطماع الصفاريين.

اتخذ نصر من سمرقند عاصمة لدولته الجديدة، وأخذ يعمل على توطيد حكمه في بلاد ماوراء النهر ويقضي على المشاكل التي واجهته، ويعيد تنظيم المؤسسات لتتمشى مع ظروف دولته الجديدة.

ومن أبرز المنجزات التي قام بها الامير نصر في أيامه الاولى ضم مدينة بخارى لدولته الجديدة، وكانت تابعة من الناحية الادارية للصفاريين، فقد تعرضت هذه المدينة لهجمات خارجية سلبت ونهبت ودمرت الكثير من ممتلكات الاهالي الذين تصدوا للدفاع عن مدينتهم ببسالة، الأمر الذي أرغم الغزاة الخوارزميين على الانسحاب تاركين الأموال التي نهبوها وجمعوها من الأهالي فتقاسمه الثوار والأهالي «واغتنى منه أناس كثيرون فظل أثر هذا في أعقابهم.»[٥]

لكن الأمور في بخارى لم تستقر بسبب ضعف السلطة القائمة هناك فانتشرت الفوضى واستشرى الفساد وعم الاضطراب، فقرر وجهاء المدينة وقادتها بزعامة ابن عبدالله الفقيه اللجوء الى الدولة السامانية[٦] بقيادة نصر لانقاذ مدينتهم من هذا الكابوس المخيف الذي أقضّ مضاجعهم، وكان من الطبيعي أن يوافق نصر على مطلبهم بعد دراسة الظروف والملابسات المحيطة بأوضاع بخارى، وأخذ يبحث عن قائد له خبرة وكفاية تمكنه من انجاز هذه المهمة الصعبة والدقيقة في نفس الوقت، فوقع اختياره على أخيه اسماعيل[٧] لقدرته وحنكته السياسية.

سافر اسماعيل الى بخارى وفي طريقه اليها مرَّ بمدينة كرمينيه واستقر بها أياماً واجتمع فيها مع بعض وجهاء ورجالات بخارى الذين كانوا في استقباله هناك وكان على رأسهم ابوعبدالله، وقد «أدرك اسماعيل أن أهل المدينة لا ينقضون ما يفعله ابوعبدالله فقوى ذلك من عزيمته.»[٨] وتدارسوا جميعاً الموقف والاجراءات التي يمكن اتخاذها للسيطرة على ناصية الأمور واعادة الأمن والهدوء والطمأنينة الى المدينة، وبعد دراسة شاملة شعر اسماعيل بالاطمئنان للموقف فانتقل معهم الى بخارى حيث استقبل هناك بحفاوة بالغة ونثروا الذهب

وقدموا له العطايا، ورفعت الخطبة باسم نصر بدلاً من يعقوب الصفاري وكان ذلك في غرة رمضان عام ٢٦٠هـ[٩]، وقد واجه اسماعيل عند وصوله مجموعة من المشاكل منها، دسائس الحسين بن طاهر، وعصابات اللصوص والمتمردين المنتشرين في أنحاء المدينة.

بدأ اسماعيل في اتخاذ الاجراءات والتدابير اللازمة واعادة تنظيم المؤسسات والادارات مركزاً على النواحي الأمنية، فأصدر أوامره بمتابعة اللصوص وقطاع الطرق ومطاردتهم، ويذكر ان عددهم كان حوالي أربعة آلاف يعيثون فساداً[١٠]، كذلك تتبع رؤوس الفتنة ومثيري الشغب، وقد حقق في هذا المجال نجاحاً واضحاً، وكان اسماعيل في تحركه يستعين بملاك الاراضي ووجهاء البلاد الذين كانت مصالحهم تتطلب استتباب الأمن واعادة الهدوء الى ربوع البلاد[١١]. ومعنى ذلك أنه نجح في كسب ثقة وجهاء البلاد وأولي الأمر فيها، وبينما كان اسماعيل ينفذ خطة التهدئة واقرار الأوضاع، تعرضت بخارى لهجمة خوارزمية قام بها الحسين بن طاهر الخوارزمي، إلا أن اسماعيل تمكن من التصدي للمهاجمين وأرغمهم على الانسحاب فتعلق به الناس والجند لتحقيق العديد من المكاسب والانتصارات على يديه.[١٢]

وما كاد اسماعيل يفرغ من أمر هذه الهجمة حتى تناقل الى مسامعه ان بعض رجالات بخارى يتآمرون لاعادة الفوضى واثارة الفتن من جديد، ويبدو أن هؤلاء ممن أصاب الاصلاح مصالحهم فشعروا بالخسارة وتمنوا اعادة العجلة الى الوراء وهذا شأن كل فئة ضالة فاسدة لا تعيش الا في ظل الفوضى والفساد ففيهما الفرصة المناسبة لتحقيق المكاسب واشباع النهم.

لكن اسماعيل بما عرف عنه من حكمة وروية تدبر الأمر بتعقل وبدأ في علاج الأمر بأعصاب هادئة فتعرف على هوية هؤلاء، وأوعز لهم بطريقته الخاصة بأنه يعلم ما يدبرونه وما يهدفون اليه، فارتبكوا وتداخلت أوراقهم، ولم يجدوا مفراً من الاعتراف أمامه والاعتذار اليه عما بدر منهم من مخالفات، فقبل اسماعيل ذلك ... ولكنه أقنعهم بضرورة السفر الى سمرقند والاعتذار لأخيه نصر على اعتبار انه صاحب الشأن في الدولة وأنه ليس الا نائباً لأخيه نصر.

وكانت هذه حيلة بارعة من اسماعيل لابعادهم عن بخارى، وبالفعل شد هؤلاء الرجال الى سمرقند حيث قابلوا الامير نصر الذي أمر بالقبض عليهم بناء على رسالة وصلت اليه على وجه السرعة من أخيه اسماعيل شارحاً خطورة هؤلاء الرجال وتآمرهم، وبذلك تخلص اسماعيل من مشكلة كادت أن تسبب له الكثير من الاحراج والصعوبات. وبعد التخلص من هذه المشاكل انتشر الأمن وعم الاستقرار والطمأنينة في ربوع مدينة بخارى وما حولها، هنا وجد اسماعيل أن الظرف أصبح مناسباً للقيام بزيارة لأخيه نصر في سمرقند عاصمة البلاد.

الصراع بين الأخوة

مما سبق يتضح لنا أن الاخوة قد بذلوا جهوداً مشتركة في سبيل اقرار سلطة الدولة وتوسيع ممتلكاتها، إلا أن خلافاً قد وقع بين الاخوة، وتطور هذا الخلاف الى حد تفجر الصراع المسلح بينهما، وقد بدأ الخلاف عندما غادر اسماعيل بخارى قاصداً سمرقند دون علم أخيه نصر، فاعتبر نصر هذا التصرف إهانة موجهة له فلم يأبه بوجود أخيه اسماعيل، كما انه لم يستقبله ذلك الاستقبال الذي يليق به، بل وقف منه موقفاً سلبياً، وقد حاول اسماعيل ان يستفسر عن أسباب هذا الموقف، لكنه لم يجد اجابة شافية وظل في سمرقند فترة طويلة حتى تمكن وبعد أن تدخل افراد الاسرة فيما بينهم أن ينهي الأزمة مع أخيه نصر وعاد اسماعيل بعدها الى بخارى.

كان اسماعيل على علاقة طيبة مع رافع بن هرثمة الذي كان صاحب خراسان في تلك الفترة، وعقد معه حلفا[١٣]، وقد استغل هذا التقارب بين الطرفين من قبل الوشاة الذين أفهموا نصر بأن هذا التحالف انما أقيم ضده، وهذا أمر قد يهدد سلطته ومصالحه فعاد التوتر بين الاخوة الى سابق عهده، وتذكر بعض المصادر أن اسماعيل كان قد أقام نائباً عنه في بخارى حين غاب عنها بعض الوقت فاستقبح نصر ذلك.[١٤]

وقبل الحديث عن مرحلة الصراع، لابد من محاولة تفسير مايحدث بين الاخوة، فبعض المصادر ترى أن الوشاة ومحبي الفتن والدسائس قد دخلوا بينهم فأفسدوا[١٥]، والبعض الآخر يرى أن عدم وفاء اسماعيل بالتزامات قطعها على نفسه لأخيه نصر[١٦]، لكن الذي

اتصوره عن اسباب الخلاف بالاضافة الى ما سبق ذكره، أن نصر ربما كان يخشى على ملكه من أخيه اسماعيل الذي أثبت قدرة وكفاءة في علاج الموقف المتردي في بخارى، وكذلك تخوفه من التقارب الذي حدث بين اسماعيل وبين رافع صاحب خراسان حتى أن الاخير تنازل له عن بعض ممتلكاته، ويمكننا الجمع بين العوامل السابقة بعضها مع البعض الآخر لنعطي تفسيراً لما حدث بين الاخوة، أما مايقال عن قضية زيارة اسماعيل لأخيه نصر بدون استئذان سببت التوتر فاعتقد أن هذا سبباً لايكفي للأخذ به، خاصة وأن أحداث المستقبل ستظهر أن اسماعيل لم يكن ذلك الرجل الطامع الحاقد الذي يفكر في اغتصاب الملك من أخيه.

وعلى العموم وصل التوتر بين الاخوة مرحلة اللاعودة ففكر نصر في اعداد حملة عسكرية يتوجه على رأسها الى بخارى لضرب أخيه اسماعيل وكان ذلك في عام ٢٧٢هـ وفعلاً تمكن نصر في هذا العام من الدخول الى بخارى التي انسحب منها اسماعيل، وكان هذا قد اتصل بصديقه رافع بن هرثمة وطلب أن يمده بمساعدات تمكنه من التصدي لهجوم نصر[١٧]، فاستجاب رافع صاحب خراسان وتقدمت قواتهما صوب سمرقند، وفي الطريق اليها واجهتهم مشاكل التموين التي قاسوا منها الكثير[١٨] خاصة بعد أن تمكن نصرمن قطع الاتصال بين بخارى واسماعيل الذي لم يعد قادراً على الاتصال بقاعدته بخارى[١٩].

وقد علم نصر بتوجه اسماعيل ورافع الى سمرقند فكتب الى ابنه هناك أن يكون مستعداً لمواجهة عمه إذا وصل الى سمرقند.

لكن هذه التطورات السريعة نحو الاحتكاك لم يترتب عليها ولحسن الحظ أي اقتتال بين الاخوة وذلك لتدارك الموقف من قبل قادة الجيش الذين يهمهم أمر استقرار الدولة والحفاظ على مكاسب الاسرة، وكان أبرز هؤلاء القائد حمويه بن علي الذي كان لديه بعد نظر وحنكة وروية في معالجة الأمور، فحمويه هذا كان يخشى اذا وقع الصراع بين الاخوة أن يضعف أمرهما، وعندها لا يستبعد أن ينتهز الفرصة رجل كرافع بن هرثمة للانقضاض على ممتلكات السامانيين، خاصة وأن له خبرة سابقة وتجارب في مثل هذه القضايا. لذلك تدخل حمويه بين الاخوة وأقنعهم بتوقيع صلح يتفقان على بنوده خدمة لمصلحة الدولة، وقد نجح حمويه في ضم رافع بن هرثمة الى جانبه ليكون هو الآخر واسطة خير بين الاخوة يدل

أن يناصر أحدهما ضد الآخر[٢٠].

عقد الصلح بين الاخوة على أن يكون اسحق بن احمد أميراً على بخارى، ويصبح اسماعيل عاملاً على الخراج ولاتكون أموال الدولة باسمه، وأن يرسل مبلغاً سنوياً من المال يقدر ٥٠٠ الف درهم[٢١] وعاد كل منهما الى مقره، بعد أن حقق نصر الشروط التي يريدها، ولم يعترض اسماعيل على هذه الشروط رغم قسوتها بالنسبة له.

بعد فترة عاد التوتر من جديد، ويبدو أن اسماعيل لم يتمكن من دفع المبلغ الذي تعهد به لأخيه نصر، الأمر الذي دفع الأخير الى اعادة تجميع قواته والدفع بها الى بخارى وذلك في عام ٢٧٥هـ، واستعد اسماعيل للمواجهة، فاشتبك الطرفان في معركة قاسية هزم على أثرها الاميرنصر الذي وقع أسيراً في قبضة أخيه اسماعيل الذي أحسن اليه وأكرم وفادته وأظهر له الطاعة والولاء وخاطبه قائلاً: «أيها الامير انها ارادة الله التي شاءت أن أراك اليوم وأنت في الاسر.» فأجابه نصر: «بل هي ارادتك أنت إذ خرجت على سيدك وأذنبت بذلك في حق الله.»[٢٢] وبعد فترة قضوها سوياً طلب اسماعيل من أخيه نصر أن يعود الى سمرقند مقر دولته معززاً مكرماً دون المساس من هيبته أو كرامته، بل العكس هو الذي حدث عندما ودع اسماعيل أخاه نصر، ودعه قائلاً له: «إني أحكم بالنيابة عنك في هذه الديار، وقد دهش الامير نصر من هذه المعاملة التي قابله بها اسماعيل وتلك الحفاوة.»

وعلى العموم فقد عاد نصر الى سمرقند ليمارس سلطاته من جديد حاكماً للدولة السامانية بغض النظر عما حدث وظل هكذا حتى توفي عام ٢٧٩هـ[٢٣]، وكان ديناً عاقلاً وله شعر حسن منه ما قاله في رافع بن هرثمة:

أخوك فيك على خير ومعرفة	إن الذليل ذليل حيثما كـــانا
لولا زمان خؤون في تصرفه	ودولة ظلمت ما كنت انسانا[٢٤]

العصر الذهبي للدولة السامانية

بعد وفاة الأمير نصر تولى حكم الدولة أخوه اسماعيل الذي وصفته المصادر بأنه كان

خيراً يحب أهل العلم والدين ويكرمهم، متواضعاً وفياً يحب القراءة والاطلاع، ويذكر نظام الملك انه «كان عظيم العدل ذا سيرة طيبة محمودة من العقيدة في الله تعالى، وكان رؤوفاً بالمساكين.»[٢٥] وقد عمل بجد ونشاط في سبيل الحفاظ على دولته وتنميتها وخاض من أجل ذلك العديد من المعارك مع جيرانه فتمكن من توسيع مملكته.

فخاض مع الصفاريين الذين كانوا يتطلعون الى توسيع أراضيهم على حساب خراسان التي كان عليها حينئذ علي بن الحسين، وكان علي هذا قد لجأ الى اسماعيل بن احمد في بخارى التي أصبحت عاصمة للدولة بدل سمرقند، وقد استقبل بحفاوة أثارت حفيظة الخلافة ضد اسماعيل لأنها كانت تعتبر علي بن الحسين متمرداً عليها كما سبق وأن أشرنا، وقد شجعها موقف اسماعيل هذا على تأييد مطالب عمرو بن ليث في بلاد ماوراء النهر، وربما كان هذا الموقف تحذيراً لاسماعيل حتى لا يتمادى في تأييد أمثال هؤلاء، ونحن نميل الى قضية التحذير، لأننا سبق وأن أشرنا الى قضية مطالبة الصفاريين ببلاد ماوراء النهر ووضحنا أن مصلحة الخلافة كان الى السامانيين أقرب منها الى الصفاريين، لذلك لاحظنا أن التقارب بين السامانيين والخلافة كان أكثر وضوحاً حتى أن الخلافة عبرت عن رضاها وسرورها بانتصار السامانيين على الصفاريين.

كذلك أشرنا الى الصراع بين السامانيين والزيديين وكيف تمكنت الدولة السامانية من هزيمة الزيديين وضمت ممتلكاتهم وكان ذلك في عهد اسماعيل، كذلك خاضت الدولة معارك مواجهة ضد الاتراك الذين كانوا يهددون حدودهم وقد انتصر السامانيون وتمكنوا من الدخول الى قلب أراضي الاتراك وضموا اليهم مدينة طراز عاصمة الأتراك مع أراض أخرى[٢٦]، كما عملوا على نشر الاسلام في ربوع تلك البلاد، وحولوا كنيستها الى مسجد، ويذكر أن عدد الاسرى من الترك كان خمسة عشر الفاً وأن عدد القتلى كان عشرة آلاف[٢٧]، هذا بالاضافة الى ما جمعوه من أموال ومغانم كثيرة حتى قيل أن نصيب الواحد من رجاله كان الف درهم[٢٨]، وفي هذا العام أيضاً تم خلع الاسرة الحاكمة في أشروسنه وضمت المنطقة الى الاراضي الخاضعة للسامانيين.

هذا ومن الجدير بالذكر أن الخلافة كانت تنظر بعين الرضا والارتياح لانتصارات السامانيين الذين كانوا يحافظون على قدر كبير من علاقتهم الطيبة مع الخلافة، ويقدمون

لها الأموال السنوية والهدايا بصفة دائمة، حتى انهم كتبوا اسم الخليفة على عملتهم التي لم تقتصر على اسمائهم فقط. وطاردوا اعدائها من قرامطة وخوارج في هراة وبلاد الغور عام ٢٩٥هـ، وقد خاطب اسماعيل رجاله قائلاً: «وإني لأعتمد عليكم في كفاية هذا المهم، فقد خرج قوم في سفوح جبال هراة وجاهروا بمذهب الخوارج والقرامطة، وأكثرهم من الرعاة والفعلة. فإذا تم لكم هذا الفتح خلعت عليكم جميعاً ووصلتكم.»[٢٩]

انهيار الدولة

بلغت الدولة السامانية أوج قوتها وازدهارها في عهد اسماعيل بن احمد الذي نجح في اقرار امور الدولة وتوسيع ممتلكاتها حتى أصبحت دولة مترامية الاطراف مرهوبة الجانب، شعر الناس فيها بالاستقرار والأمان، فنشطت الحياة العامة في مجالات الثقافة والاقتصاد.[٣٠]

توفي اسماعيل وتولى مكانه ابنه احمد عام ٢٩٥هـ وعرف احمد بتقواه وتدينه، وجعلت العربية اللغة الرسمية لرسائل الدولة وكان يعطف على من يتقنها[٣١] وفي عهده واجهت الدولة العديد من المشاكل والصعوبات التي استنزفت امكانات الدولة وأضعفتها.

ففي أول أيامه واجه احمد تمرد بقايا الاسرة الصفارية وتمكن من التغلب عليها بعد أن قبض على عمه اسحق صاحب سمرقند خوف أن ينتهز فرصة انشغاله ويعلن تمرده كذلك واجه تمرد بارس التركي أحد قادته، وكان متولياً على خراسان، وكان هذا القائد قد طمع في أموال جمعها من ولايته ورفض ارسالها الى بخارى، فجرد أحمد قواته لقتال بارس، إلا أن هذا القائد خاف من المواجهة، واستأذن الخليفة المكتفي بالدخول الى بغداد فأذن له بذلك، وقد شعر أحمد بالمرارة من تصرف الخلافة، وماكاد هذا الموضوع ينتهي حتى أخذ يستعد لمواجهة الحركة التي قامت لتعيد الدولة الزيدية في منطقة طبرستان، وقد استنزفت هذه الحركات والفتن امكانات الدولة بشكل ملحوظ وفي عام ٣٠١هـ قتل احمد بن اسماعيل، وباتفاق رجال الحرس والبلاط[٣٢] تولى ابنه نصر الذي كان لايزال صغير السن[٣٣] ولقب بالملك السعيد، فتولى الوصاية عليه أبوعبدالله محمد بن احمد الجيهاني[٣٤]، وكان من الطبيعي أن تستقل بعض الاطراف[٣٥] هذه الظروف التي تمر بها الدولة، فتمرد اسحق بن

احمد صاحب سمرقند وتوجه الى بخارى ليخلع الملك السعيد، لكن اسحق هزم وأسر وكان الذي أسره هو حمويه بن علي قائد جيش السعيد نصر، حيث حمله الى بخارى وأقام بها الى أن مات[٣٦]، وماكاد ينتهي من فتنة اسحق حتى بدأ ابنه منصور في التمرد وكان يؤازره الحسين بن علي بن احمد، وسبب هذا التمرد كما تروي بعض المصادر أن الحسين بن احمد كان قد أخذ سجستان من الصفاريين وضمها الى الامير احمد[٣٧] والد الملك السعيد وكان الحسين يطمع في ولايتها، لكن أحمد ولىّ عليها منصور بن اسحق الذي رفضه الأهالي وطردوه وهنا كلف الحسين مرة أخرى لاخماد فتنة سجستان واعادة الهدوء اليها ونجح في ذلك وكان الأمل لايزال يراوده في ولايتها لكن احمد وللمرة الثانية خيب آماله وأبعده عنها واعطاها الى قائد آخر هو سيمجور الدواتي، غضب الحسين لهذه المعاملة وذاك الاهمال وتحالف مع منصور بن اسحق مستغلين فرصة وفاة الامير احمد.

علم الملك السعيد بما يدبره هؤلاء، فأمر قواته بالزحف الى نيسابور مركز التمرد، وفي هذه الأثناء توفي منصور وبقي الحسين بن علي يقود المعارضة لكنه هزم من نيسابور الى هراة، واستمرت المعركة بينه وبين ابن سهل قائد الملك السعيد حتى تمكن ابن سهل من أسر الحسين وحمله الى بخارى وسجنه هناك[٣٨]، ويبدو أن ابن سهل هو الآخر كان يتطلع الى نيسابور ليكون والياً عليها، وربما لوعد كان الملك السعيد قد قطعه على نفسه[٣٩]، إلا أن السعيد لم يف بوعده فأراد ابن سهل أن يأخذها بالقوة، وفعلاً أعلن ابن سهل تمرده في نيسابور وتمكن من ضم جرجان بعد طرد واليها قرتكين، وكذلك ضم اليه مرو الروذ وبنى عليها سوراً وتحصن بها.

كلف الملك السعيد حمويه بن علي لمحاربة ابن سهل ويبدو أن بعض أصحاب ابن سهل عرضوا عليه أن يتوسطوا له عند حمويه وعدم اراقة الدماء إلا أن ابن سهل أصر على عناده قائلاً:

ساغسل عني العار بالسيف جالباً
عليّ قضاء الله ما كان جالبا

وقعت المعركة وكانت نتيجتها هزيمة ابن سهل وأسره، بعد حيلة دبرها حمويه مع

قادته حيث أوعز لهم أن يكاتبوه ويظهروا ميلهم له، عندها خرج ابن سهل من معقله الحصين وهذا ما كان يهدف اليه حمويه، ودارت المعركة التي هزم فيها ابن سهل وأسر وحمل الى بخارى وسجن حتى توفي يعام ٣٠٧هـ، وهكذا اعيدت سيادة الدولة على نيسابور، وفي عام ٣١٠هـ تمرد الياس بن اسحق - اسحق هذا هو عم احمد بن اسماعيل والد الملك السعيد - وكان الياس في فرغانة، توجه الياس نحو سمرقند بعد أن حشد قواته، إلا أنه هزم أمام قوات الملك السعيد ففر الى فرغانة، لكنه عاد الى التمرد من جديد في عام ٣١٦هـ، وفي هذه المرة نجح الملك السعيد في اخماد فتنته وضمه الى صفوفه، وبذلك عادت فرغانة الى أحضان الدولة السامانية، وهكذا ظلت قوات الملك السعيد تقضي على المتمردين وتسترد ممتلكاتها الواحدة بعد الأخرى حيث استعادت ايضاً طبرستان والري بعد هزيمة ماكان بن كالي[٤٠].

بداية النهاية

وقع خلاف بين الملك السعيد واخوته فقبض عليهم وسجنهم، إلا أن هؤلاء تمكنوا من الفرار من سجنهم بمساعدة أنصارهم مستغلين غياب الملك السعيد عن بخارى. وعلم الملك السعيد بما حدث، فأخذ يستعد للعودة، بينما كلف قائده محمد بن المظفر بقيادة حملة أخرى ضد المتمردين من اخوته ومن يقف الى جانبهم. وكذلك سار الملك السعيد على رأس قواته الى بخارى، وعبر نهر جيحون وتمكن من الوصول الى عاصمته ودخلها وقبض على بعض المتمردين وأعدمهم، وكان اخوه يحيى قد تمكن من الهروب الى سمرقند،، ومنها الى بلخ، وكان واليها مناصراً له وهرب الاثنان الى مرو، وكانت قوات محمد بن المظفر تتقدم اتجاه مواقع يحيى تطارده وتضيق عليه الخناق، وفي النهاية التقى الملك السعيد بقائده ابن المظفر في نيسابور التي فر منها يحيى، ويبدو أن حركة التمرد التي قادها يحيى قد انتهت في عام ٣٢٠هـ.

وماكاد الملك السعيد يرتاح من فتنة اخوته حتى وقع في مواجهة أخرى مع مرداويج بن زيار والي مدينة الري الذي أعلن تمرده هو الآخر وضم اليه جرجان وقزوين وقم وقاشان[٤١]، إلا أن مفاوضات قد جرت بين الطرفين وعفى الملك السعيد عن مرداويج وأبقاه في الري، وأقام محمد بن المظفر على تدبير أمور خراسان وعاد السعيد الى بخارى.

لكن الأمور لم تستقر على حال خاصة في منطقة كرمان التي التحق بها أحد انصار يحيى (اخو الملك السعيد) وهو محمد بن الياس، لكن الملك السعيد أرسل اليه جيشاً بقيادة ماكان بن كالي فهزمه واسترد منه كرمان، ثم سار ماكان بن كالي ومحمد بن المظفر للقضاء على حركة وشمكير أخو مرداويج الذي امتنع بالري، لكن هؤلاء لم يوفقوا في طرد وشمكير من الري الأمر الذي شجع محمد بن الياس على العودة الى كرمان والاستيلاء عليها من قوات السامانيين.

عاد الهدوء الى منطقة خراسان بعد الجهود التي بذلها ابن المظفر، إلا أن هذا القائد قد اعفي من الخدمة لظروفه الصحية[٤٢] وعين مكانه ابنه ابوعلي احمد وكان ذلك في عام ٣٢٧هـ.

في هذه الفترة خلع ماكان طاعة الملك السعيد واتخذ من جرجان مقراً له، سار احمد بن محمد من نيسابور الى جرجان وتمكن من دخولها، بعد أن غادرها ماكان الى طبرستان، كذلك توجه احمد الى الري حيث يوجد وشمكير، ودخل معه في معركة، وكان ماكان قد انضم الى وشمكير، وكانت النتيجة أن هزم وشمكير وفر الى طبرستان، وقتل ماكان وسقطت الري في يد القائد احمد بن محمد، وفي عام ٣٣٠هـ وافق وشمكير على الخضوع للملك السعيد بعد تمكن احمد بن محمد من تضييق الخناق عليه.[٤٣]

وفي العام التالي ٣٣١هـ تنازل الامير نصر عن الحكم لابنه نوح[٤٤]، وتذكر بعض المصادر أن السبب في هذا التنازل ربما يعود الى انتشار حركة القرامطة في ربوع تلك البلاد ويبدو أن الامير نصر قد تعاطف مع هذه الحركة، بل أن بعض المصادر تذكر بأنه أصبح من أنصارها[٤٥]، الأمر الذي أثار عليه قادة الحرس الذين أخذوا يتآمرون لاسقاطه وابعاده عن الحكم، ويبدو أن الامير نصر علم بما يدبر، فقضى على المتآمرين، وأدرك بعدها فساد هذه العقيدة وبطلانها فتركها، وقيل انه كان مريضاً واعتقد بأن هذا المرض كان عقاباً له[٤٦]. وقد أورد نظام الملك هذه القضية في كتابه سياست نامه، إذ قال أن نصر عندما علم بالمؤامرة، قرر الذهاب الى مركز المتآمرين خاصة وانه عرف المكان ففاجأهم في مجلسهم وقال لهم:

«اعلموا أنه بلغني ما تآمرتم به علي، ووجدت قلوبكم علي، ووجد قلبي عليكم، فلن آمن لكم بعد اليوم، ولن تأمنوا لي، وإني إن كنت تنكبت سبيل السنة ودخلت في مذهب خبيث فأوغرت صدوركم علي لهذا فهل ترون في نوح ابني عيباً ما ؟ قالوا: لا، قال فإني ولبته عهدي، فهو اليوم أميركم، فإن كنت قد أخطأت أو أصبت فإني ساعكف بعد اليوم على الاعتذار والتوبة والاستغفار عسى الله عز وجل أن يقبل توبتي وكان رد الامراء والقادة ايجابياً حيث بايعوا نوح في ١٩ ربيع اول عام ٣٤٢هـ وقام نوح بدوره بتوزيع الاموال والهدايا عليهم وخاطبهم قائلاً: «لئن تآمر بنا الاسفهلار – يعني قائد الجيش الذي كان يقود المؤامرة – فقد لقي جزاءه، ولئن تنكب أبي عن سبيل السنة فقد رأى عاقبة أمره، وكان اتفاقكم أنكم اذا فرغتم من الضيافة – وكانوا قد اجتمعوا في ضيافة الاسفهلار – انطلقتم نحو بلاسغون تحاربون الكفار، وإني لأرغب في الغزو، فهلموا نغزوا معاً ونقتل فيما وراء النهر وخراسان كل ملحد ... ولكم بعد ذلك أموالهم ومتاعهم ... فإنه لايليق بمتاع الباطنية ومالهم إلا النهب والاباحة ... فإذا فرغنا من هذا المهم توجهنا الى كفار الترك ..»[٤٧]

وهكذا انطلق نوح مع رجاله يجوبون بخارى ونواحيها يقتلون كل ملحد وجدوه في خراسان وبلاد ماوراء النهر وفي خلال هذه الفترة بدأت ملامح الضعف تلوح في الأفق حيث ورث الامير نوح تركة مثقلة بالمشاكل، وخاصة في الأيام الأخيرة لوالده، فأسندت الوزارة الى رجل عرف بتقواه وورعه وهو الفقيه ابو الفضل محمد بن محمد السلمي الذي لقب «بالحاكم الشهيد» ومما يؤسف له أن هذا الرجل لم يكن متفرغاً لأمور الدولة وادارتها بالقدر الكافي، لذلك لم يتمكن من إقالة الدولة من عثرتها وفي نفس الوقت كانت الدولة تخوض معركة مع الأتراك وكذلك تتصدى لثورة قامت في خوارزم، ولم تفلح في مواجهة هذه المشاكل لأن الجند في حالة تذمر بسبب تأخر مرتباتهم.

أمام هذه الأحداث والمشاكل اضطرت الدولة الى زيادة الخراج والضرائب، ويذكر المقدسي[٤٨]، أنه في عهد نوح هذا استقرضت الدولة خراج سنة كاملة من الناس ولم تستطيع دفعه، وقد تضرر الناس من عمال ديوان الخراج الذين عمدوا الى جمع بقايا الخراج في حين لم يكن بوسع الناس أن يدفعوا الخراج المقرر.

وقد ازدادت الاوضاع سوءاً وتصاعد التوتر عندما طرد نوح بن نصر قائد جيشه احمد بن حمويه ارضاء لوزيره الذي فتك به الجند بعد شهرين لعدم دفع رواتبهم، وفي نفس الوقت تمكن المتمرد ابو علي والي خراسان من دخول بخاري وطرد منها نوح بن نصر الذي هرب الى سمرقند، لكن نوح ما لبث أن عاد الى عاصمته بعد هزيمة أبو علي ومن وقف معه من أبناء الاسرة السامانية.

وبعد فترة زمنية تصالح الامير نوح والقائد أبو علي واستعان الأمير نوح بأبي علي في القضاء على بعض الفتن التي ثارت في ربوع البلاد.

وفي فترة لاحقة عزل ابو علي عن خراسان وكذلك توفي الامير نوح عام ٣٤٣هـ وارتقى العرش ابنه عبدالملك(٤٩)، وفي العام التالي ٣٤٤هـ توفي ابو علي.

شعر الأمير عبدالملك بوطأة القادة وتسلطهم، فأخذ يفكر في التخلص منهم وإبعادهم حتى يشعر بالأمان فعين قائده البتكين الذي وصل الى منصب حاجب الحجاب على ولاية خراسان ليبعده عن بخارى(٥٠)، ووقع صدام بين البتكين والدولة السامانية، اضطر البتكين على الأثر أن ينسحب الى غزنة حيث أسس له هناك دولة خاصة به(٥١) وسنشير اليها فيما بعد.

توفي الأمير عبدالملك وتولى بعده ابنه الامير منصور الذي توفي هو الآخر عام ٣٨٧هـ / ٩٧١م وجاء بعده ابنه ابو القاسم نوح، وكان طفلاً صغيراً، وفي عهده كثرت الاضطرابات والفتن بين قادة الجيش ورجال البلاط، بالاضافة الى حروبهم المستمرة ضد البويهيين فضعفت دولتهم، وتضعضعت أحوالهم فأصبحوا فريسة سهلة للآخرين، حيث تمكن محمود الغزنوي من ضم خراسان الى املاكه، وكذلك نجح بغراخان القائد التركي من التقدم نحو بخارى، ودخلها في عام(٥٢) ٣٨٣هـ / ٩٩٩م بدون مقاومة واستولى(٥٣) على خزائن السامانيين، وتم ترحيل أفراد الاسرة السامانية الى أوزكند التي رجع اليها الايلك بغرا خان نفسه حيث يذكر العتبي «أن مست بغرا خان علة استوبل لها المقام في بخارى، فانزعج عنها عائدا»(٥٤) وكان قد ترك والياً له على بخارى وآخر في سمرقند، وجاء في الصابي قال «حدثني ابو الحسين بن زيرك قال حدثني ابو الحسين بن السبع التميمي الفارسي، وكان

من أعيان التجار قال «كنت ببخارى حين ورد عساكر الخانية، فصعد خطباء السامانية الى منابر الجوامع واستنفروا الناس وقالوا عن السامانية قد عرفتم حسن سيرتنا فيكم وجميل صحبتنا لكم، وقل أظلنا هذا العدو، وتعين عليكم نصرتنا والمجاهدة دوننا، فاستخيروا الله تعالى في مساعدتنا، وأكثر أهل بخارى حملة سلاح، وأهل بلاد النهر كذلك، فلما سمع العوام ذلك قصدوا الفقهاء عندهم واستفتوهم في القتال فمنعوهم منه وقالوا .. لو كان الخانية ينازعون في الدين لوجب قتالهم فأما والمنازعة في الدنيا فلا فسحة لمسلم في التغرير بنفسه والتعرض لاراقة دمه، وسيرة القوم جميلة وأديانهم صحيحة واعتزال الفتنة أولى، فكان ذاك من أقوى الأسباب في تملك الخانية بخارى وهرب السامانية وانقراض ملكهم..

دخل الخانية بخارى فأحسنوا السيرة ورفقوا بالرعية[٥٥] وهذا نص غني عن التعليق إذ يبين كيف أن أهل بخارى لم يقفوا الى جانب السامانية في وجه الاتراك كما يبرز النص ضعف الاسرة السامانية وتفككها وعدم قدرتها على رد المعتدين عليها، ثم أن النص يبين من ناحية أخرى دور العلماء في الامة إذ كانوا بمثابة قيادة فكرية وسياسية يستشيرهم الناس في أدق الأمور وأخطرها وكانت اجاباتهم صريحة واضحة لا لبس فيها.

هكذا إذن سقطت دولة السامانية[٥٦] التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح الاحداث السياسية في منطقة المرق الاسلامي.

هذا ويمكن تلخيص عوامل سقوط الدولة السامانية فيما يلي :

انقسام الاسرة السامانية على نفسها، الأمر الذي أوجد العديد من مراكز القوة التي أخذ كل منها يعمل على تقوية نفسه على حساب الاخرين، وتسرب هذا الى صفوف الجيش الذي انقسم هو الآخر ما بين مؤيد ومعارض لهذا الفريق أو ذاك ودخل في معارك أهلية دفع فيها الناس الثمن غالياً من دمائهم وأموالهم واستقرارهم، فهناك أحداث وقعت بين نصر وأخيه اسماعيل والدولة لازالت في أيامها الأولى، وتفجر صراع نتج عنه مقتل الامير احمد بن اسماعيل عام ٣٠١هـ وصراعات مريرة بين نصر بن احمد وعمه اسحق وكذلك بين نصر وبعض قادته وأخيراً بين نصر واخوته.

وفي خضم هذه الأحداث كان كل أمير يعمل على جمع عدد كبير من الأنصار ليثبت حقه في الحكم دون النظر الى الاضرار المترتبة على هذه الحوادث، ووصل الأمر احياناً ببعضهم لكي يضمن ولاء القادة واخلاصهم أن يدفع لهم الاموال والهدايا الطائلة كما حدث في بداية حكم الامير نوح بن منصور(٥٧).

وقد ترتب على هذه التصرفات افراغ خزانة الدولة من جهة، ومن جهة أخرى تعطيل حركة الانتاج سواء في مجال الزراعة أو الصناعة او التجارة، لأن أي من هذه الفئات لاتستطيع أن تمارس أعمالها في ظل أوضاع قلقة لا يأمن فيها المرء على نفسه أو ماله فقلت مدخولات الدولة لتصبح عاجزة عن دفع التزاماتها وانجاز المتطلبات العامة، ولنأخذ على ذلك مثلاً، فقد عطلت التجارة الخارجية مع الصين بعد أن كانت نشطة الى أبعد الحدود وهذا التعطيل يعود الى الفتن والحروب التي سادت اقاليم الدولة ويمكن أن نضيف عاملاً آخر هو استشراء الحقد والحسد بين كبار رجال الدولة وبعضهم ضد البعض الآخر واستهانتهم بهيبة القيادة العليا والدليل على ذلك أن العتبي عندما أصبح وزيراً للأمير نوح بن منصور تحكم هذا في أمور الدولة وأصبح صاحب الحل والعقد لدرجة أنه أصدر امراً بعزل سيمجور عن ولاية خراسان لوجود ضغائن بينهما، واختار العتبي بدلاً منه ابو العباس تاش لأنه من أنصاره، ويبدو أن السيمجوري حاول الاتصال بالامير نوح لمنع عزله إلا أن نوح لم يتمكن من اعادته الى منصبه لأن الأمور خرجت عن سيطرته، ولم يعد هناك قاعدة لضبطها وأصبحت القدرة والسيطرة لمن لديه قوة عسكرية أو مالية.(٥٨)

كذلك تدخلت النساء في أمور الحكم فأدى ذلك الى فساد الادارة، فهاهي والدة الامير نوح بن منصور تتدخل لدى ابنها لعزل تاش عن ولاية خراسان وذلك بتحريض من الوزير ابن عزيز الذي أقنع والدة الامير بذلك، وقد أدى هذا وغيره الى اشتعال الفتن والمشاكل في ربوع الدولة.

هذا بالنسبة لما حدث في داخل الدولة، أما على حدودها الخارجية، فقد ظهرت بعض القوى الطامعة في تكوين كيانات مستقلة لها على حساب السامانيين وهذه القوى مثل الزيديين في طبرستان، والصفاريين في سجستان والبويهيون في الري وفارس وجرجان وقد دخل السامانيون في معارك متواصلة مع هذه القوى الأمر الذي كان عامل استنزاف مستمر

لقوة السامانيين رغم تمكن السامانيين من التغلب على هذه القوى.

كذلك كان ظهور الاتراك على الحدود الشرقية لدولة لايقل خطورة عن العوامل السابقة، بل كان خطراً مباشراً لأن هؤلاء كانوا يتطلعون الى غزو أراضي الدولة وتمكنوا من ذلك فيما بعد على يد بغرا خان الذي استغل فرصة الانقسامات المحلية، وانضمام بعض الامراء المحليين الى جانبه فدخل الى بخارى كما أشرنا وهو الذي أسقط دولة السامانيين، وبعد انسحاب بغر خان من بخارى ووفاته، اغتصب بعض الامراء منطقة خراسان، فأصبحت البقية الباقية من ممتلكات الدولة محاطة بأعداء من الغرب (الامراء فائق وسيمجور) ومن الشرق الدولة التركية.

أمام هذه المواقف وجد أمير بخارى نفسه مجبراً للبحث عن مساعدات خارجية ضد هذه القوى فاستعان بالأمير سبكتكين والي غزنة، وهذه الاستعانة في حد ذاتها ضعف لأنها سمحت لقوة جديدة أن تتدخل في الامور الداخلية للدولة.

وعلى العموم فإن الظروف والعوامل السابقة مجتمعة أدت الى اضعاف الدولة السامانية وانهيارها وتقسيم ممتلكاتها.

كذلك كان ظهور الاتراك على الحدود الشرقية للدولة لايقل خطورة عن العوامل السابقة، بل كان خطراً مباشراً لأن هؤلاء كانوا يتطلعون الى غزو أراضي الدولة وتمكنوا من ذلك فيما بعد على يد بغرا خان الذي استغل فرصة الانقسامات المحلية، وانضمام بعض الامراء المحليين الى جانبه فدخل الى بخارى كما أشرنا وهو الذي أسقط دولة السامانيين، وبعد انسحاب بغراخان من بخارى ووفاته، اغتصب بعض الامراء منطقة خراسان، فأصبحت البقية الباقية من ممتلكات الدولة محاطة بأعداء من الغرب (الامراء فائق وسيمجور) ومن الشرق الدولة التركية.

أمام هذه المواقف وجد أمير بخارى نفسه مجبراً للبحث عن مساعدات خارجية ضد هذه القوى فاستعان بالأمير سبكتكين والي غزنة، وهذه الاستعانة في حد ذاتها ضعف لأنها سمحت لقوة جديدة أن تتدخل في الامور الداخلية للدولة.

مظاهر حضارية
نظام الحكم والادارة

كان على رأس الدولة حاكم مطلق يتمتع بالاستقلال والسيادة التامة داخل أراضيه، وكان يختار من يعهد اليهم بادارة شئون الدولة، إلا أن الدارس لتاريخ الدولة السامانية يتضح له أن الامراء لم يسيروا وفق نظام محدد ثابت في ولاية العرش، فتارة يكون الابن خلفاً لأبيه وتارة يخلف الأخ أخاه في الحكم، وكان هذا يتيح لذوي الأغراض والمآرب الشخصية أن يتدخلوا في الأمر، وكان لرجال البلاط والغلمان أثر واضح في توجيه الأمور، مما جعلها تبلغ حد الفوضى أحياناً، ولا أدل على ذلك أن هؤلاء الغلمان تمكنوا من قتل الامير احمد بن اسماعيل رغم ما عرف عنه من التقوى والورع، كذلك تآمر رجال الحرس فيما بينهم أيام الامير نصر وأرادوا أن يولوا رئيسهم لولا افتضاح المؤامرة(٥٩) كما سبق وأن ذكرنا. وكثيراً ما كان المتنافسون على السطة يلجأون الى الخلافة وكل منهم يطلب منها أن تمنحه الشرعية، وعندما أصبحت للبويهيين الكلمة في تعيين وعزل خليفة بغداد، لم تعد خراسان تعترف بالخليفة المعين على يد البويهيين.(٦٠)

هذا وكان الأمير الساماني يشرف مباشرة على كثير من مشاريع الدولة وانجازاتها كشق القنوات وحفر الجداول تحت الارض وبناء الجسور والاهتمام بأمر الري وتشجيع الزراعة، وتشييد المعاقل والحصون وبناء المدن وتجميلها باقامة المباني الكبيرة واقامة الرباطات الكبرى(٦١). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اعتمدت الدولة السامانية على جيش كان معظمه من المماليك الاتراك الذين يشرف امراء الدولة على تربيتهم وتدريبهم، فهاهو الامير نصر الثاني بن احمد يخاطب امراء دولته «اتخذوا المماليك وأحسنوا تربيتهم ... ويجب الرفق بهم والحسان اليهم» وقد اسندت الى هؤلاء أعلى المناسب العسكرية والادارية، وقد سبق وأن ذكرنا بأن هؤلاء كانوا يرقون تدريجياً حتى يصلوا الى مراكز مرموقة بعد أن يكون المملوك قد مر بالعديدمن المراحل حتى يوثق في اخلاصه وولائه وخلقه وقدرته.(٦٢)

وكانت مرتبات الجيش هنا تنقسم الى قسمين :

فهناك الموظفين الذين يحصلون على أرزاقهم من الاقطاعات التي بأيديهم، ويقضي نظام جند الاقطاع انه اذا تغيب أحد الفرسان بسبب الموت أو بغيره، أبلغ عنه امراء الخيل، وأن يقوم هؤلاء بالتفتيش على جنودهم، ورعاية مواقعهم العسكرية، وإلا تعرضوا للعقوبة بفرض الغرامات أو تصفية أموالهم.(٦٣)

أما النوع الثاني من الجند، الذين لا اقطاع لهم، فيعين لهم الأرزاق، وكانت العادة أن يتقاضى الجنود مرتباتهم كل ثلاثة أشهر(٦٤)، وكان الجيش يخضع في تنظيمه الى عدد من الموظفين العسكريين الكبار منهم :

حاجب الحجاب:

وهي وظيفة من أكبر وظائف البلاط ولا يصل الموظف لها إلا بعد أن يمر في مراحل طويلة.

قائد الجيش:

(سبهلار) وكان قائد الجيش يختار من بين الاشراف وابناء الاسر العريقة.

رئيس الحرس (امير الحرس):

وكان للامير حرس يتكون من العبيد الذين يشترون لهذا الغرض، وخاصة من الاتراك، وكان رئيس الحرس يشترك ايضاً في الاعمال الحربية.

العارض :

وظيفة متصلة بشئون الحرب، ويذكر أن هذا الاسم لمن يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها اليهم.

رئيس الشرطة:

مهمته تنحصر في الاشراف على العاصمة من الناحية العسكرية وحفظ الأمن.(٦٥)

هذا ومن الجدير بالذكر أن الدولة كانت تعتمد في ادارتها وتنظيم مختلف امورها على

عدد من الدواوين التي كانت تضمها في الغالب بناية واحدة، حيث أمر الامير نصر بن احمد أن تبنى له سراية والى جانبها سراية أخرى لدواوين عماله[٦٦]، بحيث كان لكل عامل ديوان على حدة على باب سرايا السلطان. وأهم هذه الدواوين: ديوان الوزير، وديوان المستوفي، وديوان صاحب الشرطه، وديوان المحتسب، وديوان الاوقاف، وعلى هذا الترتيب بنيت الدواوين.[٦٧]

ومن الجدير بالذكر ان الوزير كان يقف على رأس كل أهل القلم أي رأس الهيئة الديوانية بأكملها، وفي عهد السامانيين يمكن أن نلاحظ أن هناك أسراً بعينها قد احتكرت[٦٨] وظيفة الوزير مثل أسرة آل الجبيهاني وأسرة آل البلعمي، وآل العتبي[٦٩].

ولا يفوتنا أن نذكر هنا بأن النظام الديواني لم يكن من المستطاع تطبيقه في الادارة بشكل موحد في جميع بلدان الدولة والسبب في ذلك أن بعض الولايات كان لايزال تحت حكم أسر محلية، يرجع أصل بعضها الى زمن سابق، فإلى جانب اسرة ابي داود ببلخ، نلتقي بأسر حاكمة في سجستان (الصفاريون) وفي الجوزجان (آل فريخون) إلا أن هذه الاسرلم يلبث أن قضي عليها فيما بعد[٧٠].

هذا وكانت الدولة مقسمة على نظام الولايات أو المدن الكبيرة وماحولها، وكان لكل مدينة رئيس، ولم تكن وظيفته وراثية، وكان رئيس المدينة هو الشخصية الادارية العليا فيها، وبواسطته كان الأهالي يعلمون أوامر الملك ورغباته، وكان صاحب هذه الوظيفة يعين في أول الأمر من بين افراد الاسر المحلية الكبيرة[٧١]، وكان الذي يصدر أوامر التعيين لهذه الوظائف الأمير نفسه، بينما كانت التماسات اعتزال المناصب يرفعها أصحابها الى الحاكم حتى وإن كانوا من صغار الموظفين.

والى جانب مجموعة الموظفين التي تساعد رئيس المدينة كان هناك رجال الدين الذين يتولون بدورهم المناصب الدينية المختلفة سواء في سلك القضاء او الخطابة أو الفتوى، وقد سبق وأن أشرنا الى أهمية موقفهم ودورهم اثناء دخول الاتراك الى بخارى عاصمة السامانيين.

وعلى العموم فإن عمال الدولة وموظفيها كانوا يخضعون لمراقبة شديدة، فقد نمى الى

مسامع الامير اسماعيل بن احمد ذات يوم أن جباة الخراج في الري يطففون بموازين ثقيلة زائفة، فبعث برسوله من فوره ليأتيه بتلك الأثقال في حرز الى بخارى، وأمر بوقف الجابي عن عمله وأمر بغلق ادارته حتى تصير الأثقال على حقيقتها وتعاد الى هناك[٧٢].

أما الاوضاع الاقتصادية :-

فيمكننا القول أن اقتصاد الدولة كان مستقراً ومتنامياً مادامت الأوضاع الداخلية مستقرة وهادئة، فقد حباها الله سبحانه الى جانب مياه الامطار العديد من الأنهار والأودية التي تخترق أراضيها الواسعة ذات التربة الخصبة، ومع توفر الأيدي العاملة ورأس المال واهتمام رجال الدولة بمختلف الامور المتعلقة بالري واصلاح الاراضي، ازدهرت الزراعة ونمت، ونقلت المنتوجات المختلفة من حبوب وخضار وفواكه الى مختلف الاسواق المحلية والخارجية، الى جانب المزروعات الاخرى كالغابات والقطن والكتان.

كذلك نمت الصناعة وازدهرت نظراً لتوافر المواد الخام هناك فمنها المواد الخام الزراعية التي تدخل في الصناعة وخاصة صناعة النسيج، وكانت هناك المعادن من نحاس وحديد وذهب ورصاص وزئبق وشمع والحجر الصخري، وهناك خامات حيوانية كالجلود والوبر والفراء، كل هذه المواد دفعت بعجلة الصناعة الى الامام مع اهتمام وتركيز من الدولة.

وقد ذكر الجاحظ «قد علم الناس ان القطن لخراسان وأن الكتان لمصر»[٧٣] واشتهرت مدن تلك المنطقة بصناعات معينة، فطبرستان اشتهرت بالأكسية البيضاء[٧٤] وقمس تصنع أكسية تحمل الى سائر الامصار[٧٥]، ومدينتي نيسابور ومرو الشاهجان اشتهرت بصناعة الثياب التي تعتمد على خام القطن والابريم لتوفرهما في المدينتين[٧٦]، وسرخس اشتهرت بصناعة المقانع والعصائب المنقوشة المذهبة[٧٧]، ويذكر النرشخي أن خراسان تفوقت في صناعة الثياب الفاخرة المعروفة بالزندنيجي وتصدر الى مختلف البلاد الاسلامية[٧٨]، أما بلخ فقد عرفت حياكة المنسوجات من مشتقات الصوف والوبر لكثرة الجمال والأغنام[٧٩]، وكان

في بخارى دار صناعة كانت تنسج البسط والسرادقات واليزديات – نوع من القماش الفاخر – والوسائد وسجاجيد الصلاة والبرود الفندقية من أجل الخليفة(٨٠).

ومن الجدير بالذكر هنا أن صناعة النسيج قد تأثرت الى حد ما بالفن الصيني في هذا المجال، وكذلك فقد تركت مصر تأثيراتها في المنطقة بدليل اطلاق اسم الديبقي – نسبة الى بلدة دبيق في مصر – على ضرب من النسيج انتشرت صناعته بخوارزم، هذا فضلاً عن الثياب الاشمونية التي تنسج في بلاد ماوراء النهر(٨١).

أما بالنسبة للصناعات المعدنية فقد عرفوا صناعة الاسلحة التي كانت تنافس الصناعة العينية في هذا المجال، كما عرفت صناعة الأدوات المعدنية والآلات المستجلبة من فرغانة وخاصة الاسلحة التي اشتد الاقبال عليها من قبل الناس في بغداد نفسها عندما كانت تصدر اليها، ولاشك أن نمو صناعة المعادن في فرغانة راجع الى وجود مناجم الفحم هناك(٨٢).

أما فيما يتعلق بالتجارة، فقد كان للازدهار الزراعي والصناعي أثره في نمو التجارة الداخلية في البلاد، وقد ساعد على تنشيط الحركة التجارية في الداخل تنوع الانتاج الزراعي والصناعي في مناطق الدولة، فكانت هذه المنتوجات تنقل من سوق الى آخر، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر فهرات كانت تنتج البز الكثير والديباج والزبيب الطائفي(٨٣) واشتهرت مرو بمقانع القز والابريم والبقر والجبن والنحاس والحبوب(٨٤) ومدينة بلخ يرفع منها الصابون والسمسم والارز والكبريت والرصاص والدهون والجلود ومن سرخس ترفع الحبوب والجمال(٨٥) والأغنام، هذا جزء من كل.

وأقول أن هذا التنوع هو الذي نشط حركة التجارة الداخلية وشجعها، وقد ساعد على هذا النشاط انتشار الطرق واصلاحها والمحافظة على أمنها(٨٦).

وهنا نذكر أن الرعاة كانوا يقومون بتوريد الماشية بأعداد هائلة، خاصة الى منطقة خوارزم التي ارتبطت بعلاقات تجارية قوية مع الاتراك، وكان معظم تجار خراسان من أهل خوارزم، كذلك نشطت تجارتهم الخارجية حتى وصلوا الى الصين(٨٧) والهند والعراق، ويذكر

أن بطيخ خوارزم كان يحمل الى بغداد أيام الخليفة المأمون والواثق كما كان السامانيون يستوردون المسك من بلاد شتى وخاصة التبت.[٨٨]

ويذكر أن اساس ثروة المدن السامانية الكبرى كان يقوم الى جانب ماذكرنا على تجارة الرقيق، مثل مرو ونيسابور والري وبلخ وبخارى وسمرقند، والتي كانت تتاجر برقيق الصقالبة الذين كانوا يجلبون اليها عن طريق خوارزم، والرقيق الهنود عن طريق كابل، ولاسيما الرقيق الترك الذين كانوا يؤتى بهم بواسطة ثغور الحدود. وكان يعاد بيع الكثير من هؤلاء العبيد بعد خصيهم أو تدريبهم عسكرياً، وكانوا يبلغون مراكز قيادية في الدولة السامانية.[٨٩]

وعلى العموم فقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي على النهضة العمرانية التي شهدتها البلاد فأسسوا العديد من المساجد الضخمة وكذلك القصور الكثيرة التي بلغ عددها الف قصر، بما تضمنها من حدائق. ويذكر أن الأمير نصر بن احمد أمر فبنيت له سراي أنفق عليها أموالاً طائلة حتى صارت في غاية الجمال.[٩٠]

ويذكر نرشخي عن مواضع في بخارى بأنها كانت مليئة بالقصور والحدائق والبساتين وأمواه جارية على الدوام، وكانت هذه المباني تتخللها أنهار تجري في ألف اتجاه نحو المروج والرياض وقد خططها نوادر اساتذة العصر والمعماريون المهرة.[٩١]

أما بالنسبة للنواحي المالية :

فيكفي أن نشير الى أن دخل السامانيين كان يقرب من الخمسة والاربعين مليوناً من الدراهم[٩٢]، وكانت كلها تحت تصرفهم وأكثر أوجه الصرف التي كانت تواجه الدولة دفع أرزاق الجند وعمال الحكومة، فقد بلغ العشرين مليوناً من الدراهم، وكانت رواتب عمال الحكومة ثابتة في جميع ولاياتها، حتى أن الأفراد الذين كانوا يخدمون في ناحية ما ويشغلون بالطبع نفس الدرجة في سلم الوظائف كانوا يتساوون في الرواتب[٩٣]، وكانت الدولة تتيح الفرصة لموظفيها أن يجمعوا أحياناً بين أيديهم أكثر من وظيفة[٩٤].

هذا وقد وردت اشارات تتعلق بطريقة تحصيل بعض الضرائب والجمارك نود الاشارة اليها، فهي عادة تؤخذ عند معابر نهر جيحون (اموديا) بمقدار درهمين على الحمل، ودرهم على أمتعة الراكب .. سواء كان ممتطياً جواداً أم حماراً، وكانت سبائك الفضة ترد الى بخارى وبسببها كان يقع التفتيش، وفي منازل الوصول كان يجبى ما بين الدرهم ونصف الدرهم. أما الرقيق الترك فكانوا لا يعبرون الا بجواز من السلطان يكلف استخراجه من سبعين الى مائة درهم، وكانت هذه القيمة نفسها تجبى عند جلب الجواري من الترك ولكن الأمر لم يكن ليحتاج الى جواز خاص، أما النساء فكان يجبى عليهن مابين العشرين الى الثلاثين درهماً.(٩٥)

وكانت الدولة إذا نزلت بها ضائقة مالية رفعت الضرائب وفرضت ضرائب جديدة أو أخرت دفع اجور الموظفين، وكان اتخاذ مثل هذا الاجراء يثير تذمر الناس(٩٦)، ومن القضايا التي أثارت سخط العامة واحتجاجهم، أنه في أواخر أيام السامانيين صدر قرار يقضي بأنه في حالة وفاة عامل من عمال الديوان، فإن جزءاً من أملاكه يذهب الى بيت المال، وقد صدر قانون ينص على أنه في حالة وفاة مواطن لم يخلف أبناء فإن جانباً من أملاكه يحجز لصالح بيت المال، وذلك بصرف النظر عن وجود ورثة آخرين، ولم يلبث هذا القانون أن طبق في آخر الأمر حتى على أملاك من تركوا ورثة مباشرين(٩٧). هذه لمحة سريعة عن الاوضاع الاقتصادية للدولة السامانية.

أما فيما يتعلق بالجانب الثقافي :

فقد شجع أمراء الدولة السامانية العلماء وأكرموا وفادتهم وأجلوهم اجلالاً يليق بمكانتهم فقد ذكر ابن الاثير في حوادث ٢٦١هـ أن الامير اسماعيل «كان خيراً يحب أهل العلم والدين ويكرمهم وببركتهم دام ملكه وملك أولاده وطالت أيامه.» ويروي المقدسي «أن الأمراء كانوا يرفعون شأن الفقهاء ويستشيرونهم في شئون الدولة، فها هو الأمير نصر يستشير وزراءه في أمور خاصة به وبدولته فأشاروا عليه بأن يتخذ العلماء والعقلاء وأن يفسح لهم في صدره وأن يرفع منزلتهم، فوافق على نصيحتهم، ولم تنقضي سنة واحدة حتى أصبح نصر أحنف زمانه يضرب المثل في الحلم(٩٨).

وكان من علامات تكريمهم للعلماء اعفائهم لهم من تقبيل الأرض[٩٩] بين أيديهم، وكانوا يدعون الى مائدة الأمير الخاصة التي تقام في دار الحريم، وينبغي أن نذكر للدلالة على مدى التكريم هنا أنه لم يكن يسمح لأحد من الرجال بالدخول اليها، حتى أن الخدمة فيها كانت مقصورة على الجواري. وكان المؤلفون يدخلون على الأمير ومعهم مؤلفاتهم ليجيزهم، وكان الشعراء يفدون على الأمير في الأعياد فينشدونه أشعارهم[١٠٠]. ولا يغيب عن الذهن ايضاً أن امراء الدولة[١٠١] ورجالاتها اهتموا باقامة المدارس حتى قيل أن عدد المدارس الجامعة في بخارى كان في عهد أسماعيل بن احمد يزيد على نظائرها في كل مدن آسيا.

ويذكر المقدسي أن الفقهاء والعلماء كانوا يمتازون عن غيرهم في المجتمع الساماني بأنهم «يتطيلسون ولا يتحنكون»[١٠٢] وكان لبس الطيلسان وقفاً على الكبراء وحدهم، أما عامة الناس فكانت تكتفي بالأقبية المفتوحة.

وعلى العموم فقد وفد على عاصمة البلاد أهل العلم والأدب من كل مكان، وانتشرت المكتبات، وأخص بالذكر مكتبة بخارى التي تحدث عنها ابن خلكان في ترجمة ابن سينا وذكر أنها كانت منقطعة النظير[١٠٣]. وقد وصف ابن سينا خزانة كتب السامانيين في عهد نوح بن منصور المتوفي عام ٣٨٧هـ يقول «فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على البعض الآخر، في بيت كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت علم مفرد، وطالعت فهرست كتب الاوائل، وطلبت ما احتجت اليه، ورأيت من الكتب ما لم يصغ اسمه الى كثير من الناس قط، وما رأيته قبل ولا رأيته بعد فقرأت تلك الكتب، وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه.»[١٠٤]

هذا وقد خرجت عاصمة السامانيين الى العالم الاسلامي علماء وفقهاء في مختلف التخصصات يفوقون الحصر وقدموا للمكتبة العربية الاسلامية امهات الكتب والمصادر في مختلف العلوم والفنون.

ويبدوا أن عوامل هذه النهضة هي :-

وجود عدد من وزراء الدولة كانوا من العلماء والأدباء امثال الجبيهاني والبلعمي، كذلك كان أمراد الدولة يعقدون المجالس الليلية للعلماء وبخاصة في شهر رمضان، ويفتتح الامير المناقشة التي يشترك فيها من حضر من أهل العلم، كما كانوا يعقدون مجالس الأدب ويدعون اليها.

هذا وكانت حرية القول والرأي مكفولة للجميع ولم تكن الدولة تضيق بمهاجمة المهاجمين لها من شعراء وغيرهم.[١٠٥]

وبعد هذا العرض لابد أن نشير الى أن اللغة الفارسية بدأت في هذه الفترة تنمو وتزدهر بشكل واضح بمساعدة امراء الدولة ووزرائها، ولكن هذا لم يكن على حساب اللغة العربية التي كانت تعتبر لغة العلم والادارة، فكثير من العلماء وضعوا مؤلفاتهم بالعربية، ويقال أن الامير الساماني نوح الثاني (٩٧٦ – ٩٩٧) يعتبر باعثاً لشعر الملاحم بالفارسية.[١٠٦]

ويذكر أن الوزير البلعمي وزير المنصور الذي حكم بين ٩٦١ – ٩٧٦م قد قام بترجمة حوليات الطبري الى اللغة الفارسية، وقد كتب هذا المؤرخ الطبرستاني الأصل مؤلفه باللغة العربية، وكان طليعة النثر الفارسي، وقد كتب ابن سينا، في بخارى، مؤلفاته العلمية الضخمة باللغة العربية، وكانت اللغة العربية دائماً هي لغة العلم.

الدولة السامانية

٢٦١ - ٣٨٩هـ

- سامان
  - نوح
  - احمد
  - أسد
    - ١- نصر الاول
      - احمد
      - نوح
      - الياس
      - يحيى
    - ٢- اسماعيل
      - ٣- احمد
        - ٤- نصر الثاني
          - ٥- نوح الاول
            - ٦- عبدالملك الاول
            - ٧- منصور الاول
              - ٨- نوح الثاني
                - ٩- منصور الثاني
                - ١٠- عبدالملك الثاني
                - ابراهيم المنتصر ت ٣٩٥
        - يحيى (ضرب السكة باسمه)
        - ابراهيم
        - منصور
    - اسحق تمرد ٣٠١
      - ابوصالح منصور (سجستان)
      - الياس
    - منصور تمرد ٣٠١
  - يحيى
  - الياس

الحواشي

١- كرديزي: مصدر سابق ص ٣٩ - الاصطخري: مسالك الابصار ١٤٣
ابن الاثير: مصدر سابق ٩١/٧
Bosworth The GHaznavids p. 27
٢- ارمينوس فامبري: تاريخ بخارى ص ٩٣ ترجمة وتحقيق احمد الساداتي
ط ١٨٧٢، Glubb. p. 88
٣- بارتولد: تركستان ص ٣٣٢-٣٣٣ - ابن الاثير: الكامل ٢٧٩/٧
فامبري: مصدر سابق ٩٣-٩٤
٤- ابن الاثير: مصدر سابق ٢٨١/٧
٥- بارتولد: تركستان ص ٣٤٨-٣٤٩
٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٢٨١/٧
٧- فامبري: مصدر سابق ٩٤
٨- بارتولد: مصدر سابق ٣٤٩
٩- فامبري: مصدر سابق ٩٥
١٠- نفس المصدر ص ٩٦
١١- بارتولد: مصدر سابق ٣٤٩-٣٥٠
١٢- فامبري: مصدر سابق ٩٦
١٣- ابن الاثير: مصدر سابق ٢٨١/٧
١٤- فامبري: مصدر سابق ٩٥
١٥- ابن الاثير: مصدر سابق ٩٢/٧
١٦- النرشخي: مصدر سابق ص ٨٠
١٧- ابن الاثير: مصدر سابق ٢٨٠/٧
١٨- النرشخي: المصدر نفسه ٨١
١٩- فامبري: نفس المصدر ٩٧
٢٠- ابن الاثير: نفس المصدر ٢٨١/٧
٢١- النرشخي: نفس المصدر ص ٨١
٢٢- فامبري: نفس المصدر ص ٩٨
٢٣- ابن الاثير: نفس المصدر ٢٨٢/٧
٢٤- نفس المصدر ٤٥٦/٧

٢٥- نظام الملك: نفس المصدر ص ٤٠
٢٦- ابن الاثير: مصدر سابق
٢٧- بارتولد: تركستان ص ٣٥٠ - ٣٥١
٢٨- فامبري: نفس المصدر ٩٩
٢٩- نظام الملك: نفس المصدر ٢٧٤ - ٢٧٥
٣٠- ابن الاثير: نفس المصدر ٥/٨
٣١- بارتولد: تركستان ص ٣٧١
٣٢- Bosworth The Ghiaznavids p. 28
٣٣- وعندما شب كان يظهر الطاعة لخليفة بغداد المقتدر ٢٩٥-٣٢٠
ابن فضلان - رسالة ابن فضلان ص ٧٧
٣٤- ابن الاثير: نفس المصدر ٧٨/٨
٣٥- نفس المصدر والصفحة
٣٦- نفس المصدر ص ٨٠
٣٧- نفس المصدر ص ٨/ ٦٠-٦١
٣٨- نفس المصدر ٨/٨٧-٨٨
٣٩- نفس المصدر ٣٧/٨
٤٠- نفس المصدر ٥٥/٨
٤١- نفس المصدر ٨/١٩٤-١٩٥-١٩٧
٤٢- نفس المصدر ١١٥/٨
٤٣- نفس المصدر ٣٦٩/٨
٤٤- نفس المصدر ٤٠٣/٨
٤٥- ويبدو أن بوزورث يشكك في هذا الأمر
Bosworth The Ghaznavids p. 28
٤٦- بارتولد: مصدر سابق ٣٧٤-٣٧٧
٤٧- نظام الملك: نفس المصدر ص ٢٧٠
٤٨- المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٤٠
٤٩- ابن الاثير: مصدر سابق ٥٠٨/٨
٥٠- نظام الملك: مصدر سابق ١٤٢ ومابعدها
٥١- Wolseley Hiag The Combridge History of Iran Vol. III p. 11 London 1965
٥٢- Clubb. p. 101

٥٣- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٩٨-٩٩

٥٤- العتبي: الفتح الوهبي في شرح تاريخ العتبي اليميني ١/١٧٥-١٧٦

٥٥- الصابي: المنتزع ٨٤-٤٢

٥٦- والمعروف ان ايلك خان اقتسم ممتلكات الدولة السامانية مع السلطان محمود الغزنوي.

أنظر ابن الاثير: ٩/٩٨-٩٩

Sykes I. p. 188 - Clubb. p. 101

٥٧- ابن الاثير: مصدر سابق ٧/١٨٤

٥٨- العتبي: مصدر سابق ص ٤٣

٥٩- نظام الملك: سياسة نامة ١٨٩

٦٠- Bosworth The Ghaznavids p. 28

بارتولد: مرجع سابق ٣٥٢-٣٥٤

٦١- نظام الملك: مرجع سابق ص ٦-٧ ، بارتولد: المرجع والصفحة

٦٢- العبادي: قيام دولة المماليك الاولى ص ٢٣ عن سياسة نامة

٦٣- نظام الملك: مرجع سابق ص ١٣٦

٦٤- نفس المرجع ص ١٣٥

٦٥- Bosworth p. 29 - طه ندا: تاريخ بخارى ص ٦٣

٦٦- Bosworth p. 29

٦٧- النرشخي: تاريخ بخارى ص ٤٤

٦٨- ولا ننسى أن هذا الأمر ربما يكون له ميزات إذ يترك فرصة أمام الأسر الكبيرة والغير ممثلة في الوزارة أن تكون بمثابة معارضة تنبه السلطان بين الحين والآخر على أخطاء أو مخالفات قد ترتكب من قبل الوزير، وهذا يعطي بعض الأمان للدولة ولمجريات الأمور بصفة دائمة.

Glubb. p. 94

٦٩- بارتولد: مرجع سابق ص ٣٥٨

٧٠- المصدر نفسه ص ٣٦٣-٣٦٤

٧١- طه ندا: تاريخ بخارى ص ٦٨

٧٢- فامبري: مرجع سابق ص ١٠٨

٧٣- الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ١٩

٧٤- نفس المصدر ص ٢٢

٧٥- الاصطخري: المسالك ١٥٣

٧٦- نفس المصدر ص ١٤٦ - اليعقوبي: البلدان ٢٨٠.

٧٧- ياقوت: معجم البلدان مادة سرخس

٧٨- النرشخي: تاريخ بخارى ٣٦

٧٩- اليعقوبي: البلدان ص ٢٧٨

٨٠- النرشخي: مصدر سابق ص ٢٧ وانظر: Glubb. p. 94

٨١- بارتولد: مصدر سابق ٣٦٧

٨٢- المصدر والصفحة

٨٣- نسبة الى مدينة الطائف - المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٣ ومابعدها.

٨٤- الاصطخري: مصدر سابق ١٥١ ، المقدسي: نفس المصدر ٣٣٤

٨٥- المقدسي: نفس المصدر ٣٣٤

٨٦- الاصطخري: نفس المصدر ص ٣٠٤ - ٣٠٥

٨٧- المسعودي: مروج الذهب ١١٧/١

٨٨- بارتولد: نفس المصدر ص ٣٦٧

٨٩- موريس لومبارد: الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامي. ترجمة عبدالرحمن حميدة ص ٧١ - ط ١٩٧٩/١٣٩٩

٩٠- طه ندا: تاريخ بخارى ص ٥٠

٩١- النرشخي: نفس المرجع ٤٥-٤٦

٩٢- المقدسي: نفس المصدر ٣٤٠ - بارتولد: نفس المصدر ٣٦٩ وبصفة عامه انظر كتاب : محمد علي حيدر الدويلات الاسلامية في المشرق .

٩٣- ابن حوقل: صورة الأرض ٣٤١-٣٤٢ - تركستان ٣٦٩

٩٤- تركستان: نفس المصدر ٣٧٠

٩٥- المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٤٠ ، بارتولد: تركستان ٣٧٠-٣٧١

٩٦- طه ندا: تاريخ بخارى ص ٦٨

٩٧- بارتولد: نفس المصدر ٣٩٥-٣٩٦

٩٨- البيهقي: تاريخه ص ١١٠

٩٩- Bosworth The Ghaznavids p. 28

١٠٠- طه ندا: تاريخ بخارى ص ٦٨

١٠١- عن سيرة الكثير منهم انظر كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي.

١٠٢- المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٢٨ ويستطرد المقدسي ((ولهم السبة يتفردون بها في الشتاء

يتلبس أحدهم ويجعل الطيلسان فوق العمائم ثم يلبس فوق ذلك دراعة ويرخى ما فوق العمامة على طرف الدراعه من خلف .. ويستطرد المقدسي في الحديث عن ألبسة مختلف الطبقات .. ص ٨-٣

١٠٣- لومبارد: الجغرافية التاريخية ص ٧٣ ، ابن خلكان: ١٩١/١

١٠٤- بارتولد: نفس المصدر ٧١

١٠٥- طه ندا: تاريخ بخارى ص ٧٣.

الدولة الغزنوية* ٣٥١ - ٥٧٩هـ

فتح المسلمون شطراً كبيراً من بلاد الهند في أيام الدولة الاموية عندما كان الحجاج بن يوسف والياً على بلاد المشرق في خلافة عبدالملك بن مروان واستمر المدّ الاسلامي يصبغ هذا الاقليم بالصبغة الاسلامية في الدين والثقافة حتى قيام الدولة الغزنوية المستقلة التي استمرت في حكمها حوالي قرنين من الزمان.

وقد بدأت بوادر قيام هذه الدولة عندما وصل القائد التركي البتكين الى منصب حاجب الحجاب في الدولة السامانية للأمير عبدالملك بن نوح (٣٤٣ - ٣٥٠هـ)، وكانت كلمة البتكين مسموعة في البلاط، فالرجل اجتمعت له المروءة والرأي والشجاعة والتقوى وحسن المعشر[١] حتى أنه كان يتدخل أحياناً في أمور خطيرة كعزل الوزراء وتعيينهم، كما حدث مع الوزير يوسف بن اسحق، فقد «تقدم البتكين في شأن يوسف محضراً قبيحاً حتى أقصوه عن الوزارة وولوها أبا علي محمد بن محمد البلعمي الذي عقد عهداً للبتكين على أن يكون كلاً منهما نائباً عن الآخر[٢]، أي أن كل واحد منهما يحافظ على مكانة وسمعة الآخر في حالة غيابه.

وبعد وفاة الامير عبدالملك اجتمع الامراء ورجال البلاط ليختاروا أميراً جديداً للبلاد[٣]، وأرسلوا يستشيرون البتكين وكان اذاك في نيسابور وجاء في رسالتهم اليه «جرى المقدار بموت أمير خراسان وأن له أخاً في الثلاثين من عمره وولداً في السادسة عشر، فإن رأيت ولينا أحدهم مكانه لأنك أنت مدار المملكة.» فبعث اليهم رسالة نقتطف منها «... كلاهما لائق بالملك ... أما الأخ فرجل كامل عجم القيظ والبرد، عارف بقدر كل رجل حق المعرفة عليم برتبته ومنزلته راع لحرمته ... وأما الابن فيافع غير مجرب ... والأصوب عندي هو أن تجلسوا الأخ على العرش ...»

ويبدو أن الامراء تصرفوا في الأمر وعينوا الابن بدل الأخ الأمر الذي أحرج البتكين، ولا أستبعد أن تكون رسالة البتكين قد تأخرت لهذا تصرف الأمراء.

استغل الحاقدون على البتكين هذا الموقف وأخذوا يوغرون صدر الملك المنصور

فسدد[٤]، وقد حاول البتكين عبثاً أن يرأب الصدع الذي حدث بينه وبين المنصور. وأرسل الملك المنصور رسالة الى البتكين يطلب منه الحضور، إلا أن أصدقاء البتكين نصحوه بعدم الحضور وحذروه لأن النية كانت مبيتة للتخلص منه.

انزعج البتكين لهذا الموقف الذي وقفه المنصور منه خاصة وأنه رجل طاعن في السن بلغ الثمانين، فأطلع رجاله على حقيقة الموقف، وكان معه ما يقرب من الثلاثين ألف فارس فطلب اليهم الالتحاق بالملك المنصور، أما هو ومن يسير معه فقد قرر التفرغ لمجاهدة الكفار والملاحدة في بلاد الهند[٥]، وودع رجاله وأمراءه وتوجه الى الهند، إلا أن دعاة السوء مازالوا يحرضون المنصور حتى أقنعوه بأن يرسل اليه من يقبض عليه لينتهي شره، فتبعته القوات السامانية حتى لحقته في بلخ واشتبكت معه، إلا أن القوات السامانية هزمت أمام القوات التي يقودها سبكتكين لسيده البتكين، بعدها وصل البتكين الى باميان وقرر الدخول الى كابل فدخلها، ومن هناك توجه الى غزنه التي فتحت له أبوابها، فدخلها واتخذ منها مقراً له[٦]، وأخذ يعد العدة لتقوية نفسه، وفشل السامانيون في هزيمته مرة أخرى، وأخذ البتكين في مهاجمة بلاد الهند، ودخل معهم في معارك عديدة كتب له فيها النصر، وقد توفي البتكين أثناء جهاده في الهند عام[٧] ٣٥٢هـ / ٩٦٣م، فاجتمع الأمراء وقادة الجيش ووقع اختيارهم على سبكتكين الذي قبل هذه المهمة بعد أن خاطب الجميع قائلاً لهم: «أما اذا كان لابد من ذلك فإني قبلت هذا الأمر ولكن اشترط لذلك ألا يعترض معترض على ما أفعل أو أقول، ومن خالفني أو عصاني أو تهاون بأوامري كنتم معي عليه قلباً واحداً وقتلتموه.»[٨]

ويذكر ابن الاثير أن الجند اتفقوا عليه «لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال، وكان يذخر من اقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم من كل اسبوع مرتين.»[٩] ومن الجدير بالذكر أن هذا الأمر تم لسبكتكين بعد أن تنازل له الامير بيري عن السلطة عام ٣٦٧هـ. وكان سبكتكين زوجاً لابنة البتكين.[١٠]

نجح سبكتكين في كسب ثقة الأهالي ومحبتهم فعظم أمره وذاع صيته، وأقام علاقات طيبة مع امراء وولاة البلاد المجاورة[١١]، ويبدو أن الخلافة العباسية قد اقتنعت به ايضاً وبقدرته على ادارة أمور البلاد وتحقيق الاستقرار للعباد، فأرسلت اليه تقليداً بولايته

الشرعية، وأرسلت له الخلع، فأصبح سبكتكين حاكماً شرعياً للدولة الغزنوية الناشئة. ورغم هذا فقد ظل سبكتكين متعاوناً ومطيعاً لأمراء الدولة السامانية ووقف الى جانبهم ضد العصاةوالمتمردين[١٢].

أخذ سبكتكين[١٣] يوسع ممتلكاته ويكون له دولة واسعة مترامية الأطراف كما سنرى[١٤]، وقد تم له ذلك بعد أن هزم القادة العسكريين - فائق وسيمجور - مرتين متتاليتين في عام ٣٨٤ - ٣٨٥هـ، وكان هؤلاء يحاولون استغلال ضعف الدولة لاعلان استقلالهم[١٥] وفي هذه المناسبة تغنى الشعراء فرحين مهنئين سبكتكين، قال ابو الفتح البستي:

بسيف الدولة اتسقت امور　　رأيناها مبددة الظلام
سما وحمى بني سام وحام　　فليس كمثله سام وحام

وقال أبو عامر النجدي[١٦]

قل للحوادث غض الطرف خائبة
فقد أضاء بسيف الدولة الأمل
بصاحب الجيش محمود العلي بذخت
أركان ملك عليها غيرها طلل
فالهند والغور قد شابت شعورهم
لما رأوا منك من بأس وقد فشلوا

وفي عام ٣٨٧هـ توفي الامير سبكتكين ويذكر ابن الاثير «أنه كان عادلاً خيراً كثير الجهاد حسن الاعتقاد ذا مروءة تامة ...»[١٧]

ولما حضرته الوفاة كان قد عهد الى ولده اسماعيل رغم انه كان يصغر محمود الذي كان في نيسابور[١٨]، أرسل محمود الى أخيه اسماعيل يطلب منه التنازل ويذكر له أن والده لم يعهد له الا لبعده هو أي محمود عن غزنه، لكن اسماعيل لم يستجب لطلب أخيه محمود، وحدث بينهما اشتباك انتصر فيه محمود ودخل الى غزنه وأخذ يقر الأوضاع هناك ويهيئ

نفسه لتأمين ممتلكاته وتوسيعها، فتوجه لمحاربة من حوله من الأمراء فانتصر عليهم[١٩] بفضل ما لديه من تنظيم وادارة قوية حازمة وقوات عسكرية ضاربة ضمت في صفوفها أجناساً مختلفة. ويذكر نظام الملك هنا «وأن السلطان كان من عادته أن يتخذ جيشه من كل جنس مثل الترك وأهل خراسان والعرب والهنود والديلم وأهل الغور.»[٢٠]

وقد تمكن في عام ٣٨٩ه من الاستيلاء على خراسان وأعمالها بعد أن واقع عبدالملك بن نوح بن منصور والامراء توزون وفائق وسيمجور وهزمهم جميعاً، خاصة وأنهم كانوا في صراع مستمر أقلق المنطقة وأقضّ مضاجع أهلها وأشعرهم بعدم الأمان لكثرة الحروب التي أثاروها في طول البلاد وعرضها. وعندما رأى محمود الفوضى ضاربة أطنابها في هذه المنطقة رأى أن من الحكمة القضاء على هذه الفتن والحروب التي لا تنقطع فدخلها كما ذكرنا في عام ٣٨٩هـ. وبسقوط خراسان في يد محمود الغزنوي كانت الدولة السامانية قد ربطت أحزمتها للرحيل الى غير رجعة.[٢١]

أقام السلطان محمود الدعوة للخليفة العباسي القادر بالله وأرسل للخليفة بهذه المناسبة رسالة[٢٢] نقتطف منها:

«... وقد علم مولانا امير المؤمنين ... حال الماضين من السامانية، فيما كانوا فيه من نفاذ الأمر وجمال الذكر وانتظام الاحوال واتساق الاعمال بما كانوا يظهرونه من طاعة أمير المؤمنين ومبايعتهم ... ولما مضى صالح سلفهم وبقي خلف خلفهم خلعوا الطاعة وشقوا مخالفة لمولانا أمير المؤمنين ... عصاه الجماعة وأخلوا منابر خراسان من ذكر اسمه ... وعم البلاد والعباد فسادهم وبلاءهم ونهك الرعايا ظلمهم ... فدعوت منصور بن نوح الى طاعة مولانا السلطان فلم يصغ الى ذلك، فكان من سوء رأيه ... أن اصطلمه جنده فكحلوه وبايعوا أخاه عبدالملك وملكوه ... فدعوت عبدالملك ايضاً ... فلم يستجب، فنهضت اليه بمن معي من أولياً مولانا أمير المؤمنين ... وبرز عبدالملك بن نوح وعن يمينه ويساره بكتوزون أحد أغواته وفائق رأس طغاته وابن سيمجور وغيرهم ... وانجلت المعركة عن هزيمتهم ... وبعد فلم أجد رسماً في حل وعقد وابرام ونقض الى أن يرد من عالي أمره ورسم ما أبني الأمر ببنائه واحتذي الى حذائه بارادة الله سبحانه وتعالى ...»[٢٣] فأرسل اليه الخليفة القادر يقره على ما بيده وخلع عليه.[٢٤]

كذلك نجح السلطان محمود في مد نفوذه الى بلاد ماوراء النهر وقضى على سلطة البويهيين في الري وهزم السلاجقة[٢٥] والقرخانيين وتوغل في فارس، وفي عام ٤٠٧هـ استولى على منطقة خوارزم، بعد أن هزم أهلها عقاباً لهم على قتلهم لأميرهم الذي هو خوارزمشاه ابو العباس مامون والذي كان زوجاً لأخت السلطان محمود في نفس الوقت وكان خوارزمشاه يظهر الطاعة للسلطان محمود لكن رجال خوارزمشاه قتلوه فتحرك محمود ليثأر لصهره ودخل الى المدينة واستولى على المدينة وأسند امارتها الى حاجبه التونشاش[٢٦].

ولقد أعلن السلطان محمود الجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام[٢٧] والقضاء على الفرق الضالة من رافضة وقرامطة، وكان يخبر الخليفة بانتصاراته المتتالية، وقد تجلت أعماله العسكرية في بلاد الهند كما سنرى، والى جانب اهتماماته العسكرية لم يهمل السلطان الجانب الثقافي، بل اهتم بالعلوم[٢٨] والآداب وبذل الأموال وقدم الهدايا والخلع للعلماء والفقهاء والأدباء، حتى غص بلاطه بهم[٢٩]، ويذكر نظام الملك بأن السلطان محمود «كان سلطاناً عادلاً محباً للعلم ذا مروءة ويقظة طاهر العقيدة غازياً.»[٣٠] وقد توفي رحمه الله في عام ٤٢١هـ.

ويذكر البيهقي أن أمناء الملك وكبار رجال الدولة اتفقوا على أن يتولى الامير محمد نجل السلطان محمود الاصغر العرش بعد والده، وعندما علم الامير مسعود الابن الاكبر للسلطان محمود، وكان مقيماً في أصفهان بوفاة والده وخبر تنصيب أخيه الأصغر، عزم على الرحيل الى غزنه، وعندما علم امناء الدولة وكبار رجالها بنية الامير مسعود أرسلوا اليه يعتذرون عما بدر منهم، وأن ما قاموا به إنما كان لمصلحة الدولة.[٣١]

بدأ الامير مسعود في التجهيز ليرحل الى غزنة وفي الطريق وصله منشور أمير المؤمنين، وقد سرّ الامير مسعود برسالة الخليفة[٣٢] وأمر بأن تقرأ على الملأ ونسخوا من تلك الرسالة صوراً ارسلوها الى مختلف الاقاليم حتى يتأكد لدى الناس رضى أمير المؤمنين عنه وحتى يتأكدوا ايضاً انه ولي عهد أبيه، وفي نفس الوقت وصلته رسالة من أعيان الدولة وكبار رجالاتها يعلنون طاعتهم وولائهم[٣٣]، وفي نفس الموضوع يحدثنا كرديزي أن محمداً هذا –

يعني أبن محمود – تولى بعد والده وكانت أول اعماله رفع المظالم واستمع للمتظلمين، ثم أمر بالجرايد – الوثائق الرسمية – ودفاتر النواحي أن ينظر فيها، فنظر في خراج كل مكان تعرض للخراب بسبب ذلك الخراج الذي أضر بملاكه وتألف الرعايا، وأمر أن تفتح الخزائن، وأن يخلع ويوصل جميع الحشم والجيش ... وجعل رئاسة الجيش لعمه ابي يعقوب وأنعم عليه ووصله وأقام في الوزارة السيد أبا سهل احمد بن لحمدوي فدبر الأمور ومهد أعمال الولاية وحسن معيشة الناس، وعدل الاسعار وأرضى الجيش والتجار جميعاً، فلما انتهى أمر الغنى والترف الى المدن صار التجار ينسلون من الأماكن النائية الى غزنين، فيجلبون اليها من كل متاع وبضائع مختلفة ... وعم بأفعاله الحسنة كل أصناف الرعية والجيش ..

لكن كان للحشم والرعية ميل الى شهاب الدولة أبي سعيد مسعود بن يمين الدولة فأرادوه ملكاً فدبرت مؤامرة ضد السلطان محمد، واتصل المتآمرون بأخيه مسعود ... وكان محمد قد استسلم للطرب وصار مشغولاً بالشراب، حتى قال له مقربوه ان هذا الذي أنت فيه منهمك خطأ كله، وان عامة الناس ينالونك بلسانهم، وخصمك آت من العراق يقصدك وأنت غافل ... فإن كنت لن تحول عن ذلك، فإن هذا الملك سيتحول عنك ...

عندها استعد محمد للقاء خصمه، إلا أن قادة جيشه طلبوا منه عدم مقاتلة إخيه مسعود، فاستجاب لهم، فخلعوه ونادوا بسلطنة مسعود.[٣٤]

ويستطرد كرديزي «تولى الأمير مسعود وقدم العطاء العامة، وجلس للمظالم، وكان ابتداء أمره عام ٤٢١هـ، وكان أول أعماله تقليده الوزارة الى احمد بن الحسين الميمندي، وكان من أكفأ الرجال وقرر مسعود العودة من بلخ الى غزنين، وعندما علم الأهالي بمقدم مسعود زينوا الأسواق وخرج المطربون لاستقباله وواصلوا بالليل والنهار ... منتظرين مجيئ السلطان مسعود، وخرج أعيان ووجهاء غزنين لاستقباله .. وعندما وصل السلطان الى غزنين نثر الأهالي الدراهم والدنانير، وفي اليوم التالي وزعوا الصدقات ...»[٣٥]

وبغض النظر عما ورد في نص كرديزي من بعض التناقضات فإن السلطان مسعود بدأ يمارس سلطانه بخطوات ثابتة، وشرع في عملية البناء والتعمير وتوسيع رقعة أرضه[٣٦]، ولكن الذي يؤخذ عليه كما ذكر البيهقي أنه كان يستمع الى الوشاة والدساسين وهذا أمر يضعف مسيرته ويخلق أمامها العديد من المشاكل والاضطربات الداخلية التي نتج عنها القاء

القبض عليه من قبل قوات ورجال أخيه محمد وقيل على يد ابن أخيه احمد، ويذكر عنه أنه لما وقع في الأسر طلب من أخيه محمد مالاً ينفقه فأنفذ له خمسمائة درهم، فبكى مسعود وقال: كان بالأمس حكمي على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن واليوم لا أملك الدرهم الفرد[٣٧]، وقد قتل مسعود في سجنه، وهنا يذكر الساداتي بأنه «بموت الامير مسعود طويت صفحة حاكم مسلم نابه رعى العلم والعلماء والتفت التفاتاً كبيراً الى الانشاء والتعمير، حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات التي أقامها.»[٣٨]

وكان الامير محمد الذي تولى بعد أخيه مسعود قد أرسل الى ابن اخيه مودود بن مسعود وكان هذا والياً على خراسان، ويعلمه في رسالته بمقتل والده على يد أبناء احمد بن ينالتكين، إلا أن مودود عرف بأن القاتل هو ابن عمه احمد[٣٩]، فأرسل الى عمه محمد[٤٠] رسالة يقول فيها:

«أطال الله بقاء الامير العم، ورزق ولده المعتوه احمد عقلاً يعيش به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على اراقة دم ملك مثل والدي الذي لقبه أمير المؤمنين بسيد الملوك والسلاطين، وستعلمون في أي حتف تورطتم، وأي شر تأبطتم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)»[٤١]

إذن فالامير مودود مصمم على الثأر لوالده[٤٢] وممن ؟ من عمه وابن عمه الذين ارتكبا جريمة بشعة في حق الامير مسعود، تحرك الامير مودود على رأس قواته وخاض معركة حامية مع عمه، فكانت النتيجة هزيمة عمه محمد، ودخل مودود الى غزنه، وانتقم من كل الذين تآمروا ضد والده فأعدم البعض وسجن البعض الآخر.

أخذ مودود يعمل على تنظيم أمور دولته الجديدة في غزنه، إلا أنه فوجئ بعصيان أخيه مجدود في منطقة البنجاب[٤٣]، إلا أن هذه الأحداث لم تطل بسبب وفاة مجدود قبل دخوله في مواجهة مع أخيه الامير مودود الذي توفي في عام ٤٤١هـ[٤٤].

تولى بعده مجموعة من الامراء الضعاف[٤٥] الذين عجزوا عن الدفاع عن ممتلكاتهم ضد السلاجقة الذين احتلوا اجزاء كبيرة من أراضيهم، إلا أن أحدهم وهو الأمير ابراهيم

بن مسعود حاول ان يوقف عجلة الانهيار، ونجح في ذلك نجاحاً ملموساً[٤٦]، وعقد اتفاقاً مع داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب خراسان على أن يكتفي كل منهما بما تحت يده ويترك منازعة الآخر في ملكه.

إلا أن خلفه علاء الدين مسعود قد أتى على كل شيء وسبب كارثة للدولة الغزنوية التي انهارت على أثرها، وذلك عندما حاول أن يتقارب مع السلاجقة، فقد تزوج إحدى اميرات الاسرة السلجوقية الحاكمة وهي أخت السلطان اتسز، وعلى أثر وفاة علاء الدين تولى عرش الغزنويين الامير ارسلان، إلا أن اتسز زحف بقواته نحو غزنة بناء على طلب أخته أرملة الامير علاء الدين وطرد ارسلان الى الهند[٤٧] وارتقى عرش الدولة الغزنوية الامير بهرام تحت حراب السلاجقة، ورغم هذا فقد بدأ بهرام في اتخاذ خطوات ثابتة وفعالة في سبيل إعادة الهدوء والطمأنينة الى ربوع دولته، وحاول أن يقيلها من عثرتها فقضى على فتن البنجاب والملتان، ورد عصبة الامراء الهنادكة عن لاهور[٤٨]، وكان بهرام شاه قاب قوسين أو أدنى ليعيد للغزنويين مجدهم وسيادتهم لولا ذلك النزاع الذي تفجر بينه وبين ملوك الغور الذين كانوا ينزلون مابين هراة وغزنه، وكانت الشرارة الاولى قد اشعلت بين الطرفين عندما دبر الامير بهرام مؤامرة أودت بحياة الامير سوري زعيم الغور، فاندفع هؤلاء نحو غزنة ودخلوها، إلا أنهم اخرجوا منها على يد بهرام شاه الذي توفي عام ٤٤٧هـ. وتولى بعده ابنه خسرو شاه، وكان عليه أن يحافظ على استقلاله أمام هجمات الغور الذين أجبروه على ترك غزنة واستقر في لاهور حيث لاحقته القوات الغورية وقضت عليه وعلى خليفته ابنه بهرام شاه الثاني عام ٥٥٥هـ وبمقتلهما تنتهي الدولة الغزنوية التي عاشت حوالي قرنين من الزمان كانت حافلة بالنشاط والعمل في مختلف الميادين.[٤٩]

الصعوبات الداخلية التي واجهت الدولة

من المعروف أن الدولة في فترات قيامها وتوسعها تواجه العديد من المشاكل التي قد تعرقل مسيرة هذه الدولة أو تلك، خاصة إذا كانت الدولة القائمة لا تملك الامكانات لمواجهة الأحداث الطارئة على أراضيها، والدولة الغزنوية كغيرها واجهت مشاكل وصعوبات متعددة كان أخطرها، تلك الثورات والفتن التي قام بها حكام بعض الأقاليم مستغلين انشغال دولتهم في حروبها الخارجية، إلا أن الدولة كانت لديها الامكانات والقدرات التي مكنتها من معالجة

الأمور لصالحها سواء في داخل الحدود أو خارجها، وكانت أهم هذه الفتن:

فتنة والي غزشتان - وتقع غرشتان شمال غرب غرنة - استغل والي هذه المنطقة انشغال الدولة في حروبها في الهند، وكذلك حركة خلف بن احمد والي سجستان استغل نفس الظروف إلا أن الدولة تمكنت من القضاء على فتنة هؤلاء، إلا أن ابن خلف عاد الى تمرده من جديد فعادت القوات الغزنوية واخمدت فتنته للمرة الثانية، وفي عهد الامير مسعود اعلنت خوارزم العصيان بزعامة هارون بن التونتاش الذي استعان بالسلاجقة، إلا أن السلطات الغزنوية تمكنت من القضاء على ثورة خوارزم كذلك وضعوا حداً لتدخل السلاجقة، هذا بالاضافة الى فتنة اخرى قامت في أصفهان وأخرى في الري وفي همذان وطبرستان وجرجان، حيث استغل الأهالي في هذه المناطق غياب الامير مسعود وانشغاله في بلاد الهند، وكذلك انشغاله مع الغز في خراسان إلا أن الامير مسعود تمكن منهم وأخمد فتنتهم، ودفعوا ما عليهم من الأموال، ثم عاد بعدها الى خراسان[٥٠]، كذلك تمكن السلطان مسعود من القضاء على الفتنة التي أثارتها جماعات الغز في خراسان بعد أن تحمل الكثير من التكاليف[٥١]، وكان ذلك في حدود عام ٤٣١هـ عاد بعدها الى غزنة، وأرسل ابنه مودود ليحفظ خراسان من خطر السلاجقة.[٥٢]

العلاقات الخارجية للدولة الغزنوية

١- مع الخلافة العباسية :

ضعفت الخلافة العباسية في عصرها الثاني، فسيطر الاتراك وعلا شأنهم وتقلص نفوذ الخلفاء، وفقدوا هيبتهم أمام الأسرات التي تعاقبت على حكم بغداد فتمكن البويهيون من السلطة في عام ٣٣٤هـ وظلوا هكذا حتى بدأ نجم السلاجقة يلوح في الأفق فدخلوا الى بغداد وأزالواعنها الاسرة البويهية عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م[٥٣] وخلع الخليفة على زعيمهم طغرل لقب «ركن الدولة» وهكذا سيطر السلاجقة على كل صغيرة وكبيرة في بغداد تاركين الخلافة تتمتع بنفوذها الديني والمعنوي فقط.

أما في المشرق الاسلامي فقد حرص الغزنويون كغيرهم من امراء وسلاطين الدول

الاسلامية أن ينالوا رضى الخلافة التي كانت تصبغ حكمهم بالصبغة الشرعية. لهذا فقد حرص الغزنويون على اقامة الخطبة للخليفة العباسي ونقشوا اسمه على عملتهم، وكان من عوامل التقارب بينهم بين الخلافة انهم كانوا من المسلمين السنة الذين يشاركون الخلافة حرصها على تقوية المذهب السني والتصدي للمذاهب والحركات الأخرى التي كانت تحاول الظهور هناوهناك بين الحين والآخر.

ففي عام ٤٠٤هـ / ١٠١٣م ارسل الحاكم بأمر الله الى السلطان محمود الغزنوي يدعوه الى الدخول في مذهبه الشيعي[٥٤]، إلا أن السلطان محمود لم يستجب لمطلب الحاكم بأمر الله بل استنكر هذا التصرف، وهدد الرسل الذين دعوه الى مثل هذا الأمر، ويذكر كرديزي بأن السلطان محمود أمر بقتل أناس اتهموا بالدعوة للباطنية[٥٥] وأرسل الى الخليفة في بغداد يخبره بما حدث، لكن الخلافة الفاطمية لم تيأس أو تتراجع عن موقفها هذا، بل كررت المحاولة على ايام الخليفة الظاهر، وأرسل الى السلطان محمود هدية مجزية لكن النتيجة لم تكن مشجعة كما هي الحال في المرة الأولى، فقد طرد رسل الفاطميين، وأرسلت الهدية الى بغداد فسرّ الخليفة بموقف السلطان محمود.

هذا وقد شارك الغزنويون الخلافة في كل خطوة دينية تقريباً، ففي عام ٤٠٨هـ / ١٠١٨م استتاب الخليفة القادر فقهاء المعتزلة فأظهروا التبرؤ من الاعتزال، فاستن السلطان محمود في نفس السنة نفس السنة وقبض على المعتزلة والاسماعيلية والقرامطة وأمر بلعنهم على منابر المسلمين.

وفي هذا الصدد يذكر نظام الملك بأن السلطان محمود كتب الى والي كرمان يستنكر فيه اعمال الديالم ويقول في كتابه: «إن الديالم عاثوا في العراق فساداً وطغوا وبغوا، وأظهروا البدعة، وقطعوا المسالك المطروقة وتخطفوا نساء المسلمين وأولادهم ... وقالوا في عائشة رضي الله عنها هجر القول، وقذفوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما أهل الاقطاع فهم يطلبون الخراج من الناس في السنة مرتين وثلاثاً ويجبونه ... وإن الرعية يعلنون مذاهب الزنادقة والبواطنة في كل المدن والنواحي ... ويتنكرون الصلاة والزكاة والصوم والحج ... فلما صح عندي علم هذه الحال فضلت هذا المهم على غزو الهند، وتوجهت الى العراق ... ويستطرد السلطان في رسالته ويذكر بأنه تمكن من مطاردة هؤلاء وشتت

شلمهم وقضى على فتنتهم[٥٦] ويذكر البيهقي أن حسنك وهو أحد كبار بلاط الامير مسعود قد شنق بتهمة انه كان قرمطياً.[٥٧] كذلك حرص الغزنويون على وصول تقليد من الخليفة عند ولاية أي حاكم منهم.

فعندما توفي السلطان محمود، وتولى ابنه مسعود وصله لواء الخليفة وخلعته واستقبل رسول الخليفة استقبالاً حافلاً، وقد استفسر السلطان مسعود عن صحة الخليفة مخاطباً الرسول «كيف حال مولانا ولي النعمة أمير المؤمنين، فقال الرسول .. إنه لله الحمد متمتع بالصحة والسعادة، والأمور كلها وفق المراد وهو راض عن السلطان الأعظم أطال الله بقاءه.»[٥٨] وكان من ضمن الهدية التي تسلمها السلطان مسعود سيف سلمه الرسول للسلطان قائلاً .. إن الخليفة يبلغك بأنه يجب القضاء على الزنادقة والقرامطة وأن يحافظ به على سنة والده يمين الدولة والدين وأن تستولى بهذا السيف على ما بيد الأعداء من البلاد.»[٥٩]

كما حرص الغزنويون على اظهار مدى ما حققوه من نجاح وتوفيق ضد أعداء الاسلام، فكانوا يرسلون الرسل ليبشروا الخلافة بالانتصارات التي كانوا يحققونها وهنا ترد الخلافة بالتهنئة مباركة ومشجعة، هذا في الوقت الذي حرصت فيه الخلافة نفسها أن تقام لها الخطبة على منابر الغزنويين الذين لم يروا في ذلك غضاضة أو انتقاصاً من استقلالهم أو هيبتهم، بل بالعكس كانوا راضين عن علاقتهم بالخلافة، وكانوا اضافة الى ذلك يرسلون الأموال السنوية والهدايا الى بغداد لمساعدة الخلافة في بعض أمورها التي تحتاج الى نفقات، كما أن الأمراء الغزنويين كانوا لا يترددون في قبول شفاعة الخلافة ووساطتها في كثير من الأمور، فهاهي الخلافة تتدخل لاعادة علاء الدين كاكويه الى ولايته اصفهان بعد أن طردته الجيوش الغزنوية نتيجة لتمرده.

٢- علاقتهم بالسلاجقة :-

بدأت العلاقة بين الطرفين عندما سمح السلطان محمود للسلاجقة بالاستقرار في خراسان، وعقد مع زعيمهم ارسلان بن سلجوق اتفاقاً ينص على ذلك، لكن أمر السلاجقة أخذ يستفحل وخطرهم ينتشر، فخاف السلطان محمود سطوتهم فقرر القضاء عليهم قبل فوات الأوان، وفعلاً أوقع بهم هزيمة ساحقة في عام ٤١٩هـ / ١٠٢٨م تقهقروا بعدها الى

خوارزم، فاستقبلهم أميرها هارون بن التونتاش الذي حاول الاستعانة بهم في تمرده ضد الدولة، لكن السلطان محمود تمكن من مباغتتهم وهزيمتهم من جديد لكن هذه الهزيمة لم تكن تعني القضاء على السلاجقة لأن خطرهم ظل قائماً.

وفي فترة لاحقة أي بعد وفاة السلطان محمود عام ٤٢١هـ / ١٠٢٩م وقع نزاع بين مسعود وأخيه محمد الأمر الذي أضعف الدولة وأطمع فيها السلاجقة وغيرهم، فدرج السلاجقة على محاولات التدخل في أمور غزنة حتى أنهم تمكنوا من صرف الغزنويين عن فتوحاتهم في بلاد الهند. وعندما أدرك السلطان مسعود استحالة القضاء[٦٠] عليهم وقع معهم اتفاقاً أتاح لهم فرصة التحرك في خراسان حيث هزموا أميرها في عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م عندما حاول أن يتصدى لهم ويحد من نفوذهم. بعدها تنامت قوة السلاجقة واشتدت سطوتهم حتى أصبحوا أكبر قوة في خراسان[٦١]، لدرجة أنهم قاموا بطرد ولاة وعمال الغزنويين من هذه المنطقة، وشرعوا في تأسيس دولة لهم بقيادة طغرل الذي أخذ يوسع من ممتلكاته على حساب الآخرين، فأخذ يزحف الى نيسابور وتمكن من ضمها لممتلكاته. أمام هذه الانتصارات حاول السلطان مسعود أن يتصدى لأميرهم طغرل في عام ٤٣١هـ / ١٠٣٩م لكنه فشل في المواجهة.[٦٢]

وكان من الطبيعي ألا يقتنع السلاجقة بما أخذوه من ممتلكات الغزنويين، بل تقدموا بقواتهم صوب طبرستان وجرجان منتهزين فرصة الاضطرابات التي عمت هذه المناطق، كذلك ضموا منطقة خوارزم واستمروا في سياسة التوسع هذه حتى احتلوا الري وهمذان، وظلت الحرب بين الفريقين مستمرة أدرك الغزنويون خلالها أنهم عاجزون عن تحجيم دولة السلاجقة الجديدة فأجبروا على توقيع اتفاق معهم اعترف فيه الغزنويون بالأمر الواقع، وسيطر كل فريق على ما تحت يده من ممتلكات.

٣- علاقتهم بالهند :-

المعروف أن أول حملة عسكرية نظامية غزت الهند كانت بقيادة محمد بن القاسم أثناء ولاية الحجاج للمشرق في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان ونجح محمد في الاستيلاء على أجزاء واسعة من الهند وكان من ضمن ما فتحوه بلاد الملتان المركز الديني للهنود. وقد رحب

هؤلاء بالمسلمين نظراً لما قاسوه من جور الحكام وظلمهم، وبعد قيام الدولة العباسية، حافظ العباسيون على ممتلكاتهم هناك، بل زادوا عليها، وعندما ضعفت الدولة العباسية استقل امراء الاطراف حتى كان قيام الدولة الغزنوية على يد سبكتكين الذي أخذ يوسع النفوذ الاسلامي في بلاد الهند، واصطدم بملك البنجاب واسمه جيبال، وتمكن سبكتكين من هزيمته، فاضطر جيبال الى طلب الصلح على أن يدفع إتاوة سنوية للغزنويين[٦٣]، لكن جيبال لم يلبث أن نقض الصلح فهاجمه الغزنويون وهزموه وأسروه[٦٤] وأخذ من عنقه قلادة من الجوهر العديم النظير قومت بمائتي الف دينار، وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي الاسرة، وغنموا خمسمائة الف رأس من العبيد، ويذكر ابن الاثير ذلك بقوله: «وذل الهنود بعد هذه الواقعة، ولم تقم لهم بعدها راية.»

وكان من أثر هذه الانتصارات أن عادت القبائل الافغانية وقبائل الخلج عن عصيانها ولزمت الطاعة والولاء، كما انها مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين في مرحلة لاحقة[٦٥]، وكان سبكتكين قد ضم اليه مدينة بست وقصدار.[٦٦]

استمر السلطان محمود على نفس الخطة التي رسمها والده بالنسبة لبلاد الهند التي لم تكن جديدة بالنسبة له أو مجهولة، فقد شارك والده في معظم الغزوات التي وجهت الى بلاد الهند، ويذكر أن السلطان محمود واقع الهنود عدة وقائع حتى قيل أن السلطان محمود هو الذي أسر جيبال في عام[٦٧] ٣٩١هـ وليس والده سبكتكين، ويبدو أن الغزنويين أطلقوا سراح جيبال مقابل مبلغ كبير من المال[٦٨] إلا أن هذا لم يعد الى السلطة، لأن عادة هؤلاء أن الذي يقع في الأسر لا يحق له أن يعود الى الرئاسة.

وفي العام التالي ٣٩٢هـ تمكن السلطان محمود من فتح بلدة ويهند، وتقدم بعدها الى السند وفتحها وفي عام ٣٩٦هـ توجه نحو الملتان، وكان بها ابو الفتح داود بن نصير بن حميد ويذكر صاحب الكامل أنه نسب اليه الالحاد[٦٩]، وأخذ يدعو الناس الى مذهبه فاشتكى بعضهم الى السلطان محمود الذي قرر غزو الملتان، واستأذن انندبال في العبور الى بلاده حتى يتمكن من الدخول الى الملتان، إلا أن هذا رفض، فقاتله محمود وانتصر عليه[٧٠]، وتمكن بعدها السلطان محمود من الوصول الى الملتان فدخلها بعد أن هزم واليها الى كشمير[٧١]، وفي عام ٣٩٨هـ سار السلطان محمود الى نكركوت وكان المشركون يعتزون بها

حيث جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم، فينقلون اليها أنواع الذخائر قرناً بعد آخر وتمكن المسلمون من فتحها وحملوا من الأموال والذخائر ما لايحصى[٧٢]، بعدها وفي عام ٤٠٢هـ فتح السلطان محمود تهانسير وأمر بتحطيم ما فيها من أصنام، فتدخل بعض أمراء الهنود من أصدقاء السلطان وطلبوا منه عدم تحطيم هذه الأصنام مقابل مال يدفع له، فكان رد السلطان حاسماً واضحاً لا لبس فيه إذ قال لهم:

«إننا نحن المسلمين نعمل أولاً على نشر الاسلام وهدم معابد الأصنام، ونعتقد أننا سنجد على ذلك أضعافاً مضاعفة من الأجر والثواب عند الله ولا حاجة لنا الى المال.»[٧٣]

بعدها وفي عام ٤٠٤هـ سار السلطان الى كشمير وفتح الكثير من القرى والمدن والحصون «وأمر في كل تلك الجهات التي فتحها من دار الكفر بأن تبنى فيها المساجد الجامعة وأمر الاستاتذة بالتوجه الى هناك حتى يعلموا الهنود شعائر الاسلام.»[٧٤]

استمر السلطان في فتوحاته في سنوات لاحقة، وأينما حل كان يأمر ببناء المساجد ويرسل اليها المعلمون والفقهاء ليعلموا الناس مبادئ الدين الاسلامي الحنيف.

وفي عام ٤١٦هـ توجه السلطان محمود الى كجرات وهي مدينة على شاطئ بحر العرب، وفيها صنم اسمه سومنات(٧٥) وهو مشهور عند الهنود، وكانوا يحملون الى معبده كل نفيس، ويغدقون على سدنته الكثير، وله من الوقف مايزيد على عشرة آلاف قرية[٧٦]، فقرر السلطان هدم هذا الصنم ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا ما حل به، عرفوا كذب ادعائهم وفاقوا الى رشدهم ورجعوا عن عبادة الأصنام ودخلوا في الاسلام ... وهكذا سيرته عقيدته الدينية هذه المسافات البعيدة وتحمل المشاق لدرجة أنه حمل الماء والغذاء على عشرين الف جمل، وهناك دارت معركة حامية لعبت فيها العقيدة دوراً بارزاً في دفع المقاتلين من كلا الطرفين الى الاستبسال، وانتصر المسلمون وحطم الصنم، وأخذت أموال كثيرة من المعبد وقدرت بحوالي عشرين مليون دينار[٧٧]، ويذكر كرديزي أن السلطان محمود أمر المؤذن أن يؤذن على كومة رؤوس المشركين ... وأمر بكسر تلك الأوثان الموجودة وأحرقوها وأعدموها واقتلعوا ذلك الصنم الحجري من الأساس.»[٧٨]

ولقد سار مسعود ابن السلطان محمود على سياسة أبيه في بلاد الهند، ففي عام ٤٢٢هـ استولى على مكران[٧٩] وكرمان وما حولهما، وفي عام ٤٢٤هـ استولى على أراض أخرى وعين على الهند احمد بن ينالتيكن الذي تمرد فيما بعد إلا أنه حوصر وقتل.

وهكذا ظل الأمير مسعود يرسل الحملة تلو الأخرى حتى مقتله في عام ٤٣٢هـ[٨٠] ليتولى بعده ابنه الامير مودود وفي عهده حاول بعض ملوك الهند أن يتعاونوا فيما بينهم لطرد المسلمين، إلا أنهم هزموا واستقر الحكم الاسلامي هناك[٨١]. وبعد وفاة الأمير مودود في عام ٤٤١هـ وتولى عمه عبدالرشيد بن محمود[٨٢] عين الرشيد على بلاد الهند نوشتكين الكرخي وبعثه الى لاهور، ثم قتل عبدالرشيد في عام ٤٤٤هـ[٨٣] على يد أحد غلمانه الذين كانوا في خدمته، وهو طغرل الذي استبد بالأمر في غزنة، ولأن عبدالرشيد امتنع في قلعتها، إلا أن من معه من الأمراء والقادة سلموه الى طغرل تحت التهديد والوعيد والترغيب وفي نفس الوقت قتله طغرل، وتولى بعده فرخ زاده بن مسعود الذي تمكن من أخذ خراسان من السلاجقة الذين كانوا قد اغتصبوها، وأطلق سراح الأسرى الذين وقعوا في الأسر[٨٤]، توفي فرخ زاده في عام ٤٥١هـ وتولى بعده الامير ابراهيم بن مسعود وهو الذي وقع مع داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب خراسان اتفاقاً على أن يكون كل واحد منهما أميراً على ما بيده ويترك منازعة الآخر في ملكه.[٨٥]

واستأنف ابراهيم فتوحاته في بلاد الهند، ففي عام ٤٧٢هـ أرسل حملة عسكرية استولت على حصون وقلاع متينة وتحمل في سبيل ذلك الكثير من الصعوبات والمشاكل، إلا أنه توفي في عام ٤٨١هـ وتولى بعده ابنه الامير مسعود بن ابراهيم الذي ظل نفوذه في بلاد الهند قائماً حتى وفاته، وبعد وفاة مسعود تولى بعده ولده ارسلان شاه الذي أناب عنه في بلاد الهند محمد باهليم، إلا أن بهرام شاه أعلن العصيان ضد أخيه ارسلان وتغلب عليه.

وفي عام ٥٤٣هـ قصد سيف الدين الغوري غزنة فملكها وفارقها بهرام شاه الى الهند، لكنه عاد ودخل غزنة في العام التالي ٥٤٤هـ بد أن قتل سيف الدين الغوري. وعندما علم علاء الدين الغوري بما حدث لأخيه سيف الدين قصد غزنة مرة أخرى، وكان بهرام شاه قد توفي في عام ٥٤٨هـ بعد

حكم دام ست وثلاثين سنة[٨٦] وخلفه ابنه خسرو شاه الذي ترك غزنة هارباً الى الهند، وظل هناك حتى توفي في عام ٥٥٥هـ وجاء بعده ابنه خسرو ملك[٨٧] الذي انقرضت دولة الغزنويين بوفاته في عام ٥٨٢هـ[٨٨] ويبدو أن الفترة الممتدة بينه وبين والده كانت بلاد الهند تحت نفوذ الغور.

بعد هذا الاستعراض السريع لغزوات الغزنويين في بلاد الهند، لابد وأن نتعرف على الأسباب التي دفعتهم الى هناك، ويأتي على رأسها فكرة الجهاد التي دفعت السلطان محمود ورجاله الى ايصال الدعوة الاسلامية الى مناطق جديدة، بالاضافة الى الكنوز التي جلبوها من تلك البلاد وهذه الأموال ساعدتهم على مواصلة الفتح، وهناك عامل آخر وهو الصراع الذي كان يحدث من وقت لآخر بين امراء الهند وبعضهم ضد البعض الآخر وكذلك الأنانية التي كانت تسيطر على بعضهم إذ كانوا يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة[٨٩]، وأخيراً يمكننا أن نضيف أن عامل تأمين الحدود والممتلكات الغزنوية كان أحد الدوافع المشجعة للغزنويين على مواصلة فتوحاتهم في الهند.

ويجدر بنا أن نذكر بعض النتائج التي ترتبت على الفتوحات الغزنوية لبلاد الهند، فإلى جانب اتساع رقعة الدولة الغزنوية وما لهذا التوسع من أثر على تنمية موارد الدولة، فقد انتشر الاسلام في هذه البلاد بشكل أوسع مما كانت عليه الأمور في فترة سابقة كذلك عرف الهنود اللغة الفارسية عن الغزنويين بالاضافة الى التبادل الثقافي الواسع بين مختلف الأطراف، ولا ننسى أن الهنود قد اقتبسوا عن المسلمين أنظمتهم الادارية والمالية والقضائية، كذلك جلب الغزنويون اموالاً كثيرة من هذه البلاد ساعدتهم على مواصلة الاستعداد والفتح والتوسع.[٩٠]

٤- علاقتهم بالأتراك :-

في نفس العام الذي دخل فيه ايلك خان بخارى عاصمة السامانيين تولى محمود الغزنوي السلطة بعد والده، وقد أعلن الطرفان ولائهما للخليفة العباسي - القادر - في بغداد، وعقدوا اتفاق مصالحة، لكن ايلك خان نقض الصلح وتقدم الى خراسان ودخلها عام ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م، إلا أن قواته طردت منها شر طردة على يد القوات الغزنوية. بعدها قرر

ايلك خان الانتقام لنفسه من الغزنويين فزحف بقواته في عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م مرة أخرى، لكن قواته هزمت للمرة الثانية، وقد وضعت هذه المعركة حداً لتطلعات القراخانيين في خراسان.(٩١)

وبعد فترة وقع خلاف بين ايلك خان وأحد إخوته ويبدو أن العلاقة بين ايلك خان والسلطان محمود قد تغيرت الى الأحسن بدليل أن السلطان محمود تدخل لاصلاح ذات البين بين الاخوة ونجح في ذلك في عام ٤٠٢هـ(٩٢) / ١٠١١م. وكان للسلطان محمود تطلعات في ولاية خوارزم التي كان عليها ابو الحسن علي بن خوارزمشاه المأمون، وكان علياً هذا قد تزوج أختاً للسلطان محمود، إلا أن رجال أبا علي ثاروا ضده وقتلوه، فأظهر السلطان محمود أنه يريد الانتقام لصهره، وتاديب اولئك الذين يتطاولون على امرائهم، فجرد حملة اتجه بها الى خوارزم، وكان قد تشاور مع القراخانيين فلم يعترضوا لأنهم كانوا يرتبطون معه بمعاهدة صلح. وتمكن السلطان محمود من دخول خوارزم وعاقب الثوار وأعدم قادتهم، ثم عاد محمود تاركاً حاجبه التونتاشي ليكون والياً عليهم، وقد قوى انضمام خوارزم دولة السلطان محمود وجعلها تتفوق على القراخانيين الذين أضعفتهم ايضاً الحروب الأهلية فيما بينهم.

ظلت العلاقات بين الطرفين بين مد وجزر حتى توفي السلطان محمود عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠م(٩٣). وقبل وفاته وصلته الاخبار في عام ٤١٩هـ بأن التركمان عاثوا فساداً في جهات طوس وطغوا وبغوا، واستنجد والي طوس بالسلطان محمود الذي لبى الدعوة وزحف بقواته وقضى على تمرد التركمان، وبعد أن فرغ من طوس توجه السلطان الى الري وجرجان، وأخذ الري من ولاة البويهيين، وعلم السلطان أن الكثير من أهالي هذه المنطقة على مذهب الباطنية، وأن بها قرامطة كثيرين، فأمر السلطان بجمعهم ورجمهم بالحجارة وسجن البعض الآخر.(٩٤)

وفي عهد ابنه مسعود عاد التركمان في غرب مرو الى عبثهم وفسادهم، فوجه اليهم حملة عسكرية، وكانت الحرب بينهما سجالاً، إلا أن النهاية كانت على التركمان في عام ٤٢٨هـ إذ تمكن السلطان منهم واستأصل شأفتهم.(٩٥) لكن فريقاً آخر من هؤلاء التركمان أخذ يتحرك في منطقة أخرى حول بلخ، فتوجهت القوات الغزنوية نحوهم والتقت معهم في معركة داندنخان عام ٤٣١هـ وهزمت القوات الغزنوية هزيمة مريرة تقهقربعدها السلطان الى

غزنة وقتل في عام ٤٣٢هـ[٩٦]، أما عن علاقة الغزنويين بالغور فسوف نتحدث عنها في مكان لاحق.

وقبل أن أنهي حديثي المختصر عن الأوضاع السياسية العامة للدولة الغزنوية أرى لزاماً علي أن اتعرض لما ذكر عن السلطان محمود الغزنوي عند بعض المستشرقين فقد جاء في كتاب تركستان لبارتولد[٩٧] :

إن حملات السلطان على بلاد الهند قد جلبت له أموالاً طائلة الأمر الذي دفع الكثير من الناس أن يتطوعوا في جيشه، وانه يقوم بصرف جزء كبير من هذه الأموال على تشييد مبان ضخمة كالمسجد الجامع والمدرسة[٩٨]، كذلك لايمكن أن يؤخذ بالدين كدليل على ورعه وتقواه، وشخص كمحمود لم يكن لتخفى عليه طبيعة الصلة الوثيقة بين الدين وبين نظام استبدادي كنظامه[٩٩] ... ومن هنا كان عطفه على الفقهاء والمشايخ ما بقوا أداة طيعة لسياسته ... وقد كان طمع محمود في ثروات الهند هو الدافع الحقيقي له وراء هذه الحملات ... وانه لا أساس البتة للقول بأن دوافعها انما كانت غيرته الدينية ... كما أن قمعه للملحدين يمكن تفسيره ايضاً بالدوافع السياسية ... بل ان تهمة الالحاد لم تكن أحياناً الا وسيلة لمصادرة أملاك الشخص المتهم[١٠٠] ويقع في ذات الخطأ من يحاول أن يرى في محمود شخص يدافع عن الأماني القومية الايرانية ...[١٠١]

الى هنا ينتهي كلام بارتولد، ونحن لا نتوقع أن يقول غير ما قال، فهو يتحدث عن بطل مسلم لعب دوراً بارزاً في أحداث المشرق الاسلامي خدمة لدينه وعقيدته وتحقيقاً لآماله وطموحاته، فبارتولد يعتقد أن كثرة الأموال المجلوبة هي التي كانت وراء دفع الكثيرين من الناس الى الالتحاق بالجندية وهذا افتراض لايجوز الأخذ به بصفته المطلقة لأننا لو تابعنا بارتولد في رأيه لاعتبرنا أن معظم قوات السلطان محمود قوات مرتزقة تبحث عن المال فقط ورأيه ايضاً يسقط أمراً حيوياً لدى المسلمين وهو الجهاد في سبيل الله والرغبة في نيل الشهادة، والمسلمون يدركون أن الجهاد مفروض عليهم، فكيف نأخذ برأيه إذن ؟! وهناك آلاف مؤلفة من المسلمين يخرجون للجهاد احتساباً لوجه الله تعالى، وهذا أمر لا أتصور أن بارتولد لا يدركه ولكن يتغاضى عنه خاصة وانه يبحث في تاريخ المسلمين، فلابد أن تكون لديه على الأقل فكرة ولو مبسطة عن الجهاد في الشريعة الاسلامية.

أما ما يذكره عن انفاق الأموال في بناء المسجد الجامع والمدرسة بغزنة، فهذا أمر يضاف الى رصيد السلطان لا عليه، فبناء المساجد الهدف من ورائها عبادة الله سبحانه وتعالى وهو يحث المسلمين على اقامتها، وكذلك اقامة المؤسسات الخيرية كالمستشفيات والمدارس ولا أعتقد أن انساناً راشداً يعترض على بناء مثل هذه المؤسسات لأن خيرها سيعم على الناس كافة، أما عن معاملته للفقهاء ورجال الدين معاملة ترتبط وولائهم له، فلم تثبيتها المراجع خاصة وأن الباحث عندما تناول هذا الموضوع لم يذكر المصادر التي اعتمد عليها، أو حتى المصدر الذي استقى منه المعلومات كما انه لم يثبت حادثة واحدة للتدليل على ما يقول، بل العكس نجده يناقض نفسه في مكان آخر حيث يقول «ان السلطان محمود كان يبدي لرئيس طائفة الكرامية وطائفته الكثير من الاحترام والاجلال .. ويؤثر طائفة الكرامية بعطفه ورعايته ...»[(١٠٢)] وهنا لم يذكر بارثولد أن هذه الطائفة كانت مجاملة للسلطان محمود أو أنها تسير حسب رغباته .. وفي موضع آخر يشكك الكاتب في موقف السلطان محمود عما اذا كانت فتوحاته لها صبغة دينية، ويشكك ايضاً في موقفه من الملحدين.

وهذه أمور يسهل الرد عليها، فالمسلمون تعرضوا لمثل هذه الاتهامات منذ اليوم الأول الذي بدأت فيه دعوة الحق تغزو أوكار الباطل وتأتي عليها الواحد تلو الآخر، فالغزوات التي قام بها السلطان كثيرة ومتعددة ومتباعدة المسافات حتى انه كان يقطع القفار الواسعة ويتعرض للمهالك من أجل الوصول الى مكان يرفع فيه اسم الله، وكان من الطبيعي أن يكون في هذه البلاد أموال وكنوز تكون حلاً للمسلمين بعد فتحهم لهذه البلاد، وكان جزءاً كبيراً منها يسخر لخدمة أهل البلاد من خلال اقامة المدارس والمساجد والمستشفيات لتعليم الناس مبادئ الدين الحنيف وعلاجهم من امراضهم الجسمانية والروحية.

ويحاول الباحث أن يركز على الاهداف السياسية من وراء فتوحات السلطان محمود، وهذا أمر لاغبار عليه فالاسلام دين ودولة، وقد ذكرت اثناء حديثي بعض المواقف للسلطان محمود تثبت حرصه على نشر العقيدة وعدم اهتمامه بالاموال وجمعها.

أما عن موقف السلطان من الملاحدة ومحاولة الباحث التشكيك في هذا الموقف، فأعتقد أنه يبتعد كثيراً عن الصواب لأن قتال الملحدين لا يهمله أي حاكم مسلم ما استطاع

اليه سبيلاً.

ونترك السلطان محمود مع مجموعة من المؤرخين يتحدثون عنه، فابن الاثير يقول عنه: «كان عاقلاً ديناً عنده علم ومعرفة، صنف له كثير من الكتب في فنون العلم، وقصده العلماء من أقطار البلاد وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن اليهم ... كثير الغزوات ملازماً للجهاد[١٠٣] ...» أما فرشته فيقول عنه: «وكان جامعاً للمحاسن الدينية والدنيوية، كما عرف بسياسته وشجاعته وعدله وكان أكثر غزواته لاشاعة الاسلام.»[١٠٤]

ولم يكن السلطان محمود قائماً غازياً عالي المكانة من الجهة العسكرية فقط بل إنه كان ... أديباً كيساً جامعاً بين دولتي السيف والقلم، وقد ضم بلاطه مجموعة من العلماء والأدباء والفقهاء[١٠٥] ...».

ويذكر جوستاف لبون: «أن السلطان محمود كان مسلماً متين العقيدة، تواقاً الى رفع الشريعة النبوية فأعلن في كل مكان يصل اليه أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم.»[١٠٦]

ورغم ماسبق فإننا لا نضع السلطان في موضع من لا يخطئ أو يسيئ فهو انسان وبشر يصيب ويخطئ، فالى جانب الصفات الايجابيةفي شخصه لابد وأن تكون هناك صفات سلبية ولكن الحسنة بعشرة أمثالها.

لمحات حضارية

ارتبطت الدولة الغزنوية بالخلافة العباسية بروابط قوية مبنية على التعاون والتآزر في مختلف الميادين، ولم تحاول الخلافة التدخل في أمر من أمور الدولة الغزنوية التي كانت تتمتع باستقلال تام وفعلي ويرأسها سلطان البلاد الذي كان يعتبر حاكماً مطلقاً ويساعده مجموعة من الموظفين الكبار من ذوي المقدرة والكفاءة والثقة، وأهم هؤلاء الموظفين الوزير وكبير الحجاب والمشرف على المملكة وقائد الجيش، وكان لكل من هؤلاء اختصاص معين يقوم بتنفيذه، وكغيرها من الدول فقد قسمت الدولة الغزنوية الى مجموعة من الاقاليم يعين على كل منها عامل أو والي يساعده عدد من الموظفين كل في تخصصه، وقد عرفت الدولة

الغزنوية عدد من الدواوين كانت تتحكم في ادارة الدولة بصفة عامة. وأهم هذه الدواوين:

ديوان العارض :

ويختص بشئون الجيش من تغطية نفقاته الحربية وارزاق الجند.

ديوان الرسائل :

يطلع رئيسه بتحرير المراسم ووثائق التولية والعقود والرسائل الرسمية، ويلغ من أهمية منصب رئيس ديوان الرسائل أن صاحبه كان يحضر مجلس السلطان الذي يعقد للتشاور في الأمور العامة للدولة، وكان رئيس الديوان يستعين بمجموعة من الموظفين الذين يشترط فيهم الدقة في التلخيص والمهارة في قراءة الخطوط الغريبة.

ديوان الاستيفاء :-

ويقوم صاحبه بواسطة موظفيه بحصر أموال من يلي الولاية أو منصب من المناصب الكبيرة، ويقوم المرشح بكتابة اقرار على نفسه بالأموال والممتلكات التي في حوزته، واذا ما تم عزل هؤلاء يقوم المستوفي بحصر أموالهم، فاذا ثبت حصوله على مال بدون وجه حق صادرها وأعادها الى خزانة الدولة.

ديوان البريد :-

ومن أهم اختصاصاته اطلاع السلطان على جميع الأخبار والحوادث التي ترد اليه من موظفيه المنتشرين في جميع انحاء البلاد الغزنوية وللبريد محطات تسمى السكك تزود بالخيل وراكبيها، واستخدمت الجمال السريعة في نقل الأخبار المستعجلة، كذلك استخدموا للأخبار المسعجلة مايشبه الشفرة في أيامنا هذه، واستخدموها في الحروب وهي عبارة عن رموز ترمز الى موضوع معين.

أما عن الأوضاع الاقتصادية

فقد اهتمت الدولة بتنمية مواردها الزراعية عن طريق اصلاح الاراضي والاهتمام بوسائل الري وتيسيرها لتصبح سهلة امام الزراع حتى يتمكنوا من استغلال اكبر مساحة من الاراضي الزراعية، ولقد تنوعت وسائل الري في الدولة الغزنوية، فكان يوجد في مرو

ديوان لتيسير سبل الري وسمي «ديوان الماء» ويشرف عليه أحد كبار موظفي الدولة، وكان هذا الديوان يضم حوالي عشرة آلاف عامل، ويتضمن الديوان ايضاً دفاتر وسجلات يدون فيها مقادير خراج الاراضي على حسب نوع ريها.

وقد حرصت الدولة على اقامة العديد من السدود لاستغلال مياه الامطار وزيادة رقعة الاراضي الزراعية التي انتجت العديد من المحاصيل الزراعية كالفواكه بأنواعها والحبوب والبقول.[١٠٧]

وقد ازدهرت الصناعة عند الغزنويين بأنواعها المختلفة فصناعة النسيج كانت من الصناعات المرموقة في مدن الدولة كمرو ونيسابور وخوزستان هذا بالاضافة الى استغلال الثروة المعدنية المستخرجة من أراضيها من أماكن متعددة، وأهم هذه المعادن الذهب والحديد والفضة[١٠٨]، وكان من الطبيعي ايضاً أن تهتم الدولة بالصناعات الحربية فأنتجت مصانعها السلاح المختلف الأنواع والفعاليات[١٠٩]، كذلك أنتجت الأدوات الاخرى اللازمة لحياة الناس اليومية سواء من المصنوعات المعدنية أو الخشبية أو الزجاجية أو ما يتعلق بالمأكولات وغيرها.

وقد ترتب على ازدهار الزراعة والصناعة أن انتعشت التجارة بشقيها الخارجي والداخلي، فالأسواق تعقد في كل مكان، وفي أوقات مختلفة الأمر الذي يخلق حركة دائمة، حيث ينتقل الناس بتجاراتهم وبضائعهم من مكان الى آخر، حيث توفر الدولة وسائل النقل والاتصال، وتؤمن طرق المواصلات وتقيم الأسواق المتخصصة، ومن المدن التي اشتهرت بأسواقها الكبيرة أصفهان ونيسابور.

أما بالنسبة للتجارة الخارجية، فقد ارتبطت الدولة بالعديد من الدول الاسلامية، حيث كانت تصدر لها العديد من منتجاتها وبضائعها، كما كانت في نفس الوقت تستورد ما تحتاج اليه من هذه الدول، ويذكر نظام الملك:

«أن السلطان محمود الغزنوي عرف بعدله وانصافه للتجار الصادرين والواردين، وقد علم بهذه العدالة التجار وتناقلوها فيما بينهم فقصدوا غزنة من أبواب الصين والخطا وختن

ومصر وعدن والبصرة يحمل كل منهم الطرائف والغرائب[110]». وقد ترتب على كل هذا أن امتلأت خزانة الدولة بالأموال، فهاهي تقوم بجهود كبيرة في سبيل نشر الدعوة الاسلامية في بلدان واسعة، وهذه أمور تكلف الدولة الكثير، كما أن الدولة اهتمت بالنواحي العمرانية، فعمرت المدن وازدهرت القرى وعم الناس خير كثير.

أما عن النواحي الثقافية

فقد عرفت غزنة كمركز اشعاع ثقافي كبير في آسيا، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري، وقد ساعدها على ذلك انضمام العديد من المراكز الثقافية في تلك المنطقة الى الدولة الغزنوية ومن أهم هذه المراكز مدينة بخارى وأصفهان ومدينة الري، التي قيل أن السلطان محمود قد أخذ من مكتبتها ما يساوي مائة حمل الى خزائنه، هذا عدا الكتب التي احرقت، وكانت كلها تبحث في مجال الفلسفة والاعتزال، ومع انضمام المراكز السابقة الى الدولة الغزنوية كان من الطبيعي أن يلتحق علماء وفقهاء تلك المراكز، حيث وجدوا التشجيع من السلطان الذي كان يحرص على اغراء العلماء وجذبهم الى بلاطه، فقد أرسل الى أمير خوارزم يقول له: «لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعاً الى قصري حتى يتشرفوا بلقائي، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم.»[111] هذا وقد بذل السلطان محمود جهداً كبيراً في سبيل تنشيط الحركة الثقافية، فهاهو يعيد تشييد مسجد غزنة، ويجعله على أحسن صورة «وأضاف الى المسجد مدرسة فيحاء، تشمل حجراتها من بساط الأرض الى سقوفها على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين منقولة من خزائن الملوك السابقين، يتناولها الفقهاء والعلماء بالدراسة والتدريس.[112]

ولاعجب أن يصفه شكيب أرسلان بأن السلطان محمود «لم يكن فاتحاً غازياً عالي المكانة من الجهة العسكرية فقط بل كان أديباً كيساً جامعاً بين دولتي السيف والقلم، وضم في بلاطه علماء وفقهاء وأدباء في تخصصات مختلفة[113]، ومما تجدر الاشارة اليه أن السلطان محمود كان مولعاً بعلم الحديث، ويستمع الى علمائه، ويستفسر عما يتلونه عليه من أحاديث، بالاضافة الى أنه كان يستدعي الى عاصمته كل من له سعة في العلم.

هذا ولم يقتصر تشجيع الحركة العلمية على السلطان فقط وانما اهتم به كثير من ولاة الدولة وامرائها وكان أشهرهم خلف بن أحمد والي سجستان الذي جمع العلماء وطلب منهم أن يضعوا له تفسيراً وتصنيفاً للقرآن الكريم، ويقال انه أنفق على هذه العملية العلمية الرائعة حوالي عشرين الف دينار، وأودع النسخ في نيسابور في مدرسة الصابونية، وهذا التفسير يعتبر من أكبر التفاسير إذ يقع في مائة مجلد.[١١٤]

ومن علماء الدولة المشهورين احمد بن الحسين البيهقي الذي اهتم بعلم الحديث، وهو أول من جمع تصانيف الامام الشافعي في عشر مجلدات ومن أشهر مصنفاته «السنن الكبير» و«السنن الصغير» وكتاب «دلائل النبوة»، وكذلك العالم المشهور العتبي وهو ابو نصر محمد بن عبدالجبار مؤرخ الدولة الغزنوية، ومن كتبه البارزة كتاب اليميني نسبة الى لقب السلطان محمود، وقد أوضح العتبي في كتابه كيفية تأسيس الدولة الغزنوية، ويعد هذا الكتاب من أكبر المصادر لتاريخ هذه الدولة.

ومن الذين برزوا في بلاط الدولة ابو الفضل محمد بن حسين البيهقي الذي عمل فترة في ديوان الرسائل وله كتاب ممتاز عن تاريخ الدولة الغزنوية، ففي ثنايا الكتاب نجد معلومات عن النظم الادارية والمالية والسياسية ورسوم قصر الخلافة، وتحدث عن العادات والتقاليد[١١٥].

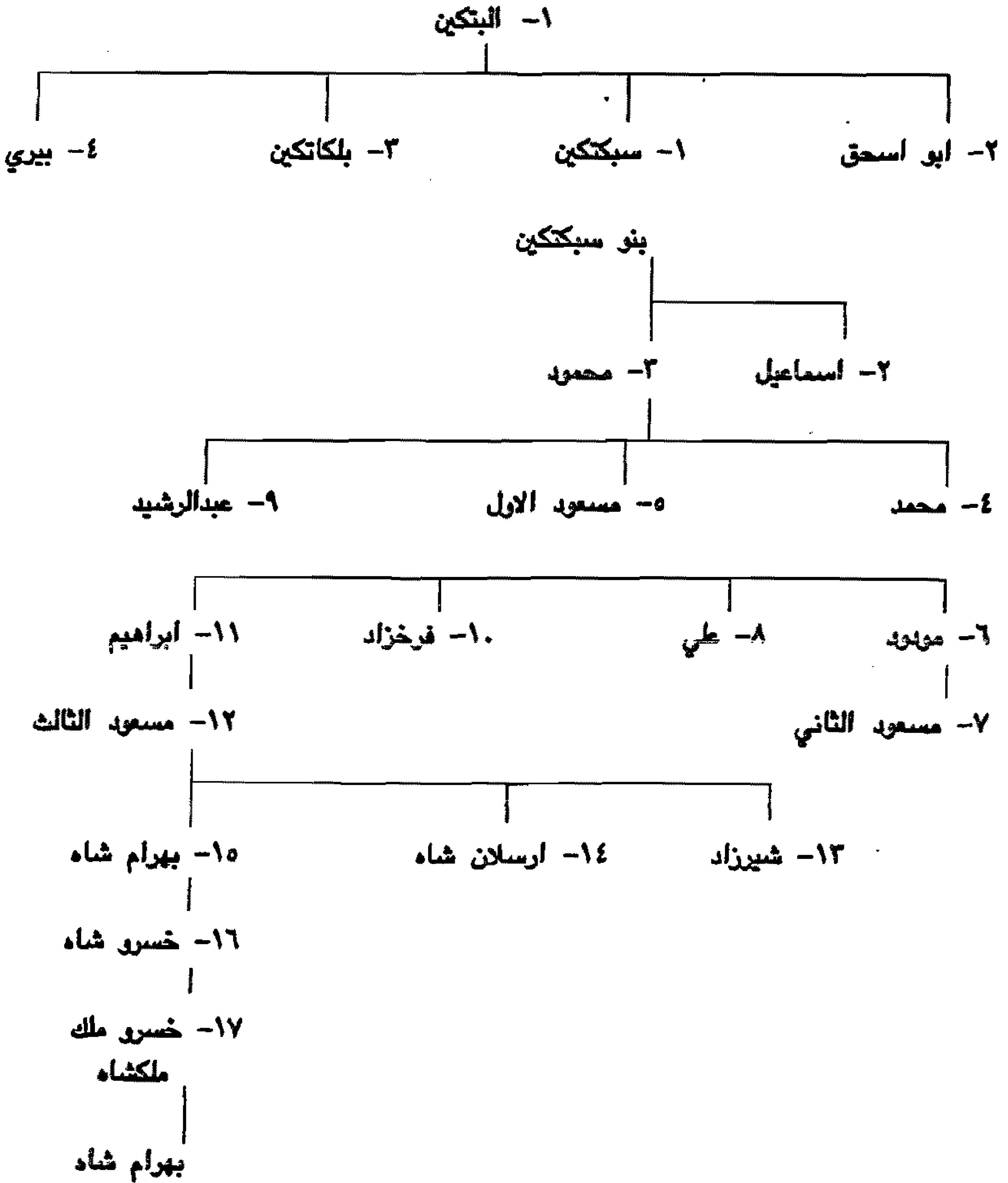
كذلك اهتم بالشعر والشعراء، فالسلطان نفسه كان شاعراً وتنسب اليه بعض القصائد، ولهذا نجده يقرب الشعراء ويشجعهم على البقاء في بلاطه، ويقدر عدد الشعراء في بلاطه باربعمائة[١١٦] شاعر، ومن الشخصيات المعروفة التي اتصلت ببلاط السلطان محمود ابوريحان محمد بن احمد البيروني، وقد استفاد البيروني من فتوحات السلطان محمود في بلاد الهند فائدة علمية كبيرة، وجعل ثروة الهند العلمية في الرياضة والفلسفة

والالهيات في يد العرب والفرنج بما ألفه في ذلك من كتب. وقد نقل العتبي عن بديع الزمان الهمذاني يصف ازدهار الدولة الغزنوية.

تعالى الله ما شاء	وزاد الله ايماني
أأفريدون في التاج	أم الاسكندر الثاني
أظلت شمس محمود	على أنجم سامان
فمن واسطة الهند	الى ساحة جرمان
ومن ناحية السند	الى أقصى خراسان(١١٧)

الغزنويون

٣٥١ - ٥٧٩هـ / ٩٦٢ - ١١٨٣م



الحواشي

* انظر شجرة عائلة سبكتكين في
John Briggs. History of the rise the Mohammadan power in India Vol. 1 p. 7 Calcutta 1966.

١- العتبي: الفتح الوهبي لشرح تاريخ العتبي ١/٥٦-٥٧ نظام الملك ص ١٤٢ – Sanders - 143

٢- كرديزي: مصدر سابق ٤٥-٤٦

٣- Sykes : p. 186
Combridge History of India Vol. 1 p. 11

٤- Bosworth p. 37

٥- Ibid

٦- Sykes, I p. 186
. Inamul Hoqup. M. A. ashort History of modern rule in Indo pakestan p. 14-1470

٧- ويحددها البعض بأنها كانت في عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م
John Briggs. l. p. 7
وانظر Comb. History of India I p. 50

٨- انظر التفاصيل في نظام الملك: ١٤٤-١٥٥ - كرديزي ص ٤٧

٩- ابن الاثير: مصدر سابق ٨/٦٨٤

١٠- Inamul Hoqup. p. 14
John Briggs. l. p. 8

١١- L. Poole Medival India p. 17 Newyork 1970

١٢- العتبي: مصدر سابق ١/١٨٨-١٨٩ ، كرديزي ص ٦٠

١٣- J. Briggs l. p. 14

١٤- Sykes p. 127

١٥- العتبي: مصدر سابق ١/١٩١-١٩٣ ، Bosworth p. 28

١٦- العتبي: نفس المصدر ١/١٩٣-١٩٤-١٩٦

١٧- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/١٣٠

١٨- Sykes. l. p. 187
Henry Beveridge Comprehensive, History of India Vol. p. 52 Newyork 1974.

١٩- Inamul Hocpup. p. 16

٢٠- نظام الملك: مصدر سابق ص ١٣٦ - Glubb. 147

٢١- ابن الاثير: الكامل ١٤٦/٨

٢٢- Bosworth p. 28

٢٣- الصابي: تاريخ الصابي ٨/٩-١٣

٢٤- L. poole Medieval India p. 18 - Sykes. I. p. 187

٢٥- Sykes. I. p. 188-189

٢٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٦٤-٢٦٥ - Sykes. I. p. 190

٢٧- Glubb. p. 144

٢٨- Sykes. I. p. 192

٢٩- Henry, Beveridge I. p. 63 Ibid 193

٣٠- نظام الملك: مصدر سابق ص ٧٩

٣١- البيهقي: نفس المصدر ص ٢، ١٢، ١٣ ومابعدها
Briggs. I p. 56 - Sykes. I. p. 193

٣٢- البيهقي: نفس المصدر ص ١٧-٤٦

٣٣- المصدر السابق ١٧-١٨

٣٤- كرديزي: ١٠٤-١٠٧

٣٥- المصدر نفسه ١٠٩-١١١

٣٦- Briggs. I. p. 58

٣٧- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٤٨٥ -٤٨٦

وهناك رواية غريبة عن وفاة السلطان محمود، إذ يذكر أنه قبل وفاته بيومين، أمر باحضار كل ما غنمه من أموال ووضعها أمامه وتأملها ثم بكى بشدة وقبل وفاته بيوم واحد أمر بعرض عام لقواته العسكرية، فعرضت أمامه، وبكى بحرارة.

أنظر: Henry Beveridge I. p. 62

٣٨- احمد الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ١٠٥
ط ١٣٧٧-١٩٥٧

٣٩- ابن كثير: البداية ١٢/٥٠

٤٠- لكن Sykes يرى أن احمد هو ابن ابراهيم وليس ابن محمد I. p. 196

٤١- ابن الاثير: نفس المصدر ٩/٤٨٦-٤٨٧

٤٢- عن اعمال مسعود العسكرية انظر Sykes s. I. p. 193

٤٣- Ibid: 196

٤٤- ابن الاثير: نفس المصدر ٩/٤٨٨ - Sykes S.I.P. 196

٤٥- Inamul Hoqup p. 25

٤٦- ابن الاثير: نفس المصدر ١٠/٥

٤٧- Sykes. I. p.208

٤٨- Ibid: 208-209

٤٩- انظر الصفحات التالية

٥٠- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٤٤٢

٥١- نفس المصدر ٩/٤٦٢ ومابعدها

٥٢- نفس المصدر ٩/٤٨٤

٥٣- نفس المصدر ٩/٢٥٤

٥٤- Comb. Hist. of Iran Vol. 4 p. 13

٥٥- كرديزي: ٨١

٥٦- نظام الملك: مصدر سابق ٩٧

٥٧- البيهقي: تاريخه ١٨٩

٥٨- نفس المصدر ٣٩٢

٥٩- نفس المصدر ٣٩٣-٤٩٤

٦٠- هاجموا هراة عام ١٠٣١، ثم اخرجوا منها وفي عام ١٠٣٦ هاجموا بلخ لكنهم لم يتمكنوا منها وانسحبوا الى مرو بعد علمهم بتوجه مسعود اليهم Sykes. I. p. 194

٦١- L. poole. Medieval India p. 35

أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ١٠ ط ١٩٧٥

٦٢- احمد حلمي: نفس المصدر والصفحة

٦٣- Henry Beveridge Vol. I p. 51

٦٤- العتبي: مصدر سابق ١/٧٤ ومابعدها

ابن الاثير: مصدر سابق ٨/٦٨٦ - Sykes. I. p. 187

عبدالحي الحسن: الهند في العهد الاسلامي ص ١٤٦ ط ١٣٩٢-١٩٧٢

٦٥- احمد الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص ٨٥-٨٦ ط ١٣٧٧-١٩٥٧

٦٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٨/٦٨٥

٦٧- Sykes. I. p. 188

٦٨- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/١٦٩-١٧٠

Henry Beveridge Vol. I p. 53

٦٩- ابن الاثير: المصدر والصفحة - Sykes. I. p. 188 - Clubb. p. 145

٧٠- كرديزي: نفس المصدر ص ٧٦

٧١- ويقال ان السلطان محمود قبض على ابو الفتح وأخذ منه حوالي ٢٠٠٠٠ دينار.
Sykes. I. p. 188

٧٢- عبدالمنعم النمر: تاريخ الاسلام في الهند ص ١١٩ ط ١ ١٤٠١

٧٣- Sykes. I. p. 141 - L. poole. Medieval India p. 21
عبدالمنعم النمر: تاريخ الاسلام في الهند ص ١٢١-١٢٢

٧٤- كرديزي: مصدر سابق ص ٨١

٧٥- Sykes. I. p. 190

٧٦- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٣٤٢

٧٧- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٣٤٣-٣٤٥ - Glubb. p. 149
Henry Beveridge I. p. 60

٧٨- كرديزي: نفس المصدر ص ٩٧

٧٩- Sykes. I. p. 193

٨٠- عن حروبه انظر: Sykes. I. p. 193-194

٨١- ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٥١٨

٨٢- نفس المصدر ٩/٥٥٨

٨٣- نفس المصدر ٩/٥٨٣-٥٨٤

٨٣- نفس المصدر ٩/٥٨٤-٥٨٥

٨٥- نفس المصدر ١٠/٦ - Sykes. I. p. 208

٨٦- ابن الاثير: نفس المصدر ١١/١٨٨

٨٧- نفس المصدر ١١/٢٦٢

٨٨- Sykes. I. p. 210
Comb. History of India Vol. 3 p. 37

٨٩- احمد السادات: مصدر سابق ص ٩١

٩٠- انظر Inamul Hoqup. Short History p. 16-17
فهو يحلل مختلف الاسباب التي دفعت السلطان محمود بصفة خاصة والغزنويين بصفة عامة الى فتح بلاد الهند.

٩١- Sykes. I. p. 188-189

٩٢- بارتولد: مصدر سابق ٤١٣-٤١٤

٩٣- مصدر سابق ص ٤٢٨

٩٤- كرديزي: مصدر سابق ص ١٠٢

٩٥- نفس المصدر ١١٧

٩٦- نفس المصدر ١٢١-١٢٤

٩٧- Inmul. Hoqup. p. 16-17

٩٨- بارتولد: مصدر سابق ٤٢٨-٤٢٩

٩٩- انظر: Henry Beveridge I. p. 63

ورأيه واضح الى جانب السلطان محمود ويخالف ما جاء به بارثولد وانظر ايضاً :
L. poole Medieval India p. 17-18 - Glubb. p. 149

١٠٠- ابن الاثير: مصدر سابق ٢٨٣/٩

١٠١- بارتولد: تركستان ص ٤٣١-٤٣٣

١٠٢- نفس المصدر ص ٤٣٢

١٠٣- ابن الاثير: مصدر سابق ١٣٩/٩

وانظر في كل ما سبق كتاب وضعه ناظم عن حياة السلطان محمود
The Life and times of Sultan Mahmud of Ghazna By Muhammod Nazim 1971 Comb.

١٠٤- عبد المنعم النمر: تاريخ الاسلام في الهند ص ١٢٨

١٠٥- المصدر السابق ص ١٣٠ عن حاضر العالم الاسلامي ٢٨٩/٤.

١٠٦- انظر: Inamul Hoqup. p. 23-24

فهو يصفه بأنه من أبرز القادة الذين عرفهم العالم وانظر ايضاً :
L. poole Medieval India p. 21

١٠٧- لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٦٣-٤٨٧

حيث يتحدث عن قرى خراسان وبلاد ماوراء النهر

١٠٨- عن بعض الصناعات انظر :

المقدسي: مرجع سابق ٣٠٣

القزويني: آثار البلاد واخبار العباد ص ٣٠٦

١٠٩- الاصطخري: مصدر سابق ١٦١ ابن حوقل - مصدر سابق ٣٨٤ - ٣٨٥

١١٠- نظام الملك: مصدر سابق ص ٣٠٠

١١١- براون : تاريخ الأدب الفارسي ١١١/٢

١١٢- العتبي: نفس المصدر ٢٩١/٢-٢٩٩

١١٣- ارسلان : حاضر العالم الاسلامي ٢٨٩/٤

١١٤- براون : نفس المصدر ٢٠٣/٢

١١٥- انظر الكتاب فهو مطبوع

١١٦- L. poole Medieval India p. 24-30-31

١١٧- ابو المنين فهمي محمد : افغانستان بين الامس واليوم ط ١٩٦٩.

الدولة الغورية

يقع اقليم الغور في المنطقة الجبلية الواقعة بين هراة وغزنه، وقد أصبح هذا الاقليم مركزاً لدولة الغور المستقلة التي قامت على أنقاض الدولة الغزنوية، وحكمت فترة زمنية كانت مليئة بالأحداث التي ادخلت تغييرات هامة على خريطة المنطقة.

اتخذ هؤلاء من مواقعهم الاستراتيجية مكاناً يشنون منه الغارات على حدود الدولة الغزنوية[1] حيث يذكر ابن الاثير «أن بلاد الغور تجاور غزنه وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل، وبلادهم جبال وعرة، ومضايق غلقة، وكانوا يحتمون بها، ويعتصمون بصعوبة مسلكها، فلما كثر ذلك منهم، أنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه، وهم على هذه الحال من الفساد والكفر، فجمع العساكر وسار اليهم ... حتى وصل الى مدينتهم أهنكران فبرز منها عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم المسلمون ... فأمر يمين الدولة أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ففعلوا، فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة حتى أبعدوهم عن مدينتهم، فحينئذ عطف المسلمون عليهم ... فأبادوهم قتلاً وأسراً، وكان في الأسرى زعيمهم ابن سوري، ودخل المسلمون المدينة ... وأظهر يمين الدولة شعار الاسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد.»[2] وقيل أن زعيمهم ابن سوري بعد أسره شرب السم فمات، ويبدو من النص أن هذا هو أول احتكاك عسكري ضخم حدث بين جماعات الغور والدوله الغزنوية التي كانت تتمتع حينئذ بقوة عسكرية جبارة تمكنت من دك معاقل الغور رغم مناعتها.

ويبدو أن السلطان محمود واصل حملاته ضد هؤلاء المفسدين[3]، ففي عام ٤٠٥هـ / ١٠١٤م خرج على رأس حملة صوب خوابين حيث كان الكفار - هكذا يسميهم البيهقي - أعظم قوة وأكثر خبثاً، إذ كانت لهم المعاقل القوية والحصون العديدة، وكان معه ابنه الأمير مسعود فهزم الغور وساح في بلادهم. وفي عام ٤١١هـ / ١٠٢٠م تحركت حملة أخرى الى بلاد الغور، وكان السلطان محمود قد نجح في استمالة أبا الحسن بن خلف وكان من أبرز مقدمي الغور، وكذلك استمال السلطان شيروان من مقدمي المناطق الغورية وهزم الغور هزيمة مريرة، لكن المعارك ظلت مستمرة بين الغورية والغزنوية، الا أنها انتهت لصالح الغزنويين الذين قتلوا كثيراً من الغور، وطلب عدد كبير منهم الأمان، وكانت الغنائم والرقيق لا

حد لها، فأمر السلطان أن ينادى «لقد وهبنا المال والذهب والفضه والرقيق للجيش، أما الاسلحة فيجب تسليمها، فأتوا بكثير من أنواع الاسلحة الى باب الخيمة، فأخذ الخاصه منها ماهو أحسن وأندر، ثم وزعوا سائرها بين رجال الجيش، وأعطوا أباالحسن خلف نصف الأسرى، وشيروان النصف الآخر»(٤)

بعدها تقاطر زعماء الغور ورجالاتهم لاعلان الطاعة والولاء للدولة الغزنوية التي أخذت تعمل على نشر الاسلام بينهم، وترسل اليهم العلماء والفقهاء الذين كانوا يقومون بتعليم الناس مبادئ الدين الاسلامي الحنيف.(٥)

وقد سار مسعود على نفس الخطى التي سار عليها والده مع الغور حتى تمكن من اخضاعهم، إذ يذكر البيهقي «وقد أتى امراء الغور الى الحضرة – يعني حضرة السلطان مسعود – بين مطيع وكاره، بعد أن رأوا من آثار سطوته العظيمة ما أخافهم وقطع أنفاسهم، ولم يتفق أن حدث في عهد ما وكذلك لم أقرأ في كتاب أن الغوريين خافوا أو أطاعوا ملكاً مثل مسعود من قبل.»(٦)

ظل الغور على ولائهم للدولة الغزنوية وهم يشاركون في ادارة امورهم تحت اشراف الدولة ولكن مع مرور الزمن، أخذ الغور يتطلعون الى اعلان استقلالهم ونيل حريتهم، لكنهم كانوا ينتظرون فرصة مواتية لاستقلالها.

كان يتزعمهم في هذه الفترة محمد بن سوري الذي اعتقد أن بامكانه اعلان التمرد، فامتنع عن دفع الاموال التي كانوا يدفعونها سنوياً للدولة الغزنوية.

وقد اتخذ الغور هذه الخطوة مستغلين انشغالهم مع السلاجقة الذين اشتد بأسهم وأخذوا يتوسعون على حساب جيرانهم ودخلوا في معارك متعددة مع الغزنويين الذين أجبروا في نهاية المطاف على الاعتراف بهم كقوة لها نفوذها في المنطقة، بل أنهم أصبحوا أكبر قوة في خراسان بعد هزيمتهم لعمال الدولة الغزنوية هناك(٧). وفي عام ٤٥٣هـ قرر الزعيم الغوري محمد بن الحسين الزحف نحو عاصمة الغزنويين، إلا أن السلطان بهرام شاه تمكن من الايقاع بهم ودبر مكيدة أودت بحياة زعيم الغور(٨).

وقد أثرت هذه الهزيمة في معنويات الغور الذين أخذوا بدورهم يعيدون تنظيم صفوفهم ويتهيأون لجولة قادمة ضد الدولة الغزنوية انتقاماً لما وقع لهم ولزعيمهم في المعركة السابقة[٩]. استقر أمر الغور على ولاية سوري بن محمد الذي أخذ يعد حملة عسكرية يتجه بها الى غزنه[١٠]، وفعلاً ما أن أتم سوري استعداداته حتى توجه على رأس حملته صوب غزنه، وعندما علم بهرام شاه بتقدم القوات الغورية، قرر الانسحاب من غزنه وتركها فريسة للقوات الغورية[١١]، ويبدو أن بهرام شاه كان يدرك أن لا طاقة له في مواجهة الغور. توجه بهرام شاه الى ممتلكاته في الهند في الوقت الذي دخلت فيه القوات الغورية الى غزنه.

أخذ بهرام شاه يعد العدة في مقره الجديد ويجمع قواته استعداداً لطرد الغوريين من عاصمته، وفعلاً نجح في اعداد جيش قوي قاده الى غزنه وتمكن من دخولها بعد هزيمة مروعة للغور، وكان أهالي غزنه قد وقفوا الى جانب بهرام شاه لأنهم كرهوا الحكم الغوري، وهكذا يعود بهرام شاه الى غزنه في عام ٥٤٤هـ مرفوع الرأس بعد أن تخلص من غريمه سوري،[١٢] وقد توج الغور بعده علاء الدين بن الحسين الذي يعتبر مؤسساً للدولة الغورية[١٣]، وكان علاء الدين هذا قد حقد على الغزنويين بصفة عامة، وعلى أهالي غزنه بصفة خاصة، فهم الذين رفضوا الحكم الغوري وسببوا له المتاعب، ولم يكتفوا بذلك بل وقفوا ضده الى جانب بهرام شاه.

أخذ علاء الدين يستعد لجولة جديدة يدخل فيها الى غزنه للانتقام منها، وبعد أن أتم استعداداته توجه الى عاصمة الغزنويين فغادرها بهرام شاه مرة أخرى تاركاً إياها لقمة سائغة للقوات الغورية التي تبيت لها نوايا سيئة، دخل الغور غزنه[١٤]، واستقر بها علاء الدين فترة من الزمن، إلا أنه قرر العودة الى بلاده تاركاً حكم غزنه الى أخيه سيف الدين، وكان قد أوصاه قبل مغادرته ان يتبع سياسة لينة مع الأهالي ويعمل على كسب ثقتهم ومودتهم وأخذ سيف الدين في تنفيذ سياسة أخيه التي نصحه بها فتقرب الى الأهالي وأحسن معاملتهم وأغدق على كبارهم، وحاول على قدر الامكان أن يبسط الأمن ويثبت العدالة في ربوع البلاد، وكان بين الحين والآخر يجتمع بوجهاء البلاد وأعيانها ويخلع عليهم ويفرق فيهم الأموال والهدايا، حتى يطيب نفوسهم ويتعاونوا مع الحكم الغوري[١٥]، وما علم سيف الدين أن النفوس الأبية لا تباع ولا تشترى، بدليل أن سياسته هذه لم يكتب لها النجاح،

فأهالي غزنه لازالوا على ولائهم وتعلقهم بحكامهم القدامى من أبناء البيت الغزنوي، ولازالت مشاعرهم تتعاطف معهم ويتطلعون الى عودتهم، وأخذ الأهالي يتحينون الفرص المناسبة لتحقيق هذا الأمل الذي ظل يراودهم طوال فترة الاحتلال الغوري.

وفي عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م هطلت أمطار غزيرة، وانخفضت درجة الحرارة وتساقطت الثلوج على مرتفعات غزنه بشكل ملموس أدى الى اغلاق الطرق المؤدية الى المدينة التي أصبحت شبه محاصرة، وانقطع الاتصال بين غزنه وبلاد الغور، وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها بل ويتمناها أهالي غزنه، فأعلنوا العصيان والتمرد، خاصة وأنهم مطمئنون الآن الى أن قوات غورية مساندة لا يمكنها الوصول الى مدينتهم للقضاء على التمرد، فانقضوا على الحامية الغورية وأوقعوا في صفوفها خسائر فادحة وشتتوا رجالاتها ونادوا باسم بهرام شاه الذي أرسلوا اليه يطلبون منه العودة على عجل[١٦]، وكانت هذه فرصة طيبة ومناسبة لبهرام شاه الذي شد الرحال مع قواته وتوجه الى عاصمته ودخلها بعد أن تمكن الأهالي من القبض على سيف الدين الغوري حاكم المدينة[١٧]، نكل بهرام شاه بالغوريين[١٨] وأمر بقتل سيف الدين سوري بن الحسين[١٩]. وما أن أخذ بهرام شاه يعيد تنظيم أمور البلاد ويقضي على المشاكل التي ترتبت على ذلك الصراع حتى وافاه الأجل وخلفه ابنه خسروشاه[٢٠] (٥٤٧ – ٥٥٥هـ).

وفي هذه الأثناء كان علاء الدين الغوري زعيم الغور يعد العدة ويحشد الحشود للانتقام مما حدث لأخيه ولقواته في غزنه، خاصة وأنه يشعر بأن الاهالي هناك جاحدون منكرون للنعمة والاحسان الذي قدمه اليهم أخيه سيف الدين، لذلك كان حقد علاء الدين عليهم كبيراً إذ قال عندما بلغه ما حدث في غزنه: «إن لم أقلع غزنه مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين.»[٢١]

وعلى أية حال فقد جمع علاء الدين قوات هائلة توجه بها الى غزنه من جديد، وعلم خسرو شاه بتقدم الغور فانسحب منها الى بلاد الهند واستقر في لاهور التي ستكون قاعدة له[٢٢].

هكذا إذن يترك الغزنويون غزنه التي وقفت الى جانبهم وضحت من أجل ذلك بالنفس والنفيس، لكنها في هذه المرة ستدفع الثمن غالياً، إذ دخلها علاء الدين وصب عليها غضباً

وحقداً هائلين، فأنزل بالأهالي ألوان العذاب والقهر والحرق والسلب والنهب والتدمير، وأباح المدينة لجنده أياماً ثلاثة يفعلون ما يحلو لهم دون رقابة أو قيد عليهم فتفننوا في التنكيل بالأهالي بطرق ووسائل مختلفة، ولم يكتف علاء الدين بهذا بل أمر بتدمير العاصمة حتى أتوا على معالمها وأمر بها فأحرقت حتى قيل بأنه سمي – بجهانسوز – أي محرق العالم(٢٣)، وتمادى علاء الدين في معاملته مع الناس حتى أنه خلع الكثير من الأسر من موطنها، ونقلها وشتتها في أماكن متفرقة ومتباعدة من بلاده، حتى لا يعود الأهالي الى تمردهم مرة أخرى وحتى تخمد غزنه الى الأبد ويكسر شوكتها(٢٤) فكان له ما أراد.

كان سقوط غزنه يعني توسعاً هائلاً لدولة الغور وانكماشاً واضحاً لدولة الغزنويين التي أخذت تسير بخطى سريعة نحو الضعف والانهيار، وأن ممتلكاتها أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى في يد الغور الذين اتخذوا قراراً بمواصلة الزحف على البقية الباقية من الأراضي الغزنوية.

وفي هذه الفترة وقعت أحداث بين ابناء الاسرة الغورية بين علاء الدين وأبناء أخيه، إلا أن مصالحة قد تمت بينهم، وبمقتضى هذه المصالحة يتزوج غياث الدين من ابنة عمه علاء الدين ليكون بعد ذلك ولياً للعهد بعد عمه علاء الدين الذي توفي في عام ٥٥٦هـ(٢٥) / ١١٦٠م. وفي هذه الأثناء اي انشغال الغور بمشاكلهم الداخلية كانت غزنه قد تعرضت لهجوم خارجي من قبل الغز، وقد حدث هذا في عام ٥٤٨هـ إبان الخلخلة التي أصابت الاسرة الغورية، واستمر احتلال غزنه حوالي خمسة عشر عاماً تمكن بعدها غياث الدين من طرد الغز وتحرير غزنه(٢٦).

توسع الغور في بلاد الهند

بعد أن استقرت الامور لغياث الدين الغوري، بعد وفاة عمه علاء الدين، أخذ يفكر في توسيع ممتلكاته من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذ يتطلع للقضاء على البقية الباقية من أبناء الاسرة الغزنوية في لاهور حتى لا يعود الى تهديد الغور من جديد كما حدث في مرات سابقة، ويبدو أن الظروف كانت مواتية لأن الاسرة الغزنوية أصبحت ضعيفة وغير قادرة على حماية نفسها أو الدفاع عن ممتلكاتها.

بدأ غياث الدين في تنفيذ خطته، فأعد القوات اللازمة لتحقيق طموحاته وتطلعاته، فجهز جيشاً بقيادة أخيه شهاب الدين الذي أخذ يستولي على بقية ممتلكات الغزنويين خارج الهند[٢٧]، ولما أتم هذه الخطوة، أخذ يعد العدة لعبور السند لمهاجمة الغزنويين في بلاد الهند، وهنا أخذ خسرو شاه في تحصين مقره في لاهور، ولكن القوات الغورية تمكنت من الوصول اليها وضربت حولها حصاراً قوياً، وطلب شهاب الدين من خسرو شاه الاستسلام، لكن خسرو شاه رفض ذلك فشدد الحصار عليه، وأخيراً أيقن خسرو شاه أنه أضعف من أن يقاوم الحصار المضروب حوله هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يدرك أن الغور يصممون على دخول لاهور، وقد أدرك الاهالي هذه المشاعر التي تختلج في نفس خسرو شاه ويبدو أن نفس المشاعر كانت لديهم فقرر الجميع الاستسلام[٢٨]، وأرسلوا بهذا القرار الى القائد شهاب الدين، فاستجاب لطلبهم، وأمنهم كما طلبوا وفتحت المدينة ابوابها للغور فدخلوها وضمت الى ممتلكاتهم وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها في بلاد الهند عام ٥٧٩هـ، ويذكر ابن الاثير أن خسرو شاه كان آخر ملوك آل سبكتكين، وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلاثمائة، فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاثة عشرة سنة تقريباً[٢٩].

اعترفت الخلافة العباسية بسيادة الغور على لاهور وأرسلت خلعتها لغياث الدين، ولقبته «غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين» وهكذا تحققت الشرعية للغوريين في حكم جميع البلدان التي احتلوها، وقد استمر الغور في توسيع ممتلكاتهم، فاستولوا على هراة بعد أن أخذوها من السلاجقة ثم دخلوا بوشنج وباذغيس من مدن خراسان[٣٠]، ورغم هذا فإن ميدان التوسع الاساسي أمام القوات الغورية كان في بلاد الهند وذلك للأمور التالية :

١- أدرك الغور عدم استطاعتهم الزحف الى وسط آسيا ونظراً لوجود دول قوية هناك كالدولة الخوارزمية ودولة الخطا، ولن تسمح هذه الدول للغور أن يتوسعوا في مناطقهم خاصة وأن هذه الدول كانت لديها قوة عسكرية تستطيع الاعتماد عليها إذا حدث صدام عسكري.

٢- بعد أن انتقل مركز الدولة الغزنوية الى لاهور خاف قادة الغور أن يتمكن الغزنويون بعد

فترة زمنية أن يعيدوا بناء قوتهم العسكرية ويزحفوا من جديد الى غزنه، كما حدث في مرات سابقة وفي هذا تهديد لسيادة الغور، لذلك قرر الغور القضاء نهائياً على الغزنويين قبل أن يلتقطوا أنفاسهم.

٣- ساد الصراع والانقسامات بين امراء الهند وحكامها، الأمر الذي أضعفهم، وجعل قدراتهم الدفاعية ضعيفة، وقد أدرك الغور هذا الأمر وأصبح لديهم إحساس بأنهم لن يجدوا مقاومة عنيفة أو قوة تستطيع التصدي لهم، وكان احساسهم صادقاً الى حد بعيد(٣١).

٤- إن الغور كانوا متحمسين لنشر الاسلام الى مناطق جديدة، لم يصل اليها نور الدعوة من قبل وكان هذا الشعور من أقوى العوامل التي دفعتهم الى توسيع ممتلكاتهم في تلك المناطق(٣٢).

٥- طبيعة النظام الطبقي الهندوكي وقيوده الصارمة التي كانت تحطم معنويات عامة المحاربين وتزعزع كيان النظام العسكري ككل. ذلك أن المحارب الهندوكي العادي مهما أوتي من جرأة وبسالة في القتال، لم يكن له أن يتطلع الى مناصب القيادة التي كانت حكراً على أبناء الطبقات العليا بغض النظر عن كفاءتهم الحربية، على نقيض هذا الأمر كانت الجيوش الاسلامية، حيث الأبواب كانت مفتوحة على مصراعيها أمام كل جندي للوصول الى أعلى المراكز القيادية إذا أثبت كفاءة وشجاعة، ويبدو أن الغور قد أدركوا هذه الجفوة وتلك الهوة الواسعة بين القيادة وقاعدتها فاعتبرت عنصراً فعالاً يدفع القوات الهندية الى عدم الحماس في قتالهم ضد المسلمين(٣٣).

٦- الثروة الاقتصادية الهائلة التي كانت تتمتع بها بلاد الهند، دفعت الغور الى هناك حتى يتمكنوا من الاعتماد على ثروات تلك البلاد بالاضافة الى القوة البشرية الهائلة التي ستصبح عنصر تأييد ومساندة للقوات الاسلامية إذا تمكن الغور من كسبهم الى الاسلام.

ومن الجدير بالذكر أن شمال بلاد الهند كان في تلك الفترة ينقسم الى أقسام متعددة، يخضع كل قسم منها الى أسرة مستقلة عن الأخرى، فمملكة البنجاب كان يحكمها

السلطان الغزنوي خسروشاه الذي انتهى أمره كما مرّ بنا، أما مملكة الملتان فكانت تحكمها اسرة اسماعيلية من القرامطة، ومنطقة السند وكانت تحكمها أسرة هندوكية هي اسرة سماري، يضاف الى ذلك أمارة دلهي وأجمير ومملكة قنوج ومملكة جوجرات ونهر واله ومملكة بهار، ومملكة البنغال ويسمى هذا القسم هندستان وهو أخصب المناطق وأكثرها سكاناً(٣٥).

تحركت القوات الغورية بقيادة غياث الدين محمد في اتجاه الملتان عام ٥٧٠هـ وأخذها من القرامطة، ثم استولى على منطقة آج وهاجموا كجرات(٣٦) عام ٥٧٤هـ ثم توجهوا نحو اقليم السند(٣٧)، فاكمل السلطان غياث الدين فتحه، كما أنه أتم فتح اقليم البنجاب الذي كان تابعاً للغزنويين(٣٨).

أسند غياث الدين حكم هذه البلاد الى أخيه شهاب الدين الذي أخذ يعمل على تثبيت أقدام دولته في هذه البلاد ويتطلع الى توسيع ممتلكاته في المناطق، هذا ويعتبر شهاب الدين مؤسس أول دولة اسلامية في بلاد الهند(٣٩).

أدرك امراء شمال الهند خطورة توغل الغور في بلادهم وطموحهم الى مزيد من التوسع، فتنادوا فيما بينهم، وتعاهدوا على الوقوف صفاً واحداً للتصدي للغور ومنعهم من التوسع وطردهم من البلاد إن تمكنوا من ذلك.

اجتمعت قوات من دلهي وبهار والبنغال وزحفت اتجاه القوات الغورية وحدثت معركة رهيبة بين الطرفين في عام ٥٨٧هـ هزم فيها الغور وجرح شهاب الدين الذي حقد على قادته وامرائه اعتقاداً منه بتقصيرهم في المعركة(٤٠)، فجمعهم وملأ مخالي خيلهم شعيراً وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم، فأكلوه ضرورة(٤١).

وفي العام التالي ٥٨٨هـ أعد شهاب الدين قواته اعداداً جيداً استعداداً لجولة قادمة ضد ملوك الهند(٤٢)، لكنه رغم هذا فقد كان لايزال غاضباً على جنده ورجاله، إلا أن أحد شيوخ الغورية تدخل لديه لاصلاح الأمر بين السلطان ورجاله، فقال له السلطان: «إعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر، لم أنم مع زوجتي، ولا غيرت ثياب البياض عني، وأنا سائر الى عدوي ومعتمداً على الله تعالى لا على الغورية، ولا على غيرهم، فإن نصرني الله سبحانه

وتعالى ونصر دينه فمن فضله وكرمه، وإن انهزمنا فلا تطلبوني فيمن انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل.» فقال الشيخ لشهاب الدين: سوف ترى بني عمك من الغورية ما يفعلونه، فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم، ففعل، وبقي امراء الغورية يتضرعون بين يديه، ويقولون سوف ترى ما نفعل(٤٣).

وعلى العموم نجح الشيخ في استرضائه ورضي عن جنده ووجهاء رجاله وقادته، وتقدم على رأسهم فاستولى على بعض الاراضي الهندية، ثم انسحب امام ملك الهند الذي اعتقد بأن شهاب الدين عاجز عن لقائه، فأرسل رسالة الى شهاب الدين يقول له فيها: «أعطني يدك، إنك تصافقني في باب غزنه حتى أجيئ وراءك، وإلا فنحن مثقلون، ومثلك لا يدخل البلاد شبه اللصوص، ثم يخرج هارباً، ماهذا فعل السلاطين، فأعاد الجواب: «إنني لا أقدر على حربك.» وبعد مرحلة غير بعيدة عن الحدود الاسلامية عسكر شهاب الدين وأمر قواته بالالتفاف حول الهنود فكان له ما أراد وجرت بين الطرفين معركة ضارية أنزل الله سبحانه وتعالى نصره على عباده المؤمنين، وانتقم شهاب الدين لهزيمته في السنة الماضية(٤٤)، وضرب عنق الملك أجمير، وأقام ابنه حاكماً مكان أبيه على أن يدفع له الجزية السنوية(٤٥)، وقد غنم المسلمون الكثير مما تركه الهنود على أثر الهزيمة(٤٦). وقد أخذ نفوذ الامراء الهنود يتقلص بعد الهزيمة في الوقت الذي أخذ فيه نفوذ الغور يمتد ويتوسع الى بلاد جديدة، فدخلوا الى بلاد سروستي وسمته وهتسي(٤٧)، وحطمت الاصنام وهدمت بيوت العبادة الوثنية، وأقيمت بدلاً منها المساجد لترفع كلمة لا اله الا الله عالية مدوية في ربوع تلك البلاد الواسعة وفتح الطريق بذلك الى دلهي التي زحف اليها الغور ودخلوها في عام ٥٨٩هـ(٤٨).

عاد بعدها غياث الدين الى غزنه تاركاً حكم تلك البلاد الى مملوكه قطب ادين أيبك الذي استقر في دلهي بدلاً من لاهور(٤٩)، استغل الامراء الهنود عودة شهاب الدين، وأخذوا يعيدون تنظيم صفوفهم للتخلص من الحكم الاسلامي هناك، وتحالفوا تحت قيادة راجا قنوج الذي تمتد مملكته من وراء حدود دلهي الى بنارس. وعلم شهاب الدين بتحرك هؤلاء فاتجه بقواته صوب دلهي، حيث انضم اليه أميرها قطب الدين ودارت بين الطرفين معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون وقتل أمير قنوج عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م ويقال أن خزائن قنوج حملت على الف واربعمائة جمل(٥٠) وفتح المسلمون بنارس، وهدموا فيها الف كنيسة، وكان في

جيش صاحب بنارس سبعمائة فيل وعسكرة على ما قيل الف الف رجل، الا أنه هزم وقتل صاحب بنارس[٥١] وما أن أهل عام ٥٩٩هـ حتى كانت منطقة شمال الهند قد ضمت الى الدولة الغورية، هذا في الوقت نفسه كانت القوات الغورية الاسلامية قد دخلت الى مملكة بالا ذات العقيدة الوثنية، التي قضى عليها وأقيمت المساجد لرفع كلمة التوحيد في هذه المناطق[٥٢]، ثم اتجهت القوات الاسلامية الى البنغال وتمكنوا من فتحها، وهكذا استقر حكم الغور في منطقة الشمال الهندي لتصبح لهم دولة كبيرة واسعة الارجاء مترامية الاطراف يعلو مآذنها لا اله الا الله محمد رسول الله.

علاقة الغور بالدولة الخوارزمية والخلافة

أدت سياسة حكام الغور التوسعية في منطقة خراسان الى توتر الموقف بينهم وبين الخوارزميين الذين كانوا بدورهم يتطلعون الى التوسع في هذه المنطقة، وقد شجعها على هذا التوسع الضعف الذي كانت تعانيه دولة السلاجقة في ذلك الوقت. بدأ التوتر بين الفريقين على أثر وفاة السلطان الخوارزمي خوارزم شاه إيل ارسلان بن اتسز عام ٥٦٨هـ حيث وقع الخلاف بين أولاده علاء الدين تكش وسلطان شاه محمود، وقد حسم الخلاف لصالح علاء الدين تكش الذي تمكن من طرد أخيه سلطان شاه من خوارزم[٥٣]. عندها أخذ سلطان شاه يجمع الانصار والقوات الموالية له ويبدأ في الاستيلاء على بعض المناطق في خراسان، فاستولى على مرو وسرخس، وبعض القرى والمدن المجاورة، وقد ساعده في ذلك قبائل الخطا. وأخذ سلطان شاه بعدها يتطلع الى أخذ المناطق التي كانت في حوزة الغوريين، وأرسل الى غياث الدين الغوري (٥٥٦ - ٥٩٩هـ / ١١٦١ - ١٢٠٢م) يطلب منه الرحيل عن منطقة خراسان، والا كانت الحرب بينهما.[٥٤]

غضب غياث الدين من تصرف سلطان شاه وطالبه بدوره أن يقيم له الخطبه في بلاده ويتوعده إن لم ينفذ[٥٥] ذلك. وعندما وصلت رسالة غياث الدين الى سلطان شاه قام الأخير بمهاجمة بعض المدن والقرى التابعة لغياث الدين فسلب ونهب وصادر الناس، لكن غياث الدين تمكن من التصدي له ومنعه من مواصلة أعماله.

إذن بدأ التوتر بين الفريقين يتطور ويشتد، بحيث خرجت قوات سلطان شاه من مرو

وهاجمت ممتلكات غياث الدين في خراسان مرة أخرى، لكن الغوريين بدورهم جمعوا قواتهم وتقدموا لمواجهة سلطان شاه، لكن هذا الاخير خاف على نفسه وعاد الى مرو[٥٦]، إلا أن سلطان شاه رغم هذا التقهقر فقد أرسل من جديد الى غياث الدين رسالة يطلب منه التنازل عن الاراضي الخراسانية، وسار بقواته حتى وصل الى مرو الروذ بينما تجمعت القوات الغورية في الطالقان، ويبدو أن غياث الدين وسلطان شاه يرغبان في حل المشكلة سلمياً، فتبادلا الرسائل والوفود وتقرر أخيراً أن يتنازل غياث الدين عن بوشنبج وباذغيس وقلاع بيوار الى سلطان شاه[٥٧]، رغبة من غياث الدين في حقن دماء المسلمين.

إلا أن اعوانه لم يوافقوه على ذلك وخاصة مجد الدين العلوي الهروي، وكانت له دالة على غياث الدين فلا يخالفه، وقد أيده في هذا الموقف شهاب الدين أخ غياث الدين، وكان هؤلاء قد تحدثوا الى غياث الدين قائلين له: «هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريداً وحيداً، لم تترك له ما ملكناه بأسيافنا من الغز والأتراك السجزية ؟ فإذا سمع هذا عنا يجيئ أخوه يطلب منازعته الهند وجميع ما بيدك ....» وأمر هؤلاء بتجهيز قواتهم لحرب سلطان شاه الذي كان قد تقدم بقواته الى مرور الروذ، وجرت بينهما معركة حاسمة هزم فيها سلطان شاه[٥٨].

وعلى أثر هزيمة سلطان شاه تحرك أخوه خوارزم شاه تكش ليضم اليه بقية الممتلكات التابعة لأخيه سلطان شاه وأرسل ثلاثة آلاف جندي لمنع أخيه سلطان من الاتصال بالخطا، وعندما علم سلطان بما يدبره أخوه تكش لم يجد مفراً من الاتصال بعدوه بالأمس القريب السلطان الغوري غياث الدين واعتذر له عن تصرفاته معه وطلب مساعدته واللجوء اليه، فرحب به غياث الدين، وكتب الى عماله في مختلف الولايات باستقبال سلطان شاه وتكريمه حتى يصل الى مقره، حيث استقبله غياث الدين وأكرمه وأنزله معه في داره، وأنزل أصحاب سلطان شاه كل انسان منهم عند من هو في طبقته، فالوزير عند وزيره والعارض عند عارضه[٥٩]... ويبدو أن غياث الدين كان يحاول الاستفادة من النزاع بين أبناء البيت الخوارزمي.

عندما علم خوارزم شاه تكش بالتجاء أخيه الى غياث الدين أرسل لغياث الدين رسالة يحرضه فيها على أخيه سلطان شاه، ويطلب منه أن يسلمه اليه[٦٠]، ثم كتب تكش رسالة تهديد ووعيد الى صاحب هراة، وكان تابعاً للغوريين، إلا أن غياث الدين استاء من تصرفات

تكش وكتب اليه رسالة جاء فيها ..

«أما قولك أن سلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها، فلعمري إنه ملك وابن ملك وله همة عالية وإذا أراد الملك فمثله أراد، وللأمور مدبر يوصلها الى مستحقها وقد التجأ اليَّ، وينبغي أن تتزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه، ومن الأملاك التي خلف والأموال، وأحلف لكما يميناً على المودة والمصافاة وتخطب لي بخوارزم وتزوج أخي شهاب الدين بأختك.»

وقد أثارت هذه الرسالة حفيظة تكش ورد على غياث الدين بلهجة حارة ويهدده بالزحف على بلاده[٦١] فجهز غياث الدين حملة عسكرية بقيادة سلطان شاه حوالي عام ٥٨٨هـ - ١١٩١م توجهت الى خوارزم إلا أن الأهالي وقفوا في وجه سلطان شاه وردوه عن مدينتهم وأرسلوا يستعجلون تكش بالعودة من الري حيث كان يساعد قتلغ ايتانج ضد السلطان طغرل السلجوقي[٦٢]. وصل تكش الى خوارزم وأخذ في الاستعداد لمحاربة أخيه سلطان شاه ومن يقف الى جانبه من الغورية، إلا أن سلطان عاد الى مرو، وسار اليه في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٢م وقبل الالتحام بين الاخوين ترددت الرسل، وفي هذه الفترة تسير الأمور لغير صالح سلطان شاه، حيث يرسل والي مدينة سرخس الى تكش يطلب منه الحضور لتسلم المدينة التي كانت من أملاك سلطان شاه، وأرسل اليها تكش من تسلمها[٦٣]، ويبدو أن هذا الوالي كان يرفض تعاون سلطان شاه مع الغوريين ضد أخيه تكش فلجأ الى الانضمام الى جانب تكش كوسيلة يتخلص بها من التبعية لسلطان شاه.

وعندما علم سلطان بما حدث أسقط في يده وتوفي حزناً في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٢م. وأصبحت الظروف الآن مواتية لتكش بعد وفاة أخيه، فقد تقدم طامعاً في ضم ممتلكات سلطان[٦٤]، لكن الغوريين عارضوا خطة تكش مستغلين فرصة انشغاله ضد السلاجقة في العراق، لكن تكش هدد بالاستعانة بالأتراك والخطا. إذا عارض الغور تطلعات تكش، ولهذا السبب وافق غياث الدين على توقيع صلح مع تكش[٦٥].

لكن فترة السلام بين الطرفين لم تعش طويلاً بسبب تعاظم قوة خوارزم تكش الذي استولى على معظم خراسان والعراق العجمي، وأخذ يتطلع الى ايصال نفوذه المعنوي الى

قلب بغداد عاصمة الخلافة[٦٦]، وعندما شعر الخليفة الناصر بهذا طلب من غياث الدين أن يهاجم تكش ويمنعه من تحقيق رغباته وتطلعاته التي تهدد بغداد[٦٧]، وقد استجاب غياث الدين الى طلب الخليفة وأرسل الي تكش رسالة لوم وتقريع على تطاوله على هيبة الخلافة ويهدده باجتياح أراضيه[٦٨]، وهنا فكر تكش في الاستعانة بالخطا ليحقق هدفين أولهما، المحافظة على أملاكه في خراسان والثاني، استمراره في سياسته التوسعية، وأوعز للخطا بأن غياث الدين سوف يشكل لهم تهديداً مباشراً إذا نجح في هزيمته – أي هزيمة تكش – وقد صادف في هذه الفترة ٥٩٤هـ أن القوات الغورية استولت على مدينة بلخ من صاحبها التركي واسمه أزيه، وكان يحمل الخراج كل سنة الى الخطا، بعدها اقتنع الخطا بما جاء في رسالة تكش اليهم، وأخذوا في تجهيز حملة عسكرية ضد الغوريين وذلك في عام ٥٩٤هـ / ١١٩٧م، وعبرت قوات الخطا نهر جيحون وعاثت فساداً في بلاد الغور، وأرسلوا الى صاحب باميان يطلبون منه تسليم البلاد والرحيل عنها[٦٩]، أو دفع بعض الأموال حتى لا يطردوه من بلاده، إلا أنه رفض تهديدهم.

استاء الامراء المسلمون في المنطقة وهم الامير محمد بن جريك الغوري في الطالقان والحسين بن خرميل في قلعة كرزبان والامير حمروش الغوري استاء هؤلاء من تصرفات الخطا الوثنيين فجمعوا صفوفهم وانضم اليهم بعض المتطوعين رغبة في الجهاد، كما أمدهم غياث الدين بقوات اضافية تمكنت من هزيمة الخطا هزيمة ساحقة[٧٠].

ندم الخطا على تحالفهم مع تكش وأرسلوا اليه يحملونه تبعة ما أصاب جيشهم ويطالبونه بدفع دية قتلاهم ويقال أنهم طلبوا عشرة آلاف دينار عن كل قتيل، وإذا علمنا أن عدد القتلى كان اثني عشر الفاً كان المبلغ المطلوب دفعه هو مائة وعشرون مليون دينار، وهذا مبلغ ضخم يعجز تكش عن توفيره ودفعه، فأخذ يبحث عن مخرج لهذه الأزمة، ولم يكن أمامه الا أحد خيارين، إما أن يدفع المبلغ للخطا الوثنيين، وإما أن يبحث عن حليف قوي يقف الى جانبه اذا فكر الخطا في مهاجمته.

أما الخيار الأول فكان مستحيل التنفيذ لضخامة المبلغ، أما الخيار الثاني فكان الأقرب الى التحقيق، وقد سلكه تكش رغم مرارته، حيث أرسل لغياث الدين عدوه بالأمس يشرح له الموقف الذي وصل اليه مع الخطا، وانه يؤثر المصالحة معه، وقد وافق غياث الدين على المصالحة شريطة أن يكف تكش التطلع الى ممتلكات الخلافة أو مضايقتها وأن يعلن

الولاء والطاعة للخليفة، فوافق تكش على هذه الشروط[٧٢]، وأرسل الى ملك الخطا يعلمه بما حدث بينه وبين الغوريين.

«إن عسكرك إنما قصد انتزاع مدينة بلخ، ولم يأتوا الى نصرتي ولا اجتمعت بهم ... وإن كنت فعلت ذلك فأنا مقيم بالمال المطلوب مني، ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم عليّ بهذا القول وهذا المطلب، وأما أنا فقد أصلحتالغورية ودخلت في طاعتهم ولا طاعة لكم عندي.»[٧٣] لكن الأمور لم تنته بين الخطا والخوارزميين عند هذا الحد، إذ توتر الموقف وتصعد حتى تفجرت بين الطرفين معركة رهيبة انتهت لصالح تكش الذي نجح في ردهم على أعقابهم وطردهم من بخارى وانتزعها منهم، وأحسن الى أهلها وفرق فيهم مالاً كثيراً، وأقام فيهامدة ثم عاد الى خوارزم[٧٤]. توفي تكش، وخلفه خوارزم شاه علاء الدين محمد، وانشغل بتوطيد حكمه في خوارزم خاصة وأنه كان على خلاف مع ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه، وكان هندوخان متخوفاً من عمه لعداوة كانت بينه وبين أبيه، فلما مات جده - أي جد هندوخان - أخذ الكثير من الأموال واتجه بها الى مرو، وحاول الاستيلاء على خراسان، الا أن عمه علاء الدين محمد أرسل جيشاً بقيادة جقر التركي ومنعه من تحقيق أحلامه، فاضطر هندوخان الى اللجوء الى غياث الدين الغوري فأكرم وفادته وأنزله منزلاً طيباً، وأقطعه ووعده النصرة[٧٥]، وكان غياث الدين يرى في لجوء هندوخان له فرصة كي يبرز عدائه لخوارزم شاه محمد ليتمكن من تحقيق أطماعه في خراسان.

تحركت القوات الغورية واستولت على مرو الروذ ثم زحفت في اتجاه مرو، وهناك وجدت مقاومة عنيفة من الأهالي رغم أن واليها هو الذي طلب قدوم الغوريين ليسلمهم المدينة، ورغم المقاومة فقد سقطت المدينة في يد الغور[٧٦] الذين توجهوا بالتالي الى مدينة سرخس ودخلوها صلحاً، وكذلك سقطت مدينة طوس، ولم يبق من أملاك الخوارزمين في خراسان غير نيسابور التي سقطت بدورها[٧٧]. هذا في الوقت الذي كان فيه خوارزم شاه محمد لايزال منشغلاً في توطيد حكمه في البلاد، وبعد أن فرغ من مشاكله شق عليه أن يرى ممتلكاته في خراسان وقد سقطت في يد الغوريين، وأرسل الى غياث الدين رسالة عتاب يتخللها تهديد ووعيد.

«كنت أعتقد أن تخلف على بعد أبي وأن تنصرني على الخطا، وتردهم عن بلادي،

فحيث لم تفعل، فلا أقل من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي، والذي أريده منك أن تعيد ما أخذته مني اليّ، وإلا استنصرت عليك بالخطا وغيرهم من الاتراك إن عجزت عن أخذ بلادي، فإنني انما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي، وإلا فما أنا عاجز عنكم وعن أخذ بلادكم بخراسان وغيرها.»[٧٨]

وعندما أبلغ غياث الدين بهذه الرسالة أخذ يماطل في الرد بسبب مرضه من ناحية وبسبب انشغال قواته مع أخيه شهاب الدين في بلاد الهند، لكن خوارزم شاه محمد لم يمهله كثيراً ووجه قواته الى نيسابور وخراسان في عام ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م، واستولى عليها ثم دخل مرو[٧٩]، وهكذا الى أن تمكن من استرداد معظم أملاكه في خراسان، وهنا أبدى خوارزم شاه محمد رغبة في مصالحة غياث الدين، وكذلك أظهر غياث الدين نفس الشعور، وأرسل الى خوارزم شاه أحد رجاله للمفاوضة والصلح واسمه الحسين الميرغني، إلا أن خوارزم لم يكن جاداً في أمر الصلح، بدليل أنه قبض على رسل غياث الدين[٨٠]، وظل يتحرش بالغوريين، وفي عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م سارت القوات الخوارزمية الى هراة، وعندما علم الغوريون بتقدم القوات الخوارزمية استجمعوا قواتهم، وأوقعوا بالخوارزميين هزيمة ساحقة عند الطالقان[٨١] بعد هذه المعركة توفي غياث الدين ابو الفتح محمد الغوري وكان شافعي المذهب.

وقد وقع خلاف بين أخيه شهاب الدين وابن اخيه، وقام شهاب الدين بالقبض على زوجة أخيه ونكل بها وأخذ جميع أموالها وأملاكها، وطردها الى الهند شر طردة.[٨٢]

وقد استغل خوارزم شاه محمد فرصة الانقسامات داخل الاسرة الغورية ليعيد سيطرته ونفوذه على الاملاك التي أخذها الغوريون، وتقدمت قواته الى مرو واستولت عليها[٨٣]، وبعد أن استقرت الامور للسلطان شهاب الدين الغوري وأراد أن يعيد الاراضي التي استولت عليها القوات الخوارزمية فتقدم نحو خوارزم مباشرة عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م حيث كان شاه محمد في خراسان، إلا أنه عاد ودخلها قبل أن يصل اليها شهاب الدين، ودارت بين الطرفين معارك حاسمة كاد النصر فيها يحسم لصالح الغوريين، لكن النجدة التي وصلت للخوارزميين من قبائل الخطا المقيمة في بلاد ماوراء النهر فقلبت الموازين وحسم الصراع لصالح الخوارزميين، وهزم الغور هزيمة مروعة في عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م، وانتشرت

بعدها الشائعات وكثرت الاراجيف بمقتل شهاب الدين الأمر الذي سبب الفوضى وانتشار الفتن في ربوع البلاد، وارتدت بعض المناطق عن الاسلام، وطمع حكام الاقاليم، وكان منهم مملوكه ايبك بال نز الذي تمرد في الملتان وقتل نائب السلطان بها وأخذ الاموال السلطانية، وأساء السيرة في الرعية وأخذ اموالهم(٨٤). وكان على شهاب الدين أن يواجه هذا الواقع المرير الذي خلفته هزيمته أمام الخطا ونجح فعلاً في التخلص من مشاكله الداخلية، وقضى على الفتن وحركات التمرد، وبدأ يستعد لمهاجمة الخطا، إلا أنه قتل في عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م على يد بعض الهنود انتقاماً لأنفسهم مما حل بهم على يديه، وهناك من يرى أن مقتله كان على يد الاسماعيلية(٨٥). وبمقتله عادت الفتنة الى ربوع البلاد الأمر الذي سيشجع خوارزم شاه محمد على توسيع ممتلكاته في خراسان من جديد.

سقوط الدولة الغورية

بعد مقتل السلطان شهاب الدين وقع خلاف بين الامراء على من يتولى الأمر بعده، فاستغل أحد مماليك السلطان الفوضى القائمة وادعى بأنه نائب السلطنة لغياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وكان هذا المملوك هو تاج الدين الدز، فاستولى على الاموال والخزائن، وكاتب بهاء الدين سام صاحب باميان يستدعيه الى غزنه، فسار بهاء الدين صاحب باميان ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين علي، وفي الطريق توفي بهاء الدين، ووصل اولاده الى غزنه وتزلوافي دار السلطنة في رمضان ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، وكان بهاء الدين قد عهد الى ابنه علاء الدين وأمر أولاده أن يصالحا غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور وتكون لهما غزنه وبلاد الهند(٨٦).

وعندما انتشر نبأ وفاة بهاء الدين بايع الامراء غياث الدين محمود بن السلطان غياث الدين الغوري، واقيمت له الخطبه وأمر غياث الدين باخراج ابناء بهاء الدين من غزنه، فنفذ تاج الدين الدز الأمر وأخرج ابناء بهاء الدين من غزنه.

وفي ظل هذه الأحداث استغل تاج الدين الفرصه واستولى على الحكم، وفي نفس الفترة طمع بعض الامراء في الاستقلال بولاياتهم، مثل أمير هراة الذي استعان بالخوارزميين(٨٧) الذين طمعوا بدورهم وتقدموا بقواتهم فدخلوا الى بلخ عام ٦٠٣هـ /

١٢٠٦م ثم سقطت في يدهم مدينة كرزبان وترمذ والطالقان. وهكذا أخذت المدن والقرى الغورية تتساقط الواحدة تلو الأخرى في يد الخوارزميين[٨٨].

وفي هذه المرحلة أبدى خوارزم شاه رغبته في مصالحة غياث الدين محمود، وأرسل اليه الأموال والأسلحة التي استولى عليها من الطالقان، ووافق غياث الدين على خطوة خوارزم شاه وعقد معه الصلح[٨٩]، إلا أن خوارزم شاه لايزال رغم الصلح يتطلع الى بقية الأملاك الغورية، فاستولى على البعض منها، الأمر الذي أضعف غياث الدين ضعفاً شديداً واضطربت أمور دولته ولم يعد قادراً على السيطرة على غزنه لدرجة أن أحد مماليكه وهو تاج الدين الدز استولى على غزنه وخطب لنفسه، فتغيرت لذلك نيات كثير من الأتراك، لأنهم كانوا يطيعونه ظناً منهم أنه كان يريد الملك لغياث الدين، فحيث رأوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته، حتى أن بعضهم بكى غيظاً من فعله[٩٠].

وعندما طلب منه غياث أن يعيد له الخطبة شرط عليه أن يعتقه، فأعتقه غياث الدين[٩١]، لكن خطر الدز لم ينته عند هذا الحد، الأمر الذي اضطر غياث الدين الى طلب المساعدة من خوارزم شاه ليسير معه الى غزنه، شريطة اقتسامها معه، فوافق خوارزم شاه، وعندما علم الدز بهذا التحالف ترك غزنه وتوجه الي يكياباذ وبست وملكها وقطع خطبة غياث الدين فيهما، وهنا يتقدم أحد أعوان غياث الدين الى غزنه ويدخلها ويعيد الخطبة لغياث الدين، ومعنى ذلك أن الحلف مع الخوارزميين لم يؤد إلا لتحسين العلاقات بين الطرفين، لأن غزنه أعيدت فيها الخطبة على يد أنصار غياث الدين[٩٢].

انصرف خوارزم شاه الى تدبير أمور مملكته، وأرسل جيشاً لمساعدة أمير سمرقند المسلم ليساعده في حربه ضد الخطا، لكن هذا الجيش لم يوفق وسار خوارزم على رأس قوات جديدة، لكن هذا الجيش هزم ايضاً ووقع خوارزم في الأسر، وبعد فترة تمكن خوارزم من الهرب من سجنه[٩٣]، وكانت أمور البلاد قد اضطربت اثناء فترة وقوعه في الأسر فطمع ابن خرميل في مدينة هراة، إلا أن خوارزم شاه تمكن من القبض عليه وسجنه ودخل الى هراة بعد معركة عنيفة في عام ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م[٩٤].

هذا بالاضافة الى أن علي شاه أحد إخوة خوارزم شاه كان قد طمع في بعض

أملاك أخيه، وعندما هرب خوارزم شاه من سجنه توجه لقتال أخيه. إلا أن أخاه علي لجأ الى غياث الدين الغوري الذي أكرمه ووعده بمساعدة فعلية، وقد استاء خوارزم شاه من تصرفات غياث الدين، فأمر قواته بالتوجه الى فيروزكوه عاصمة غياث الدين وتمكن من دخولها والقى القبض على أخيه وعلى غياث الدين وأمر بقتلهم عام ٦٠٥هـ[٩٥] / ١٢٠٨م، واصل الجيش الخوارزمي بعدها انتصاراته، وضم اليه البقية الباقية من أراضي خراسان وباميان، وأخذ يفكر في التوجه نحو غزنه حيث كان يحكمها تاج الدين الدز أحد المتمردين على السلطات الغورية ونجحت القوات الخوارزمية في اقتحام غزنه ومطاردة تاج الدين الدز حتى قتل على يد والي دهله في بلاد الهند[٩٦] وكان الدز يحاول اقتحامها ليتخذ منها مقراً جديداً، وبدخول الخوارزميين الى غزنه يسدل الستار على دولة الغوريين[٩٧].

الحواشي

١- L. Pool . Medieval India p 46
Inamul Ho Qup p 26
٢- البيهقي: مصدر سابق ص ١١٨ ومابعدها
ابن الاثير: مصدر سابق ٩/٢٢١-٢٢٢
L. poole . The Mohammadan Dynasties p 29
Henry Beveridg. I. p 57
٣- البيهقي : المصدر السابق والصفحة
٤- نفس المصدر ص ١٢٣-١٢٤
٥- عصام عبدالرؤوف : بلاد الهند في العصر الاسلامي ص ٣٢
٦- البيهقي : نفس المصدر ١١٨
٧- احمد كمال الدين حلمي : نفس المصدر ٩٩-١٠٤
٨- ابن الاثير : نفس المصدر ١١/١٣٥
L. pool Medieval India p 46-47
٩- ابن الاثير: المصدر والصفحة.
L. poole . The Mohammadan Dynasties p 291-292
١٠-ابن الاثير: حوادث ٥٤٣
١١- ابن خلدون: العبر ٤/٢٨٨-٢٨٩
١٢- ابن الاثير: ١١/١٣٥
Lane poole Medieval India p 46-47
١٣- عبدالمنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند ص ١٣٣
١٤- L. poole . Medieval India p 46
L. poole mohmad an Dynasties p 291-292
١٥- ابن الاثير: ١١/١٦٤-١٦٥
١٦- براون: تاريخ الادب الفارسي ٢/٣٨٢-٣٨٣
عصام عبدالرؤوف : مصدر سابق ص ٣٥
١٧- عبدالمنعم النمر : نفس المصدر ١٣٣
١٨- الراوندي : راحة الصدور ٢٦٦
ابن الاثير: ١١/١٦٥
١٩- Sykes I. p 209
٢٠- عصام عبدالرؤوف : مصدر سابق ص ٣٥
٢١- وكان علاء الدين عندما علم بما فعله أهل غزنه قال : «إن لم أقلع غزنه مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين».
ابن الاثير : ١١/١٦٥
٢٢- L. pool. Mohmad an Dynasties p 292

٢٣- الراوندي راحة الصدور ص ١٦٦
ابن الاثير ١١/١٦٥-١٦٦ - Sykes I. p 209
L. poole Medieval India p 47
Henry Beueridge I. p 68
Inamul Ho Qup p 26
٢٤- ابن الاثير : ١١/١٦٦
٢٥- المصدر السابق : ١١/١٦٦-١٦٧-١٧١
٢٦- ويرى Inamul Ho Qup p. 26
أن احتلال الغز لمدينة غزنه استمر عشر سنوات. ويرى الساداتي أن حكم الغوريين للهند هو البداية الحقيقية للحكم الاسلامي هناك - تاريخ الدولة الاسلامية(٢٤).
٢٧- ابن الاثير : ١١/١٦٧-١٦٨
٢٨- عبدالحي الحسن : الهند في العهد الاسلامي ص ١٦٨
٢٩- ابن الاثير : ١١/١٦٩
٣٠- نفس المصدر ١١/١٧٠
٣١- Inamul Ho Qup p 27-28
٣٢- عصام عبدالرؤوف : مصدر سابق ٣٩
٣٣- احمد الساداتي : مصدر سابق ص ١١٤
٣٤- Sykes I. p 211
٣٥- عصام عبدالرؤوف : المصدر والصفحة.
٣٦- Inamul Ho Qup p 22 - Sykes I. p 21
٣٧- Inamul Ho Qup p 28
٣٨- Sykes I. p 211
٣٩- احسان حقي : باكستان ماضيها وحاضرها ص ٥٢
٤٠- ابن الاثير : مصدر سابق ١١/١٧٢
٤١- ابن الاثير : ١١/١٧٢-١٧٣
٤٢- The Comb Hist. of India Vol. 3 p 40
٤٣- ابن الاثير: ١٢/٩١-٩٢
٤٤- المصدر السابق ١٢/٩١-٩٣
٤٥- ابن الاثير: ١٢/٩٣ Inamul Ho Qup p. 29
٤٦- L. poole Medieval India p 53
٤٧- Comb. Hist. of India Vol. p 40-41
ويقر هنا أن هذه المعركة امنت له السطرة على شمال الهند.
٤٨- ابن الاثير: ١١/١٧٤ Ibid. 40-41
٤٩- †Inamul HoQup p 24
عبد المنعم : نفس المرجع ص ١٣٦
٥٠- ابن الاثير: ١٢/١٠٥ - ١٠٦

٥١- المصدر السابق ١٠٥/١٢

٥٢- L. poole Medieual India p 54

٥٣- ابن الاثير: ٣٧٨/١١

٥٤- ابن خلدون : ١٩٧/٥

٥٥- ابن الاثير: ٣٨٠/١١

٥٦- المصدر السابق والصفحة - ابن خلدون : ١٩٧/٥

٥٧- المصادر السابقة

٥٨- ابن الاثير ٣٨١/١١ - ابن خلدون ١٩٨/٥

٥٩- المصادر السابقة

٦٠- ابن الاثير: ٣٨٢/١١

٦١- ابن الاثير: ٣٨٣/١١

٦٢- ابن الاثير١٢/١٠٦-١٠٧

٦٣- المصدر والصفحة

٦٤- المصدر والصفحة

٦٥- نفس المصدر ٣٨٤/١١

٦٦- نفس المصدر ١٣٥/١٢ - ابن خلدون العبر ٢٠٤/٥

٦٧- ابن الاثير: ١٣٧/١٢

٦٨- ابن الاثير: ١٣٥/١٢

٦٩- نفس المصدر ١٣٦

٧٠- نفس المصدر ١٣٦ ، ابن خلدون ٢٠٤/٥

٧١- ابن الاثير: ١٣٧/١٢

٧٢- المصدر والصفحة

٧٣- المصدر والصفحة - ابن خلدون ٢٠٥/٥

٧٤- المصادر السابقة

٧٥- ابن الاثير: ١٥٧/١٢

٧٦- ابن خلدون: ٢٠٨/٥

٧٧- ابن الاثير: ١٦٦/١٢

٧٨- المصدر السابق ١٧٣/١٢

٧٩- ابن الاثير: ١٥٢/١٢ - ابن خلدون ٢١٠/٥

٨٠- ابن الاثير ١٧٥/١٢

٨١- المصدر السابق والصفحة

٨٢- ابن الاثير: ١٨١/١٢

٨٣- ابن الاثير: ٢/١٢/١٨١ - ابن خلدون ٢١٣/٥

٨٤- نفس المصدر ١٨٧/١٢-١٨٨

٨٥- نفس المصدر ٢١٣/١٢

٨٦- نفس المصدر ١٢/٢١٨

٨٧- Comb. Hist. of India Vol. 3 p 48

٨٨- ابن الاثير: ١٢/٢٢٧-٢٢٨ - ٢٣٠ - ٢٣١

٨٩- ابن الاثير: ١٢/٢٤٦

٩٠- نفس المصدر ١٢/٢٢١

٩١- نفس المصدر ١٢/٢٤٨

٩٢- نفس المصدر ١٢/٢٥٠

٩٣- نفس المصدر ١٢/٢٦٣-٢٦٤

٩٤- نفس المصدر ١٢/٢٦٥ - ابن خلدون ٥/٢٢٤

٩٥- نفس المصدر ١٢/٢٦٦-٢٦٧

٩٦- نفس المصدر ١٢/٣١٢

٩٧- عن نسب الغوريين بالتفصيل انظر
خليل الله خليلي : هرات : تاريخها، آثارها ، رجالها ص ٢٩-٣١
ط ١٣٩٤ - ١٩٧٤.

الدولة السلجوقية

ينتسب السلاجقة الى قبيلة قنق، وهي احدى قبائل الاتراك الغز[١]، نزحت مع غيرها من القبائل من موطنها الاصلي في تركستان وسكنت قريباً من نهر سيحون، واتخذت مدينة جند قاعدة لها، ويبدو أن ظروفاً قاهرة هي التي دفعت هذه القبائل للهجرة من موطنها، وتتلخص هذه الظروف في سوء الحالة الاقتصادية في مناطقهم، وحدوث قحط أثر على استمرار الحياة هناك، هذا بالاضافة الى عامل ثالث ربما نتج عن ظهور قبائل قوية غلبتها وأجبرتها على ترك مواطنها[٢].

وعلى العموم فقد كانت هذه القبائل تتحرك تحت زعامة الامير سلجوق بن دقاق[٣] الذي جمع شملها ونظم صفوفها ووحدها تحت زعامته، ثم قادها الى تلك المواضع الجديدة التي حطت فيها الرحال عام[٤] ٣٧٥هـ / ٩٨٥م ونسبت اليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده. وفي مناطقهم الجديدة عاشوا عيشة مريحة تتسم بشيء من الاستقرار تتخلله رحلة الشتاء والصيف، وخلال فترة تمكنوا من تجهيز أنفسهم بالمال والعتاد، وإعداد جيش وفير العدد كثير العدد قوي البأس، وأصبحوا قوة يخشى بأسها[٥].

اعتنق السلاجقة الاسلام على المذهب السني، وارتبطوا بعلاقات ود وتعاون مع الدولة السامانية التي سمحت لهم بالاستقرار في تلك المناطق، ومن هنا كانت نقطة انطلاقتهم، حيث تمكنوا من اعداد قواتهم التي استطاعوا بها أن يهزموا بعض القبائل التركية التي لازالت على وثنيتها.

توفي سلجوق فتولى الزعامة بعده ابنه اسرائيل الذي سار على نفس خطى والده في بناء الدولة وتقويتها، وقد أخافت هذه السياسة حفيظة الخانيين لأنهم يرون الى جانبهم قوة متنامية ليس هذا فقط ولكن أصبحت تزاحمهم في بلاد ماوراء النهر، وبدأ الخانيون يفكرون في التخلص من هؤلاء بشكل جدي. ورأوا أن تنفيذ هذه السياسة يتطلب الاستعانة بالسلطان محمود الغزنوي، وأخذوا يحرضونه ونبهوه الى قوتهم وبأسهم، وجاء على لسان ايلك خان محرضاً السلطان محمود «... وإني أرى أنه لا يمكنك أن تأمن جانبهم اذا

نهضت في وقت من الأوقات وقصدت بلاد الهند، وأخشى أن يحدثوا فساداً طلباً لولاية أو رغبة في الاستيلاء على إحدى النواحي، أو طمعاً في الملك، فمن الواجب عليك أن تستظهر بهم، وأن تطلب المعونة منهم.»(٦)

ويبدو أن السلطان محمود قد وقف بنفسه على قوتهم وشده بأسهم فخافهم على نفسه ودولته، خاصة وأنه كان منشغلاً كما سبق وأن بينا في فتوحات بلاد الهند، فقرر السلطان ألا يترك فرصة لهذه القوة الجديدة أن تتنامى وتستقر، وأضمر توجيه ضربة لهم، فاظهر صداقته اتجاههم، وطلب منهم ارسال وفد للاجتماع به(٧) فوصل الوفد برئاسة اسرائيل بن سلجوق، وهنا ألقى السلطان محمود القبض عليه وأودعه السجن حتى مات في سجنه.(٨)

أثار هذا التصرف حفيظة السلاجقة، لكنهم لم يظهروا ذلك بشكل فوري أو مباشر، وإنما أخذوا يعدون أنفسهم للانتقام ولو طال الأمد، وقد نجح زعيمهم ميكائيل بن سلجوق في استدرار عطف السلطان محمود حتى سمح لهم بالاستقرار في أراضيه بين نسا وباورد، إعتقاداً منه بأنهم لن يشكلوا خطراً يهدده بعد قضاءه على زعيمهم اسرائيل(٩). وقد جاء في رسالتهم الى السلطان محمود «.... إن مراعينا أصبحت لا تفي بحاجة مواشينا، فأذن لنا أن نعبر النهر، وأن نجعل مقامنا بين نسا وباورد.»(١٠) ويبدو أن السلطان محمود قد سمح لهم بالاقامة في ذلك المكان. وفي تصوري أن أمراً كهذا لا يحدث بهذه البساطة، فالسطان محمود يعرف مدى ما يتمتع به هؤلاء من قوة، كما يعرف ويدرك أنا أساء التصرف معهم عندما اعتقل زعيمهم أفيعقل بعد هذا الا يتوقع منهم شراً ؟ هذه ناحية، وناحية أخرى هل يعتقد السلطان أن السلاجقة قد تناسوا ثأرهم بهذه البساطة(١١)!!

إن الدراسات التي وضعت حول شخصية السلطان محمود لا تؤيد أنه كان ساذجاً الى هذا الحد، أو أنه لايحسب تصرفاته وفق حسابات دقيقة مدروسة، لكن السؤال المطروح هنا هو لماذا سمح لهم السلطان بدخول بلاده مادام يعرف قوتهم ؟؟

في اعتقادي أن الامر لا يخرج عن أن السلطان محمود اعتقد بأن القوة التي

لديهم لا تستطيع أن تخلق له مشاكل خطيرة لأن قواته تفوقهم عدداً وعدة، وربما أن السلطان محمود فكر في الاستفادة منهم في حروبه في بلاد الهند الوثنية، ثم إنني استبعد أن يكون دخولهم الى بلاده رغماً عنه، وعلى العموم دخل السلاجقة الى خراسان عام ٤١٦هـ / ١٠٢٥م واستقراوا بها رغم معارضة بعض رجالات السلطان محمود[١٢]، وكان على رأس المعارضة حاكم مدينة طوس، ولم يبد من هؤلاء ما يعكر صفو الأمن طوال الايام الباقية من حياة السلطان محمود، كيف لا وهم يخططون لهذا الأمر ويشددون على رجالاتهم بضرورة التزام السكينة والهدوء حتى وصول الفرصة المناسبة. وفي عام ٤٢١هـ / ١٠٢٩م توفي السلطان محمود، ووقع خلاف بين اولاده على من يتولى السلطة، ورغم أن الأمور قد حسمت لصالح ابنه مسعود فإن السلاجقة استغلوا فرصة تفجر الاحداث وطلبوا أن يسمح لهم بالاستقرار في نيسابور مقابل التعاون مع الدولة الغزنوية ضد اعدائها[١٣]، لكن السلطان مسعود رفض التعاون معهم كما رفض طلبهم وقرر طردهم من خراسان[١٤]، فأرسل حملة عسكرية اصطدمت مع السلاجقة قرب نسا ودارت الدائرة على القوات الغزنوية التي أخذت تتقهقر أمام السلاجقة الذين أخذوا يوسعون من رقعة أراضيهم في خراسان، وهنا اضطر السلطان مسعود أن يترك ميدان الهند ليتفرغ لقتال السلاجقة في خراسان. وجرت بين الطرفين معارك عديدة وحسمت لصالح السلاجقة الذين تمكنوا من اغتصاب خراسان بعد هزيمة الغزنويين هزيمة ساحقة في عام ٤٢٩هـ[١٥] قرب سرخس، وبعد هذه المعركة لم يجرؤ أحد على الوقوف في وجههم في منطقة خراسان وربوع إيران، وأصبح الوقت مناسباً لاعلان دولة فتية جديدة بزعامة طغرل[١٦] الذي سار الى نيسابور ودخلها وجلس على عرش السلطان مسعود في ذي القعدة عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م وأعلن قيام دولة السلاجقة وقرأت الخطبة باسمه ليصبح أول سلطان سلجوقي[١٧]، وكتب الى خليفة بغداد القائم بأمر الله وأظهر له الطاعة والولاء وأبدى له رغبة في نيل رضا الخلافة وتأييدها فأرسل اليه الخليفة تقليداً بشرعية دولته في عام ٤٣٢هـ[١٨].

شعر السلطان مسعود بالأسى والحزن لكل ما حدث فجرد حملة عسكرية ليثأر لهيبة دولته إلا أنه هزم أمام طغرل وكانت هذه المعركة قد كفت يد السلطان مسعود عن بلاد ما وراء النهر[١٩]، وواصلت القوات السلجوقية تقدمها غرباً فاستولت على الري عام ٤٣٢هـ كذلك دخلوا الى جرجان وطبرستان صلحاً وكان يحكمها انوشروان الزياري، وفي عام ٤٣٤هـ / ١٠٤٢م ضم طغرل خوارزم وما حولها ومن ثم أبهر وقزوين وزنجان، وهكذا بدأ

طغرل يفرض سيطرته ونفوذه في مناطق شاسعة دون أن تتمكن القوات الغزنوية من منعه، وفي عام ٤٤٣هـ دخلت القوات السلجوقية الى اصفهان عاصمة الديالمة وأخذتها من آل كاكويه لتصبح فيما بعد عاصمة للسلاجقة، وما أن أهل عام ٤٤٧هـ حتى كان نفوذهم على بلاد ايران أمراً واقعاً[٢٠].

السلاجقة والخلافة العباسية :

لا أريد أن اكرر الوضع الذي كانت عليه الخلافة من ضعف حيث كان البويهيون في هذه الفترة هم أهل الحل والعقد ، ولكن الضعف ايضاً أخذ يتسرب الى هذه الاسرة ، فقد سادت الفتن والاضطرابات والانقسامات بين ابنائها حتى أنهم - أو البعض منهم - تعاون مع الاعداء، فهاهو الملك الرحيم زعيم البيت البويهي يمهد الطريق أمام السلاجقة ليدخلوا الى بغداد عام ٤٤٧هـ[٢١] / ١٠٥٥م بدل أن يتصدى لهم متعاوناً مع اخوته وأقاربه[٢٢]، وبعد دخول طغرل الى بغداد استقبل بحفاوة من قبل الخليفة الذي اعترف به سلطاناً على كل ما تحت يده من ممتلكات، وتم القبض على الملك الرحيم أبي نصر وحمل الى الري[٢٣]، والغريب في الأمر أن الذي كان يسيطر على الأمور في بغداد عشية دخول طغرل رجل يقال له البساسيري وكان قد تمرد على الخلافة العباسية واتصل بالخلافة الفاطمية العدو التقليدي للخلافة العباسية رغم ضعف الفاطميين. لكن البساسيري هذا لم يقف في وجه طغرل وإنما هرب من بغداد الى الموصل ومنها الى بلاد الشام[٢٤]، وظل طغرل في بغداد فترة زمنية حاول فيها اقرار الامور لصالحه ولصالح اسرته. وبعد أن اطمأن الى هدوء الوضع في بغداد قرر العودة الى الري، وهنا استغل البساسيري رحيل طغرل وانشغاله بفتنة أخيه ابراهيم الذي تمرد عليه في الموصل، ودخل الى بغداد بعد أن فرّ منها الخليفة العباسي، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في عام ٤٥٠هـ[٢٥] وأخذ البساسيري يستولي على بعض المناطق المجاورة فاستولى على واسط والبصرة.

أحس طغرل بخطورة ما يحدث في بغداد وما حولها على يد انصار الفاطميين، وفي نفس الوقت وصلته رسالة الخليفة العباسي يقول له : «بحق الله أدرك الاسلام فقد ساد العدو اللعين وأخذ ينشر مذهب القرامطة.»[٢٦] وعندما تسلم طغرل رسالة الخليفة قرر العودة الى بغداد ودخل في معركة عسكرية ضارية ضد البساسيري الذي قتل[٢٧] وهزمت قواته،

وتمكن طغرل من دخول بغداد في عام ٤٥١هـ[٢٨] وسيطر على كل شيء وأصبح في يده أمر الحل والعقد حتى تطلع الى مصاهرة الخليفة فتزوج من ابنته[٢٩] الا أنه توفي بعد عام من زواجه في عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م دون أن يترك ولداً يرث عرشه في ايران والعراق[٣٠]، فانتقل الحكم الى ابنة أخيه الب ارسلان[٣١] وقد تمكن الب ارسلان من السيطرة على مجريات الأحداث وساعده في ذلك وزيره الفذ نظام الملك، وكان ارسلان هذا قد وضع نصب عينيه أهداف تطلع الى تحقيقها منها، تدعيم نفوذ دولته في ايران والعراق[٣٢] وفتح البلاد المسيحية المجاورة له. وأسقاط الخلافة الفاطمية في مصر وتوحيد العالم الاسلامي تحت راية الخلافة العباسية ودولة السلاجقة. وبدأ بتأكيد سيطرته على بلاد ماوراء النهر وخراسان وأخذ يتطلع لتوسيع ممتلكاته وخاصة على حساب الدولة البيزنطية المجاورة، وقد شجعه على هذا التطلع، تحسن علاقاته مع جيرانه الخانيين والغزنويين الذين ارتبط معهم السلاجقة بعلاقة مصاهرة فاطمأنوا لهم وأمنوا منافستهم[٣٣]، كما أنه أراد أن يكسب حروبه مع بيزنطة صفة دينية.

أخذت بيزنطة تشعر بالقلق من تنامي القوة السلجوقية على حدودها، فبادرت بمهاجمتها[٣٤] انطلاقاً من مبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع، وقد حقق البيزنطيون بعض الانتصارات، خاف على أثرها والي حلب فأعلن انفصاله عن الدولة الفاطمية الضعيفة والانضمام الى السلاجقة متطلعاً الى حمايتهم من خطر بيزنطه وكان ذلك في عام ٤٦٣ه[٣٥]، لم يكتف رومانوس الامبراطور البيزنطي بما حققه، وإنما أراد أن يوسع دائرة الاحتكاك مع السلاجقة مؤملاً من وراء ذلك توجيه ضربة إجهاض لقوة السلاجقة بصفة خاصة وللمسلمين بصفة عامة.

حشد رومانوس قواته قرب ملاذكرد واشتبك الطرفان في معركة شرسة وضارية، فأنزل الله سبحانه وتعالى نصره على عباده المؤمنين، وأسر الامبراطور وزج به في السجن[٣٦]، ويذكر أن السلطان الب ارسلان سأل الامبراطور قائلاً : «أخبرني بصدقك في قصدك وما الذي قدّرت لو قدرت» قال رومانوس : «كنت أحسب أني أحبس من أسرت منكم مع الكلاب وأجعله في السبايا والأسلاب.» فقال السلطان : «قد عثرت على سرّ شرك، فماذا بك الآن تصنع ونحن منك بما نويته فينا لا نقنع.»[٣٧]

وقيل أن السلطان أطلق سراحه فيما بعد بعد اتفاق وقع بينهما مدته خمسون عاماً، تعهد الامبراطور أن يدفع الجزية ويذكر ابن الاثير أن الامبراطور فدى نفسه بألف ألف وخمسمائة الف دينار وأن يرسل اليه عساكر الروم في أي وقت طلبها، وتعهد أن يطلق كل أسير في بلاد الروم(٣٨).

وقد تركت هذه الانتصارات آثاراً طيبة في الجانب الاسلامي الذي بدأ يضم منطقة آسيا الصغرى الجزء تلو الآخر، أما على الجانب المسيحي فقد تركت هذه المعركة آثاراً بالغة السوء، إذ أدرك هؤلاء أن مصير دولتهم أصبح مهدداً من قبل المسلمين، وترتب عليها ايضاً انكماش النفوذ السياسي للبيزنطيين، وأهم من كل ذلك التحول الهائل في المسار الحضاري لتلك المنطقة التي أخذت تصطبغ بالصبغة الحضارية الاسلامية التي أخذت تحل محل الحضارة المسيحية ذات الطابع الاوربي.

وفي غمرة هذه الأحداث قتل السلطان الب ارسلان على يد أحد قادة القلاع الخانية(٣٩) وهو يوسف البرزمي أو الخوارزمي، وذلك عندما أراد السلطان قتله بسهم إلا أن السهم أخطأ يوسف الذي إنقض على السلطان وقتله بسكين كان يخفيه في حذائه.

دفن السلطان في مرو في ربيع أول عام ٤٦٥هـ(٤٠) تولى الحكم بعده ابنه ملكشاه الذي كان عليه أن يتحمل مسؤولية ادارة الدولة والتصدي لاعدائها سواء في الداخل أو في الخارج، وكان يساعد ملكشاه على تحمل هذه المسئولية وزيره نظام الكل الذي قال فيه الاصفهاني «وفي عصره نشأت طبقات الكتاب الجياد وفرّعوا المناصب وولوا المراتب .. ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء .. ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه .. ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه»(٤٢) وظل نظام الملك في صدر الوزارة ثلاثين سنة، ويذكر أن ملكشاه خاطبه قائلاً : «فرددت اليك الامور كلها صغيرها وكبيرها، فأنت الوالد، وحلف له وأقطعه إقطاعاً زائداً ... ولقبه القاباً من جملتها أتابك ..»(٤٣)

وبمساعدته نجح السلطان ملكشاه في التخلص من عمه قاورد الذين أعلن عصيانه في مناطق كرمان وفارس،(٤٤) كما انه عمل على كسب ثقة أهله وأقاربه، وأسند

اليهم الولايات[٤٥] فأعطى حلب لآقسنقر، والرها لعماد الدولة بوران والموصل لجبكومش والشام الى تتش[٤٦]. وخلع عليهم وقدم اليهم الهدايا والاموال ووزع عليهم الاقطاعات وبهذا ينجح ملكشاه في خلق جو من الألفة والمحبة والتعاون بين أفراد الاسرة السلجوقية، وبدت دولته قوية متماسكة، وشرعت في توسيع ممتلكاتها في مناطق عديدة لكنهم عجزوا عن فتح مصر لشدة مقاومة الفاطميين لهم، ومن ضمن المناطق التي فتحوها ولاية قونية وانطاكية وكانت هذه وتلك تابعة للبيزنطيين(٤٦)، وكان الذي فتح مناطق آسيا الصغرى هو سليمان بن قتلمش بن اسرئيل[٤٧] وهو الذي أسس دولة سلاجقة الروم التي ظلت تحكم هذه البلاد حتى عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م.

ومن الأمور المؤسفة ان يظهر تنافس بين سليمان بن قتلمش وبين الامير تتش والي بلاد الشام، لأن كل منهما أراد أن يوسع ممتلكاته الأمر الذي أدى الى التصادم العسكري بينهما انتهى بانتصار تتش ومقتل سليمان، إلا أن ملكشاه أصلح الأمر فأقر حكم تتش لبلاد الشام وأقر ابناء سليمان على بلاد الروم[٤٨].

وفي هذه الأثناء توجه ملكشاه الى بلاد ماوراء النهر وتمكن من دخولها بمعاونة الأهالي الذين استعانوا به ضد حاكمهم احمد خان الذي وقع في أسر ملكشاه الذي اتخذ من اصفهان مقراً جديداً له واشتبك ملكشاه مع جيرانه من الشرق وهم الخانية وهزمهم حتى وصلت حدوده الى بلاد الصين، واقتطع من هذه الديار العادات المبتدعة والرسوم المستحدثة والقوانين الجائرة[٤٩]، وفي أواخر ايام ملكشاه شهدت الدولة السلجوقية احداثاً خطيرة كان لها أثر سلبي في قوة الدولة وتماسكها، وأهم هذه الاحداث زيادة خطورة الحركة الاسماعيلية على يد الحسن الصباح[٥٠] وهؤلاء ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق.

انتشرت دعوتهم في اجراء من بلاد الشام والعراق وكذلك في ايران في عهد نصر بن احمد الساماني، إلا أن نفوذهم هنا ضعف بعد غلبة الغزنويين وكاد أن يتلاشى في أول عهد السلاجقة الذين أخذوا يطاردونهم.

إلا أن نفوذهم عاد الى الظهور من جديد قوياً في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي على يد حسن الصباح الذي كان من أنصار المذهب النزاري، أحد أفرع المذهب

الاسماعيلي، والنزاري نسبه الى نزاز بن المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م، ففي أواخر ايام المستنصر حدث نزاع حول ولاية العهد بين أبنية نزار والمستعلي، وحسم الصراع لصالح المستعلي، أما نزار فقد أسر عند أخيه ومات في الأسر، فأخذ أتباع نزار يدعون له، وكان منهم حسن الصباح الذي نجح في الاستيلاء على قلعة الموت عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م واتخذ منها مقراً لدولته، وقد هددت هذه وقتلت الكثير من القادة والامراء والخلفاء والسلاطين الذين كانوا يعارضونها أو يقفون في طريقها، ومن أبرز ضحاياهم الوزير الفذ نظام الملك الذي اغتالوه في عام ٤٨٥هـ[٥١] وقد دفع هذا الحدث السلطان ملكشاه الى الانتقام منهم ومطاردتهم رغم أن بعض المصادر تذكر أن علاقة السلطان ملكشاه بنظام الملك قد مرت بمرحلة فتور في أواخر أيامها بسبب الدسائس والوشايات التي كان يقوم بها أعداء الوزير حسداً وغيره[٥٢]، وقد روى أنه عندما ساءت العلاقة بينهما أرسل السلطان الى وزيره يقول :

«سترى انني سآمر بخلع العمامة عن رأسك ...» فثار نظام الملك وكان رده لايقل عن لهجة السلطان اليه إذ أرسل اليه رداً جاء فيه «إن الذي وضع التاج على رأسك هو الذي وضع العمامة على رأسي ... وكلاهما مرتبطان لا ينفصلان.»[٥٣]

وتشاء ارادة الله سبحانه وتعالى أن يموت السلطان بعد وفاة وزيره بشهر واحد على الأرجح، ويقول الدكتور حلمي نقلاً عن ابن العبري أن اختفائهما من فوق المسرح السياسي يعد من أهم الحوادث التاريخية في الدولة السلجوقية، فهو حادث يفصل بين عهد التماسك والاتحاد وعهد الفرقة والتفكك، وبموت الوزير والسلطان زلزلت الدولة، واستعرت نار التنافس على العرش، وتدخلت الجفوة بين السلاطين وقطع ما بينهم من رحم وكثر حنثهم ونقضهم للعهود..[٥٤]

تفجر الصراع بين الاخوة - ابناء ملكشاه - بركياروق[٥٥] وأخيه الاصغر محمود، وكانت تركان خاتون زوجة ملكشاه قد تمكنت من أخذ البيعة لابنها محمود وهو أصغر من بركياروق من زوجة ثانية[٥٦]، فانقسمت الاسرة الى معسكرين كل منهما يؤيد أحد الاخوة، ووقع بينهما قتال مرير هزمت فيه تركان خاتون وولدها وعادت الى أصبهان فسار بركياروق في أثرها[٥٧]، وتمخض الصراع عن انتصار بركياروق ليصبح سلطاناً متوجاً في أصفهان

بينما عين أخوه محمود سلطاناً في بغداد، ورغم هذا فقد تجدد الصراع بينهما وانتهى لصالح بركياروق ايضاً وكان هذا يعتمد على النظامية أتباع الوزير نظام الملك وتمكن من دخول بغداد عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، واعترف به الخليفة المقتدى بالله سلطاناً، وخطب له في يوم الجمعة العاشر من محرم من نفس العام[٥٨]، وخلال حكمه تمكن بركياروق من احكام قبضته على الجبهة الداخلية خاصة بعد أن قضى على تمرد خاله اسماعيل بن يافوت في أذربيجان، وكانت تركان خاتون قد راسلته وأطمعته في الزواج منها إن هو وقف الى جانبها ضد بركياروق، فأجابها لكنه هزم في المعركة[٥٩]، وكذلك تمكن من هزيمة عمه تتش والي بلاد الشام وقتل في معركة قرب الري عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م[٦٠]، ولم ينعم بركياروق بالهدوء غير فترة قصيرة، حيث عاد النزاع حول عرش الدولة من جديد، فقد ثار محمد بن ملكشاه في اذربيجان ضد أخيه بركياروق ونجح في هزيمته وأعلن محمد نفسه سلطاناً في همذان[٦١]، فأرسلت اليه الخلافة تأييداً في عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، وهكذا أصبح للدولة السلجوقية حاكمان في نفس الوقت، وكثرت بينهما الحروب وانتشر الفساد والاضطراب في الدولة وصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والسلطنة مطموع فيها ... وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وكان الامراء الاكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم.

وعلى العموم فقد تجددت المعارك بين الطرفين دون أن يتمكن أحدهما من حسم الصراع لصالحه، الأمر الذي دفعهما لأن يوقعا بينهما اتفاقاً في عام ٤٩٧هـ / ١١٠٣م نص على أن تكون الاقاليم الشمالية - اذربيجان - ارمينية - اصفهان - العراق - من نصيب محمد، والاقاليم الجنوبية - الري ، طبرستان ، خوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة من نصيب بركياروق الذي توفي في العام التالي ٤٩٨هـ / ١١٠٤م. أما خراسان وما جاورها فتكون من نصيب سنجر بن ملكشاه. هكذا إذن رحل بركياروق ودولة السلاجقة قد مزقت شر ممزق.

فخراسان وما حولها لسنجر (الاجزاء الشرقية) والاجزاء الشمالية لأخيه محمد، وبلاد الشام بيد أبناء أخيه تتش وآسيا الصغرى بيد ابناء سليمان بن قتلمش، وكرمان بيد أبناء قاورد.[٦٢]

على كل حال كانت وفاة بركياروق عاملاً شجع أخيه محمد على ضم ممتلكاته ليصبح حاكماً قوياً وسلطاناً لا ينازع في دولة السلاجقة، وحاول أن ينشر العدل والطمأنينة في ربوع دولته، فأحبه الناس والتفوا حوله خاصة بعد أن تصدى للحركة الاسماعيلية، وحدّ من نشاطها[٦٣]. كذلك محاولته التصدي للخطر الصليبي، إلا أنه لم ينجح في هذا الميدان، الأمر الذي شجع الصليبيين على توسيع ممتلكاتهم وفي نفس الوقت كان سلاجقة الشام لا يقلون انقساماً وتنافساً عن ذلك الذي يدور في ايران والعراق، فبعد مقتل تتش حاكم الشام وقع صراع بين أبنائه رضوان صاحب حلب ٤٨٨ - ٥٠٧هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣م، ودقاق صاحب دمشق ٤٨٨ - ٤٩٨هـ / ١٠٩٥ - ١١٠٥م الأمر الذي شغلهم ايضاً عن مواجهة الصليبيين.

انقسام السلاجقة وانهيار دولتهم

توفي محمد بن ملكشاه عام ٥١١هـ / ١١١٧م وكان قد أوصى لابنه الصغير محمود[٦٤] فغضب الامير سنجر من هذه الوصية وكان أخاً شقيقاً للسلطان محمد، واعتبر نفسه أحق بالسلطنة من ابن أخيه محمود، وأعلن نفسه سلطاناً للدولة واتخذ من خراسان مقراً له.

وكان من الطبيعي أن يتفجر الصراع بين سنجر وابن أخيه محمود وحدثت معارك بينهما انتهت بهزيمة محمود وفراره، وأصبح سنجر السلطان الفعلي للدولة وعفى عن ابن اخيه وخلع عليه وعلى رجاله وأنابه عنه في بغداد[٦٥]، ونشر العدل والهدوء والطمأنينة ووسع ممتلكاته حتى امتدت من حدود كاشغر الى أقصى بلاد اليمن ومكة والطائف ومكران وعمان واذربيجان وانتهت عند حدود بلاد الروم[٦٦]. وكان يسمى ملك الشرق، ويسمى أتباعه سلاجقة خراسان تمييزاً لهم عن سلاجقة العراق، وقد واجه سلاجقة خراسان العديد من الاخطار من طرف القره خطائيه والخوارزمية.

أما بالنسبة للدولة القره خطائية، فمعروف انها تنتمي الى مجموعة من القبائل التركية التي سكنت شمال شرق ايران في عهد السلاجقة وأسست دولتها في عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م ووسعوا ممتلكاتهم على حساب جيرانهم فازدادت قوتهم ونمت وأصبحت تشكل

خطراً على جيرانها، وشعر السلطان سنجر بخطورة توسعهم فخرج لتأديبهم إلا أنه هزم عند قطوان ٥٣٦هـ / ١١٤١م، وقد ترتب على هذا الانتصار أن أخذ القرخطائيون يبسطون نفوذهم في بلاد ماوراء النهر واستولوا على سمرقند وبخارى(٦٧)، كما أن هذه المعركة قللت من هيبة سنجر الأمر الذي جرأ عليه حكام الدولة الخوارزمية.

حيث وقعت بين السلطان سنجر والخوارزميين اشتباكات متعددة، ففي عام ٥٣٣هـ سار السلطان سنجر اتجاه خوارزم لعلم وصل اليه بأن اتسز والي خوارزم يحدث نفسه بالامتناع والعصيان، فوقعت الهزيمة على اتسز وقتل ولده، وعندما غادر سنجر خوارزم عاد اليها اتسز بمساعدة الأهالي الذين أعانوه على طرد والي السلطان سنجر(٦٨) وعلى أثر هذه الأحداث استعان اتسز بقبائل الخطا التركية في بلاد ماوراء النهر، إذ توجه الخطا الى بلاد السلطان سنجر وأوقعوا به هزيمة أليمة قتل وأسر الكثير من رجاله وكان من بين الاسرى زوجة السلطان، وقد دارت المعركة ايضاً على أرض قطوان في عام ٥٣٦هـ واستقرت بعدها دولة الخطا الوثنية في بلاد ماوراء النهر(٦٩)، ويبدو أن اتسز الخوارزمي قد راق له ما حل بدولة السلاجقة بدليل أنه قام هو الآخر بمهاجمتها مستغلاً فرصة الهزيمة التي منيت بها على يد الخطا، وتمكن من دخول خراسان وبعض المدن الأخرى وقطع الخطبه لسنجر وخطب لنفسه هناك(٧٠)، وفي عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م انتقم سنجر لنفسه من اتسز عندما سار الى خوارزم وهزمه هناك، وكاد أن يفتك به لولا أن اتسز اعتذر وطلب العفو فعفا عنه سنجر وتركه وعاد الى مرو(٧١)، ورغم هذا فقد عاد اتسز الى التمرد من جديد في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٣م إلا أن سنجر هزمه والأغرب من كل هذا أن سنجر سامحه من جديد ولم يحاربه بل أقره على خوارزم، فكانت بداية الدولة الخوارزمية، وفي نفس الوقت بداية أفول نجم الدولة السلجوقية في خراسان. فلم يكد سنجر ينتهي من مشكلة حتى يقع في أخرى، ففي هذه المرة تفجر صراع بينه وبين الغوريين في عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، إذ حاصر علاء الدين حسين الغوري هراة وسلب ونهب، فتصدى له سنجر وهزمه وأسره إلا أنه أطلق سراحه وحمله بالهدايا(٧٢)، كذلك وقع في صراع مرير مع طائفة الغز التركية التي كانت تقيم في ختلان من أعمال بلخ ويدفعون خراجاً سنوياً للسلطان سنجر قدره اربعة وعشرون الف رأس من الغنم(٧٣)، إلا أن رجال السلطان أساءوا معاملتهم، فتمكنوا من قتل رئيس المطابخ الذي كان يتسلم الخراج السنوي، وهو الذي كان أكثر اساءة لهم، وعلم السلطان بالأمر، وحرضه الامراء على معاقبتهم وسار اليهم فحاولوا استرضاءه بكافة الوسائل، بعد أن شرحوا له

سوء تصرف صاحب المطابخ، وكاد السلطان أن يعفو عنهم لولا تحريض بعض من امرائه تجهز اليهم جيشاً ودخل معهم في معركة كانت نتيجتها هزيمة السلطان وأسره[٧٤]، فالخربوا البلاد وأكثروا فيها الفساد، حتى انهم لم يتركوا بقعة نزلوا فيها الا خربوها وعذبوا الاهالي وقتلوا الكثير من الائمة والقضاة والاعيان، ومن العلماء الذين قتلوا محمد بن يحيى النيسابوري تلميذ الغزالي، وكان امام العلماء وزعيم ائمة العراق وخراسان، كذلك قتلوا الشيخ محمد الاكاف الذي كان امام مشايخ العالم ومقتداهم[٧٥]. كل هذا والسلطان سنجر في أسرهم الذي استمر سنوات ثلاث تمكن بعدها من الهرب الى عاصمته، فوجدها أثراً بعد عين إذ انقلبت الاماكن التي كانت مجامع الانس ومدارس العلم ومحافل الصدور في نيسابور، فأصبحت مراعي للأغنام ومكامن للوحوش والهوام[٧٦] قال تعالى : ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾ صدق الله العظيم.

حاول سنجر أن يصلح ما فسد، ولكن يبدو أن الخرق قد اتسع على الراقع كما يقولون، فقد كانت امكانيات الاصلاح أعجز من أن تفي بانقاذ البلاد مما حل بها من الخراب وأصيب باحباط شديد وسقط مريضاً وتوفي بعدها في عام ٥٥٢هـ / ١١٥٦م[٧٧]، وبعد وفاته وقع صراع بين الابناء والأقارب والأمراء، وحسم الصراع لصالح مملوكه شهاب الدين المؤيد الذي أصبح يذكر اسمه في بغداد بعد اسم الخليفة العباسي المستنجد بالله، إلا أن المؤيد هذا قتل على يد علاء الدين تكش الخوارزمي عندما حاول مهاجمته في خوارزم، وكان المؤيد قد هاجم خوارزم مساعدة لسلطان شاه ضد أخيه تكش، وحاول سلطان شاه الاستعانة بالغور والخطا، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق أي مكاسب تذكر وتوفي في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٢م تاركاً السلطه والدولة لأخيه تكش، الذي أخذ يوسع ممتلكاته على حساب سلاجقة ايران والعراق، وبمقتل طغرل السلجوقي عام ٥٩٠هـ على يد تكش وسيطرة تكش على العراق واقرار الخليفة العباسي (الناصر لدين الله) له على هذا الوضع يمكننا القول بأن الدولة الخوارزمية قد ابتلعت دولة السلاجقة في كل من ايران والعراق[٧٨]. هذا ما يخص سلاجقة خراسان.

أما عن سلاجقة العراق :

فقد سبق وأن ذكرنا أن السلطان سنجر أقر ابن أخيه محمود سلطاناً تابعاً في

العراق وفي هذه الفترة وقعت أحداث وفتن، أجبرت السلطان محمود أن يتحرك للقضاء عليها، وخاصة في منطقة اذربيجان التي تعرضت لهجوم من حكام جورجيا في عام ٥١٣هـ / ١١١٩م وقد تمكن السلطان محمود من هزيمة هؤلاء وطردهم في عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م، وبعد وفاة السلطان محمود عام ٥٢٥هـ / ١١٣٠م وقع نزاع بين ابنه داود وعمه مسعود، ثم تصالحا فيما بعد وتزوج داود من ابنة عمه مسعود(٧٩)، كذلك تمكن مسعود من هزيمة أخيه سلجوق شاه، واتفقا على أن يكون مسعود سلطاناً على سلاجقة العراق وسلجوق شاه ولياً لعهده وأجلسه على عرش فارس(٨٠)، ولم يلبث مسعود أن خاض العديد من المعارك مع اخوته وأقاربه حتى تمكن في نهاية المطاف من اقرار سيطرته على العراق وغزى ايران، وضم اليه همذان بعد وفاة أخيه طغرل عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م(٨١). وما أن انتهى مسعود من هذه المشكلة حتى وقع في صراع مع الخليفة المسترشد بالله عام ٥٢٩هـ فهزم الخليفة وأسر، ويقال انه قتل في خيمته بعد أسره(٨٢) على يد الاسماعيلية، تولى الخلافة بعده ابنه الخليفة الراشد الذي دخل هو الآخر في حرب مع السلطان مسعود في عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م.

وهزم الخليفة وطرد وعزل وعين مكانه الخليفة المقتفي لأمر الله(٨٣)، فأصبح مسعود حاكماً قوياً مرهوب الجانب إذ قضى على منافسيه والمعارضين له، إلا أنه توفي عام ٥٤٦هـ(٨٤) وبموته ضعفت هيبة السلطنة في العراق وأصبح السلاطين ألعوبة في يد قادتهم وأمرائهم، وفي عام ٥٤٧هـ تولى السلطنة ملكشاه بن محمود بعد وفاة عمه مسعود(٨٥) وفي العام التالي ٥٤٨هـ / ١١٥٣م تولى السلطنة محمد بن السلطان محمود واستقر في همذان وتمكن من السيطرة على مجريات الأمور في العراق وغيرها، خاصة بعد أن هزم الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ومن وقف الى جانبه من ابناء الاسرة السلجوقية كعمه سليمان الذي كان يطمع في الملك(٨٦)، إلا أن القتال تجدد بين الطرفين ولم يتمكن السلطان محمد من دخول بغداد(٨٧)، فاضطر الى الانسحاب ليقابل بعض أعدائه الذين دخلوا الى همذان وتمكن من طردهم وتوفي في عام ٥٥٤هـ(٨٨) / ١١٥٩م وتولى بعده سليمان بن محمد ملكشاه لمدة ستة شهور(٨٩)، وأسند ولاية العهد الى ارسلان الذي كان مقيماً عند الاتابك ايلدكز، ويبدو أن سليمان هذا كان مكروهاً من الامراء(٩٠) لكثرة شرابه ولهوه واحتقاره لهم(٩١). وقد برزت شخصيات جديدة باتت تتحكم في مجريات الامور، وأقوى هذه الشخصيات كان أتابك اذربيجان ايلدكز الذي أجلس ابن زوجته ارسلان بن طغرل الذي كان ولياً للعهد، أجلسه على عرش سلاجقة العراق عام ٥٥٥هـ بينما تلقب هو بلقب الاتابك الاعظم، والذي أصبح الحاكم

الفعلي للبلاد بينما السلطان ليس له من الأمر إلا الاسم(٩٢)، ويذكر صاحب راحة الصدور أن السلطان ارسلان «كان متغافلاً عن أمر الدخل والخرج، وضبط أحوال الخزانة وشئون العرش وغير ذلك من الأمور ... وكان محباً للتنعم باحثاً عن الترفه ..»(٩٣)

وهكذا بدأ عهد ظهور الاتابكة من حكام الاقاليم وقادة الجيش، وأخذوا يتنافسون فيما بينهم، إلا أن الهيبة والنفوذ أصبحت مسنودة الى جهان بهلوان ابن ايلدكز بينما السلطان طغرل بن ارسلان لاحول له ولا قوة(٩٤).

وفي عام ٥٨٢هـ / ١١٨٦م توفي جهان بهلوان، فاضطربت بعده الأمور وسادت الفتن(٩٥). حتى أن السلاجقة لم يتمكنوا من صد الهجوم الخوارزمي الذي تعرضوا له في عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، فهزموا هزيمة ساحقة انهارت بعدها قوى سلاجقة العراق أمام الدولة الخوارزمية التي أصبحت أكبر قوة في منطقة العراق وايران.

بعض المظاهر الحضارية

كان السلطان هو صاحب السلطة العليا في البلاد، ويخضع لنفوذه حكام الاقاليم المختلفة، وهو الذي يقود الجيوش ويدير المعارك ويعين حكام الاقاليم ويعزلهم ويعاقبهم، ولم يكن عند السلاجقة نظام معين للوصول الى السلطنة، فلا يصلها إلا أقوى الشخصيات وأبرزها في الاسرة، وكثيراً ما وقع النزاع في حالة ظهور أكثر من شخصية قوية، وفي حالة الحسم كان المنتصر يحرص على موافقة الخليفة العباسي ليرسل له تقليداً حتى يكسب سلطته الصفة الشرعية.

وكان يلي منصب السلطنة في الأهمية منصب الوزير فهو الذي يرأس جميع رجال الديوان ويشرف على جميع اعمال الدولة ويخضع له موظفوها مما يجعله في مركز يؤهله لادارة سياسة الدولة الداخلية والخارجية، ونظراً لأهمية هذه الوظيفة فقد كثرت حولها المنافسات والصراعات.

وكان يساعد الوزير في عمله مجموعة من الموظفين هم أصحاب الدواوين كديوان الاستيفاء، ومهمته أشبه بوزارة الخزانة اليوم، وديوان الرسائل الذي يشرف على جميع مكاتبات الدولة وينظم علاقة الدولة في الداخل والخارج، وغالباً ما يرشح صاحب هذا الديوان لمنصب الوزارة وهناك ديوان الاشراف وديوان الانشاء وديوان الأوقاف وديوان عرض الجيش، والأمر الغريب هو أن السلاجقة ألغوا ديوان البريد.(٩٦)

والى جانب هذه المجموعة من كبار الموظفين وأعني بهم أصحاب الدواوين كانت هناك مجموعة أخرى من المناصب الادارية والسياسية ويتولاها موظفون يعينون من قبل السلطان مباشرة وأهمهم:

الأمير الحاجب الكبير، ومهمته الاشراف على سير الامور في بلاط السلطان، وهو حلقة الوصل بينه وبين الرعية وله نائب يعاونه، وكان أصحاب الدواوين يستشيرونه في كثير من المسائل المتعلقة بعملهم إدراكاً منهم لنفوذه وسطوته.

وكيل دار السلطان، وهو ملتصق بالسلطان وأعرف الناس بمشاعره، وتسند اليه مهمة محادثة السلطان في بعض الأمور، في أوقات يختارها هو ويشترط فيه أن يكون بليغاً فصيحاً.(٩٧)

منصب الشحنه، ويشبه منصب المحافظ ومهمته الاشراف على ادارة المدينة والمحافظة على الأمن فيها وهو بمثابة رئيس الشرطة، وهناك منصب العميد وهذا يعاون الشحنه في ادارة الولاية.

منصب الاسفهلار، وهو الذي يتقدم الجيش في القتال يعينه السلطان بناء على كفاءته وقدراته المتعددة.

الأتابكة، وكان ظهور هذه الوظيفة نتيجة من نتائج تطبيق نظام الاقطاع، والأتابكية امارة يقطعها السلطان لأحد خواصه ومعظمهم من المماليك الذين يشتريهم سلاطين السلاجقة ويربونهم في قصورهم ويلحقونهم في الجيش ويمنحوهم أعلى الرتب.(٩٨)

كان من أبرز الذين تسلموا منصب الوزارة في سلطنة السلاجقة نظام الملك، الذي كان نافذ الكلمة واسع السلطنة يطيعه جميع رجالات الدولة وكبار قادتها حباً وقناعة نظراً لما كان يتمتع به من قوة وفطنة وحسن تدبير للأمور، وقدرة على التنظيم فائقة وله باع في الأدب والكتابة طويل، ويعده البعض بأنه من أشهر الوزراء الذين عرفهم التاريخ.(٩٩)

هذا وكانت دولة السلاجقة مقسمة الى ولايات وعلى رأس كل ولاية أحد أفراد الاسرة السلجوقية في معظم الاحيان، وكان منصب حكام الولايات وراثياً من الآباء الى الابناء. وكان حاكم كل اقليم يستعين بمجموعة من الموظفين ويكوّن له جيشاً خاصاً به، لكنه يكون تابعاً مع قواته مباشرة للسلطان.

ومن أشهر أقاليم الدولة خراسان وبلاد ماوراء النهر وبست وهراة وسبستان وكرمان وهمذان وابهر وزنجان واذربيجان والري واصبهان وفارس وبلاد الشام وآسيا الصغرى، وكان لكل ولاية من هذه الولايات ديوان يشرف على شئونها المختلفة وينظم الصلة بينها وبين عاصمة الدولة كما ينظم العلاقة بين الولاية وغيرها من الولايات.

الحياة العلمية

ازدهرت الحياة العلمية في ظل دولة السلاجقة ، حيث اهتم السلاطين برعاية العلوم والفنون والآداب، فكثرت المدارس وانتشرت في كل مكان وكان الطلاب يجوبون البلاد لتلقي العلم على يد مجموعة من العلماء المسلمين الذين برزوا في مختلف العلوم النقلية والعقلية، وكانت أهم المراكز العلمية الى جانب المدارس المساجد والخانقاوات أو الربط، وقد ساهمت هذه المراكز في دفع الحركة العلمية الى الأمام ويعتبر انتشار المدارس من أهم الظواهر العلمية التي برزت في العصر السلجوقي ووجدت اهتماماً لدى السلاطين ووزرائهم وتعتبر المدارس النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك أول نوع ظهر في الاسلام من المؤسسات العلمية بمعناها الصحيح، فقد هيأت لطلابها كافة الظروف التي تمكنهم من التحصيل العلمي الجاد، وكان من العوامل التي دفعت الحركة العلمية الى مراحل متقدمة، ظهور الفرق المختلفة كالمعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم حيث دارت حركة جدل واسعة

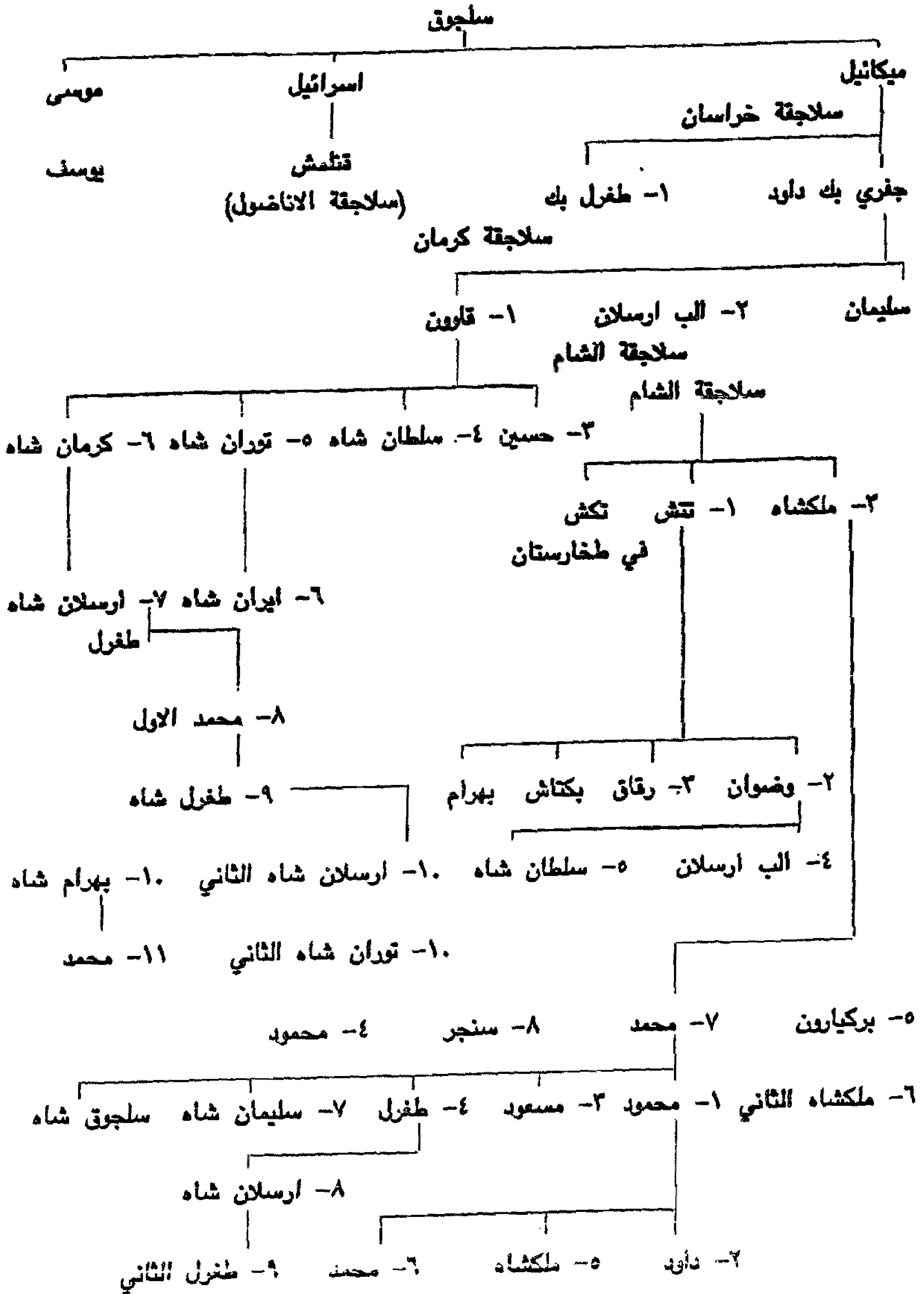
بين علماء هذه الفرق الأمر الذي أثرى المكتبة الاسلامية آنذاك.

كذلك كانت حوانيت الوراقين عاملاً من العوامل التي أثرت في دفع الحركة العلمية الى الامام، حيث يجلس فيها باعة الكتب، وكانوا في معظم الاحيان من الحفاظين أو النساخين أو المتأدبين، وبعض هذه الدكاكين يحتوي على العديد من الكتب المختلفة الموضوعات فيؤمها طلاب العلم والمعرفة للقراءة والبحث والاطلاع وقد كان دخل الاوقاف التي توقف على المدارس والربط وغيرها يشكل مورداً هاماً من مواردها المالية الى جانب الدعم الذي كان يقدمه السلاطين والامراء.

هذا وقد انقسمت العلوم التي كانت تدرس الى قسمين : العلوم الشرعية والعلوم العقلية، وكما ذكرنا فقد كان لكل علم وفن اساتذة اجلاء متخصصون ووضعوا العديد من امهات الكتب كل في مجاله الذي يتخصص فيه، ولازلنا ننهل منها حتى ايامنا هذه.

السلاجقة

من القرن الخامس الى الثامن الهجري



الحواشي

١- نظام الملك: مصدر سابق ص ٣٤ Sykes I.p 204 .

٢- عبدالمنعم حسنين: «دولة السلاجقة» ص ١٧ ط ١٩٧٥

٣- Sykes . I. p 204

٤- عبدالمنعم حسنين: مصدر سابق ص ١٨

٥- المصدر السابق ص ٢٢

٦- الراوندي: مصدر سابق ١٤٧

الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧

٧- الراوندي: مصدر سابق ١٤٨

٨- انظر التفاصيل في الراوندي ص ١٤٨-١٥٠

Sykes. I. p 204

٩- د. احمد كمال حلمي: مصدر سابق ص ٢٣

محمد مسطر الزهراني: «نفوذ السلاجقة السياسي ص ٤٤ ط ١٤٠٢

١٠- الراوندي: «راحة الصدور» ص ١٥٢

١١- انظر ماورد في الدولة الغزنوية.

١٢- الراوندي: مصدر سابق ١٥٣

١٣- البيهقي: تاريخ البيهقي ص ٦٠٥-٥٠٣ الرواندي ص ١٥٥

١٤- الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ٨

١٥- الراوندي: مصدر سابق ١٥٧

الاصفهاني: مصدر سابق ٩ ، البيهقي: تاريخه ٦٦٣

١٦- احمد حلمي: مصدر سابق ص ٢٤

١٧- الراوندي: مصدر سابق ١٥٩ ، الاصفهاني: ص ٩

١٨- انظر نص رسالة طغرل في الراوندي: ١٦٦-١٦٧

١٩- الراوندي: مصدر سابق ١٦١-١٦٣

٢٠- احمد حلمي: مصدر سابق ص ٢٧

٢١- Sykes. I. p 201

٢٢- ابن الاثير: حوادث ٥٤٧

٢٣- الراوندي: مصدر سابق ١٧٠

الاصفهاني: مصدر سابق ص ١٢

٢٤- الاصفهاني: مصدر سابق ص ١٥

٢٥- نفس المصدر ص ١٨

٢٦- الراوندي: مصدر سابق ١٧٢

٢٧- المصدر السابق ص ١٧٥

سبط ابن الجوزي: «مرآة الزمان في تاريخ الاعيان»

هناك تفاصيل كثيرة ص ٦٤ ط ١٩٦٨

٢٨- الاصفهاني: مصدر سابق ٢٠

٢٩- مصدر سابق ص ٢٦

٣٠- مصدر سابق ٢٧ ، الراوندي: مصدر سابق ١٧٧-١٧٨

Sykes. I. p 206

٣١- بعد أن أبعد سليمان بن طغرل ، وكان لايزال طفلاً.

الراوندي: مصدر سابق ١٨٥

ابن الاثير: ٢٩/١٠

٣٢- ابن الجوزي: مصدر سابق ١١٥

٣٣- عبدالمنعم حسنين: مصدر سابق ص ٤٩

٣٤- الاصفهاني: مصدر سابق ص ٣٧

٣٥- ابن الاثير: مصدر سابق ٦٣/١٠

٣٦- الراوندي: مصدر سابق ١٨٩-١٩٠

٣٧- الاصفهاني: مصدر سابق ص ٤٠-٤٤

٣٨- ابن الاثير: نفس لامصدر ٦٦/١٠-٦٧

٣٩- الراوندي: نفس المصدر ١٩١

٤٠- ابن الاثير: نفس المصدر ٧٣/١٠

٤١- الراوندي: نفس المصدر ١٩٧ ، ابن الاثير ٦٧/١٠

٤٢- الاصفهاني: مصدر سابق ٥٩

٤٣- ابن الاثير: نفس المصدر ٨٠/١٠

٤٤- الراوندي: ١٩٨ ، ابن الاثير: ٧٨/١٠

٤٥- الراوندي: ص ٢٠٣ ، الاصفهاني: ص ٧١

٤٦- الاصفهاني: محاسن اصفهان ص ١٠٥

٤٧- ابن الاثير: حوادث ٤٧٧

٤٨- عبدالمنعم حسنين: ص ٥٨

٤٩- الراوندي: ص ٢١٣

٥٠- والاسماعيلية ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق وكانوا يعتقدون أنه أحق بالامامة من أخيه موسى الكاظم، وهم من شيعة آل علي، ويعتقدون في سبعة ائمة آخرهم اسماعيل الذي اختفى .. ويعتقدون أنه سيظهر آخر الزمان أو في الوقت المناسب لاصلاح الدنيا ولذلك يسمون بالسبعية، ويسمون ايضاً بالتعليمية لاعتقادهم بضرورة وجود امام لارشادهم وتعليمهم، وسموا بالباطنية لأنهم يؤمنون بأن للعقيدة ظاهر وباطن....

انظر تفاصيل أخرى في :

الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ٦١-٦٣

٥١- الراوندي: ص ٢٠٩ ، ابن الاثير: ٦/٢٠٤

٥٢- الاصفهاني: محاسن اصفهان ص ١٠٣ ، احمد حلمي: نفس المصدر ص ٤٤

٥٣- الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥

الراوندي: نفس المصدر ص ٢٠٨

٥٤- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٤٢ ، بيروت ١٨٩٠

٥٥- الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨١

٥٦- ابن الاثير: ١٠/٢١٥

٥٧- نفس المصدر ١٠/٢١٥-٢١٦

٥٨- نفس المصدر ١٠/٢٢٩

٥٩- نفس المصدر ١٠/٢٢٤

٦٠- تفاصيل الصراع بين بركيارون وأخيه وعمه

الراوندي: ص ٢١٥-٢٢٠

٦١- الراوندي: ص ٢٢٨ ، ابن الاثير: ١٠/٣٦٢

٦٢- ابن الاثير: نفس المصدر ١٠/٣٦٩-٣٧٠

٦٣- تفاصيل ذلك ص ٢٤٠-٢٤٩ الراوندي.

٦٤- ابن الاثير: نفس المصدر ١٠/٥٢٥

٦٥- الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ١٢١ - الراوندي ص ٢٥٩

ابن الاثير: الكامل ١٠/٦٥١-٦٥٤

٦٦- الراوندي: ٢٦٠

٦٧- الراوندي: مصدر سابق ٢٦٢

٦٨- ابن الاثير: الكامل ١١/٦٧

٦٩- الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٧٩

ابن الاثير: ١١/٨١-٨٦

٧٠- نفس المصدر ١١/٨٧

٧١- نفس المصدر ١١/٩٥

٧٢- احمد حلمي: مصدر ص ٦٢

٧٣- Sykes. I. p 215

٧٤- الراوندي: مصدر سابق ٢٧٠ ، Sykes. I. p 215

٧٥- الراوندي: مصدر سابق ٢٧٤

ابن الاثير: مصدر سابق ١١/١٧٦

٧٦- الراوندي: ص ٢٧٦ ، ابن الاثير: ١١/١٧٦ ومابعدها.

٧٧- المصادر السابقة ، Sykes. I. p 215

٧٨- احمد حلمي: مصدر سابق ٦٧-٦٨

٧٩- الراوندي: مصدر سابق ص ٣٢٩

٨٠- نفس المصدر ص ٢٣٤

٨١- الاصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ١٦١

٨٢- الراوندي: ص ٢٣٥

٨٣- نفس المصدر ص ٢٣٢

٨٤- نفس المصدر ٣٥٤

٨٥- نفس المصدر ٣٦٠.

٨٦- نفس المصدر ٣٨٣

٨٧- نفس المصدر ٣٨٥

٨٨- نفس المصدر ٣٨٧

٨٩- نفس المصدر ٣٩٢

٩٠- المصدر نفسه ٤٠٩

٩١- ابن الاثير: ١١/٢٦٦

٩٢- الراوندي: ٤٠٩

٩٣- نفس المصدر ص ٤٠٤

٩٤- المصدر نفسه ٤٦٧

٩٥- الراوندي: ص ٤٦٨-٤٧٠

قائمة المراجع والمصادر

١- ابن الاثير (علي بن ابي الكرم) — الكامل في التاريخ ١٨٨٩ ، ١٩٦٥

٢- احمد السعيد سليمان — تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة١٣٨٩-١٩٦٩

٣- أحمد مختار العبادي — قيام دولة المماليك الأولى ١٩٦٩ - مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر

٤- أحمد علبي — ثورة الزنج

٥- أحمد محمد عدوان — الدولة الحمدانية ١٩٨١ - منشورات المنشأة الشعبية للنشر / طرابلس

٦- أحمد محمود الساداتي — تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية - ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م

٧- أحمد محمود الساداتي — تاريخ الدول الاسلامية بآسيا وحضارتها ط ١٩٧٩ - القاهرة

٨- أحمد كمال الدين حلمي — السلاجقة في التاريخ والحضارة ط ١٩٧٥

٩- بارتولد فاسيلي ثبولر — تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي - الكويت ترجمة صلاح الدين هاشم ط ١٩٨١

١٠- براون — تاريخ الأدب الفارسي

١١- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) — فتوح البلدان بيروت ط ١٩٥٧

١٢- البيهقي (أبو الفضل البيهقي) — تاريخ البيهقي - ترجمة يحيى الخشاب - صادق نشأت ط ١٩٨٢ دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت

١٣- الثعالبي (عبدالملك بن محمد بن اسماعيل) — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق مفيد قميحة

١٤- الجاحظ (عمرو بن بحر) — التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب : بيروت دار الكتاب .

١٥- الجهشياري (محمد بن عبدوس — الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا

١٦- حامد ابو سعيد — عصر الدولة الاقليمية ١٩٧٠

١٧- حامد ابو سعيد — انتشار الاسلام حول بحر قزوين القاهرة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

١٨- ابن حوقل (ابو القاسم النصيبي)	صورة الأرض ، بيروت
١٩- ابن خرداذبه (عبيد الله بن عبدالله	المسالك والممالك ط ١٨٨٩
٢٠- ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون)	العبر
٢١- ابن خلكان (احمد بن محمد بن ابي بكر)	وفيات الاعيان : تحليق احسان عباس
٢٢- خليل الله خليلي	هرات - تاريخها ، آثارها ، رجالها ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م
٢٣- الراوندي	راحة الصدور وآية السرور ترجمة مجموعة من الاساتذة ابراهيم الشواربي ، عبدالمنعم حسنين
٢٤- سبط بن الجوزي	مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ط ١٩٦٨
٢٥- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر)	تاريخ الخلفاء ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م

٢٦- الشبابشتي (علي بن محمد) — الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ط١٩٥٢

٢٧- شكيب أرسلان ، ستوارد ، لوثورب - تعليقات واضافات — حاضر العالم الاسلامي دار الفكر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

٢٨- شوقي ابو خليل — هارون الرشيد - دمشق ١٩٨١

٢٩- الصابي (ابو الحسين هلال بن عبدالمحسن) — تاريخ الصابي ١٣٣٧هـ - ١٩١٩م

٣٠- الاصفهاني (مفضل بن سعد بن الحسين) — محاسن اصفهان تحقيق : جلال الدين الحسني

٣١- الاصطخري (ابراهيم بن محمد الفارسي) — المسالك والممالك - تحقيق محمد عبدالعال - ابريل ١٩٢٧م

٣٢- الطبري (محمد بن جرير) — تاريخ الرسل والملوك ط ١٣٩٩ + ط بيروت

٣٣- طه ندا — تاريخ بخارى ، الاسكندرية ١٩٦٦

٣٤- عبدالحي الحسني — الهند في العهد الاسلامي ١٣٩٢/١٩٧٢

٣٥- عبدالمنعم حسنين — دولة السلاجقة ط ١٩٧٥

٣٦- عبدالمنعم النمر — الاسلام في الهند ط ١ . ١٤

٣٧- ابن العبري (غريغوس ابي الفرج بن هارون الملطي — مختصر الدول ط ١٨٩٠م

٣٨- العتبي — الفتح الوهبي في شرح تاريخ العتبي

٣٩- عدنان العطار — الأطلس التاريخي

٤٠- عصام عبدالرؤوف — بلاد الهند في العصر الاسلامي القاهرة / ١٩٨٠ م

٤١- عماد الدين محمد بن حامد الاصفهاني — تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الامام الشيخ الفتح بن علي بن محمد البنداري - بيروت ١٩٧٨

٤٢- ابو العنين فهمي محمد — افغانستان بين الامس واليوم ط ١٩٦٩م

٤٣- فامبري ارمينوس — تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ترجمة احمد الساداتي ط ١٨٧٢

٤٤- ابن فضلان (احمد بن العباس بن راشد بن حماد — رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ١٣٧٩ - ١٩٥٩

٤٥- ابن الفقيه (احمد بن محمد الهمذاني)	مختصر كتاب البلدان ابريل ١٨٨٥م
٤٦- ابن قتيبة	الشعر والشعراء ، تحقيق احمد شاكر القاهرة / ١٩٤٢
٤٧- قحطان الحديثي	حركات الخوارج في خراسان مجلة كلية الآداب عدد ٦
٤٨- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)	آثار البلاد واخبار العباد
٤٩- ابن كثير (اسماعيل بن عمر)	البداية والنهاية بيروت ١٤٠٤/١٩٨٣ - منشورات مكتبة المعارف
٥٠-كرديزي (ابو سعيد عبدالحي)	زين الاخبار ، ترجمة محمد بن ناوت ط١٩٧٢
٥١ - كي لسترانج	بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة كوركيس عواد ١٤٠٥ - ١٩٨٥ - مؤسسة الرسالة بيروت
٥٢ - محمد حلمي	الخلافة والدولة ط ١٩٥٩

٥٣ – محمد ضياء الدين الريس — الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ط الرابعة ١٩٧٧ دار الانصار القاهرة

٥٤ – محمد علي حيدر — الدويلات الاسلامية في المشرق القاهرة ١٩٧٤

٥٥ – محمد فتحي ابو سيف — المشرق الاسلامي بين التبعية والاستقلال – القاهرة

٥٦– محمد مسفر الزهراني — نفوذ السلاجقة السياسي ط ١٤٠٢ مؤسسة الرسالة بيروت

٥٧ – المسعودي (محمد بن الحسين بن علي) — مروج الذهب ومعادن الجوهر ط ١٣٧٧

٥٨ – المسعودي — التنبيه والاشراف ابريل ١٩٨٥

٥٩ – مصطفى السباعي — القلائد من فرائد الفوائد بيروت ١٤٠١ – ١٩٨١

٦٠ – المقدسي (محمد بن احمد بن ابي بكر البشاري) — أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم بيروت ١٩٠٦

٦١ – موريس لومبارد — الجغرافيا التاريخية للعالم الاسلامي ترجمة عبدالرحمن حميدة ط ١٣٩٩/١٩٧٩ دار الفكر – دمشق

٦٢ – النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر) — تاريخ بخارى – ترجمة امين بدوي دار المعارف القاهرة

٦٣ – نظام الملك الطوسي — سياسة نامه ترجمة د. السيد محمد العزاوي – دار الرائد العربي .

٦٤ – ياقوت (شهاب الدين ابو عبدالله الحموي) — معجم البلدان بيروت

٦٥– اليعقوبي (احمد بن ابي يعقوب بن واضح) — تاريخ اليعقوبي

66 - Bosworth — The GHazavids 1973

67 - J. Briggs — History of the rise of the Mohamadan power in india Vol I Colcuttta 1966

68 - R. N. Frye — The Combridge history of Iran Vol IV Combridge 1975

69 - S. J Glubb — The Course of the empire 1960

70 - Henry Beveridge — Comprehensive, History of india, Niw Delhi 1974

71 - M. A. Inamul HoQup — A short History of Moslem Rule in India & Pakestan - 1970

72 - Muhammad Nazim — The like and times of Sultan Mahamad of GHazna cinbrudge 1971

73 - S. Muir — The Caliphate its rise decline and fall

74 - L. Poole — Medievad India NewYork 1970

The Mohammadan dynasties

75 - J. Saunders — Ahistory of medievalism London 1955

76 - Sykes, percy — History of Afghanestan

77 - Wolseley Hary — The Combridge History of India Vol III London 1965

فهرست المحتويات





دار عالم الكتب للنشر والتوزيع
العليا - الشارع العام - ت ٤٦٣١٣٣٦ / ٤٦٣١٧٢٢ / ٤٦٥١٦٨٩
ص.ب ٦٤٦٠ الرياض ١١٤٤٢